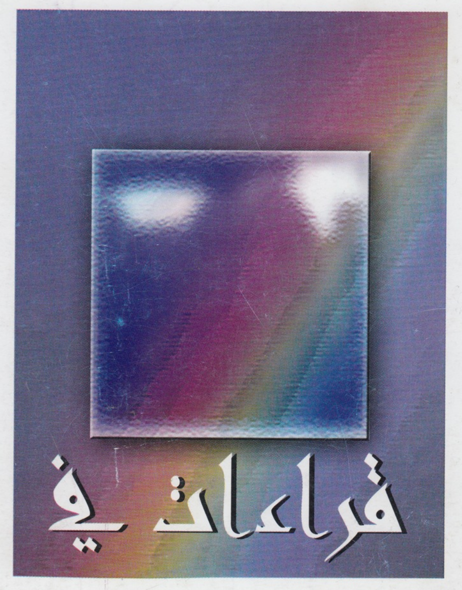
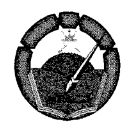




فكر البهلاني الرواحي

الطبعة الثانية / ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م



قراءات في فكر البهلاني الرواحي

حصاد الندوة التي أحياها المنتدى الأدبي تكريما للمرحوم
أبي مسلم البهلاني الرواحي - رحمه الله

الفترة من ١٤ - ١٦ رجب ١٤١٥هـ
الموافق ١٧ - ١٨ ديسمبر ١٩٩٤م

الطبعة الثانية / ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

صدر من هذه السلسلة:

١- قراءات في فكر السالمي

٢- قراءات في فكر الخليلي

٣- قراءات في فكر العوتبي الصحاري

٤- قراءات في فكر السيد هلال بن بدر البوسعيدي

٥- قراءات في فكر أبي الصوفي

٦- قراءات في فكر أبي نبهان

٧- قراءات في فكر ابن بركة البهلوي

٨- قراءات في فكر ابن سعيد الكدمي

٩- قراءات في فكر ابن عريق

١٠- قراءات في فكر الاغبري

١١- قراءات في فكر الشقصي

١٢- قراءات في فكر أحمد بن النضر

تصميم الغلاف : نبيل البقيلي

المنتدى الأدبي

ص.ب :١٧٧٧– الرمز البريدي :١١١ البريد المركزي .

هاتف : ٢٤٤٩٣٤٢٤–فاكس :٢٤٤٩٢٥٧٥

البريد الإلكتروني : E-mail: litsoc@omantel.net.om

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الاصدار

حمداً لله ونصلي ونسلم على رسول الله ، وعلى آله وصحبه اجمعين وبعد .
في عالم يموج بتيارات الفكر ، ويتمخض عن الجديد في كل آن ، عالم اختزلت فيه المسافات وتلاحمت فيه الثقافات باشكالها الفكرية والفنية والحياتية المختلفة .

تتقدم وزارة التراث القومي والثقافة ممثلة في المنتدى الأدبي بهذا الاصدار الذي يجول فكر أحد اعلام عمان في الفقه والأصول والأدب والشعر راجين أن نتمثل جميعاً هذا الحصاد الفكري الذي جاء نتيجة جهود ثلة مختارة من كبار الباحثين والدارسين تمثلا ذاتيا في اطار محاولة عصرية لسبر أغوار نهضة فكرية ثقافية رادتها تلك الصفوة من علماء عمان وأدبائها وشعرائها في ادراك ووعي منا بأننا نواجه تراثنا الحافز بحيث لا نعمل فيه مشرطنا النقدي من جانب واحد ولا على اساس انه ملك حضوري ، لاننا شئنا أم أبينا فنحن جزء لا يتجزأ منه ، وأنه يمثل الافتراضا القاعدة الصلبة التي نستقي من ينابيعها اصالتنا وهويتنا التي بدونها يظل فكرنا سجين الأخذ ، رهين العطاء ، آخذين بعين الاعتبار الايجابي مع ما تفرزه الحضارات الانسانية المعاصرة .

وانه في اطار اهتمام المنتدى الادبي بالتواصل الأدبي والفكري وفي ضوء سعيه الى صلة الرحم بين الخلف والسلف يسرنا أن نتقدم بهذا الاصدار حول فكر المرحوم أبي مسلم البهلاني الرواحي ايماناً منا بأن قراءة التراث تعد تأسيساً للمستقبل بما يسمح ببعث الجديد عبر احياء المكتسب ، سائلين الله التوفيق والسداد .

والله من وراء القصد

المنتدى الأدبي

شعبان ١٤١٨هـ
ديسمبر ١٩٩٧م

البهلاني فقيها وأديباً

سماحة الشيخ

أحمد بن حمد الخليلي

مفتي عام السلطنة

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان الا على الظالمين ، سبحانه له الحمد على ما أنعم ، علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم - أحمده وأثني عليه، وأستغفره وأتوب اليه ، وأومن به وأتوكل عليه ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله الا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً عبده ورسوله ، أرسله الله الى خلقه منقذاً من الضلالة ومعلماً من الجهالة وداعياً إلى الله على بصيرة ، فبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة وكشف الغمة ، وصلى الله وسلم عليه ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، وعلى تابعيهم باحسان إلى يوم الدين .

أصحاب الفضيلة والسعادة ، أيها الأخوة الحضور ، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

إنه من يمن الطالع أن يتجدد لقاؤنا في هذا الصرح الثقافي تحت مظلة العلم والأدب، من أجل احياء ذكريات أعلام هذا البلد العريقين في علمهم وفي أدبهم ، وان مما يسعد النفس ويبهج الخاطر أن يكون المحتفى بذكراه في هذا اللقاء الميمون رجلاً تلاطم في حيزومه بحر العلم والأدب ، وهو الأديب الذي لا يشق له غبار وهو الفقيه المحقق المعروف بعمق مناقشاته الفقهية وقوة تأصيلاته لمسائل الفقه وهو المتكلم البارع الذي يثبت حجة الحق بما يثلج الصدور ، وبما يثري القلوب .

ان المحتفى به امام العلم والأدب العلامة الكبير أبو مسلم ناصر بن سالم بن عديم بن صالح بن محمد بن عبدالله بن محمد البهلاني الرواحي – رحمه الله تعالى – وشهرته تغني عن التعريف .

والحديث عن شخصية أبي مسلم حديث ذو شجون ، فطرح الجانب الأدبي في مثل هذه الندوة من أجل استقصاء مهارة أبي مسلم الأدبية أمر يستدعي جهداً كبيراً ، كما ان طرح مناقشة قوة مأخذه في الفقه ، وعمق تأصيلاته للقضايا الفقهية ، أيضاً أمر يحتاج الى باع طويل في الفقه وذلك أمر لا يستطيعه مثلي وقد كنت حريصاً كل الحرص على الحضور هنا معكم في الليلتين الماضيتين من أجل الاستفادة من الباحثين المهرة الذين تناولوا شخصية أبي مسلم وعلمه وأدبه ، ولكن حالت الظروف دون ذلك ، والمقادير تحول دون الأماني كثيرا .

ولئن جئنا الى شخصية أبي مسلم الأدبية – نجد أنه لم يكن أديبا تقليدياً يهيم في كل واد ويقول ما لا يعمل ، وإنما كان رجلاً في أمة وأمة في رجل ، يحمل هموم أمته . ويتلمس بيده الخبيرة عللها وآلامها ، ويستنتج بعقله الثاقب علاجها ودواءها من تلك العلل التي تعاني منها، فكانت معاناته بسبب ذلك معاناة كبيرة .

نعم ، عاش أبو مسلم من أجل أمته وسخر قلمه لخدمتها ، فلئن جلنا في أدبياته الروحانية التي قدم فيها أسماء الله الحسنى نجد أنه في مرحلة مبكرة كان يدعو الله – تبارك وتعالى – ويبتهل اليه بأن يهيىء لهذه الأمة من أمرها رشداً فقصيدته التي نظمها وهو في مطلع العقد الثاني من عمره وسماها المِعرج الأسنى في أسماء الله الحسنى ، نلمس فيها هذا الابتهال والضراعة الى الله – تبارك وتعالى – كما في قوله :

ويا قاهر اقصم دولة السوء وامحها ... وشرد بها وأشدد عليها معجلاً
ويا وارث اصرف سورة البغي وانتقم ... بعدلك ممن بالضلال تسربلا
ويا باعث ابعث راية الحق حولها ... جنودك تبلو في رضاك وتبتلى
ويا قائماً بالقسط قوم مسددا ... قوياً على اظهار دينك فيصلا
يصول سريعاً يا سريع بنقمة ... على كل ضليل عن الحق أحفلا

وهكذا نجده في جميع أذكاره التي جمعها في ديوانه الذي سماه (النفس الرحماني من أذكار أبي مسلم البهلاني) .

ولئن جئنا الى قصائده الأخرى التي تتعلق بجانب الأمة نجد أنه الطبيب الخبير ، فقد عرف حق المعرفة داء الأمة ودواءها ، كما نجد ذلك واضحاً في كل قصائده التي تناولت هذا الجانب لا سيما تلكم القصيدة العصماء المقصورة ، والتي شخص فيها العلة وجسد الألم ، ووصف فيها الدواء ، نسمعه في مقصورته تلك يتألم لآلام هذه الأمة عندما يقول:

أذكى من النار بقلبي زفرة ... يخرجها المظلوم من حر الأسى
محترق الأكباد من حسرته ... لا غوث لا منصف لا يلوي الى
أنفاسه تطرق باب العرش لا ... تطرق بابا غيره ولا ذرى
وعبرة تسفحها أرملة ... كالخلق السحق اصارها الضوى
شعثاء غبراء عليها ذلة ... مهضومة الحق عديمة الحمى
وصفرة على يتيم شاحب ... ادقعه الفقر وأشواه الضنا
مفترشا على العفا اديمه ... وهل له عافية على العفا
يغدو ويمسي ضاحيا تحت السما ... كأنه عود خلال أو خلا

وضربة من سيف باغ نهكت ... وجه تقي مثل تشهاق العفا
وسطوة من ظالم شباته ... اقتل للاسلام من حد الظبا
ينتهك الحرمة لا تريغه ... ضريبة من كرم ولا تقى
يرى عيال الله صيد قوسه ... يترك ما شاء وما شاء رمى
جاس البلاد بالبلاء طاميا ... فبز حتى بلغ السيل الزبى
وغيرة المؤمن في ضميره ... يطفئها الخوف ويوريها الأسى
يهان في حريمه وعرضه ... ودينه وماله مثل اللقا

ثم بعد ذلك يوجه النداء الى رجال أمته :

أين رجال الله ما شأنكم ... الى متى في ديننا نرضى الدنا
الى متى نعجز عن حقوقنا ... الى متى يسومنا الضيم العدا
كنا أباة الضيم لا يقدح في ... صفاتنا الذل ونقدح الصفا
كنا حماة الأنف لا يطمع في ... ذروتنا الطامع في نيل الذرى
لا يطرق الوهن عماد مجدنا ... وكم ثللنا عرش مجد فكبا
علام[1] صرنا سوقة إمعة ... اتبع من ظل واقتى من عصا ؟!
ما أفظع الشنار أو يزيله ... ضرب يزيل الهام من فوق الطلى !
الى متى نخزى ولا يؤلمنا ... كالميت لا يؤلمه حز الشبا ؟!
أذل من وتد حمار فيهم ... وقدرنا أقصر من ظفر القطا
الى متى نهطع في طاعتهم ... ونتقي وليتها تجدي التقى ؟!

ترون كيف صور حال الأمة في هذه الابيات ، عندما أحدقت بها المحن وتراكمت عليها الفتن ، وهي في ذلك مفترقة أحزاباً وشيعاً ، لا تحس بالآلام التي تقع عليها ولا تحس بالواجب الذي هي مسؤولة عنه ، ثم يتبع ذلك خطابه لهذه الأمة لعله يجد فيها أنشودته .

أين ذوو الغيرة من لي بهم ... قد حزب الأمر قد انقد السلا ؟!
اتسع الخرق على راقعه ... من يشعب الهوى ويرتق الثأى
أما شعرتم أنها داهية ... شعواء لا فصية منها بالولى؟
هبوا من النومات ان حية ... تنباع ما بين شرا سيف الحشا

ويصف الحالة التى آلت اليها الأمة ، حيث ذلت لخصومها واستكانت لعدوها :

---

(١) تكتب على نحو آخر (على م)

قد استباحوا حرمات دينكم ومنعوا الأرض الحياة والحيا ؟!
منُّوا عليكم بغذاء طفلكم وحسوة الماء ونفحة الصفا
تحكموا في ملككم ورزقكم وكبسوا البئر وقطعوا الرشا
وأزعجوكم عن ظلال ريفكم وليتكم لن تزعجوا عن الفلا
وضايقوكم في بلاد ربكم حتى على مدفن ميت في الثرى
لا يرقبون فيكم إلا ولا ذمة دين أو ذمام من رعى
قد سُفِكتْ دماؤكم وانتهكت حرمتكم ولا حشا ولا خلا
نقعد يشكو بعضنا لبعضنا وما مفاد من شكا ومن بكى ؟

ثم يقول :

في بعض هذا غصة[1] العاقل لو رجعت أفكارنا الى النُّهى
يسومنا الخسف خسيس ناقص لا دين لا حكمة لا فضل ولا
أليس مما يذهل اللب له عسف الطواغيت بشرع المصطفى
وحملنا على اتباع غيهم مصيبة لحرها ذاب الحصى
هب ملكنا ورزقنا فيء لهم فديننا الأقدس فييء وجزى
فيا صباحاه وهل من سامع لو عوفيت قلوبنا من العمى

ويتبع ذلك تقريع هذه الأمة على رضاها بما وصلت اليه من المهانة اذ يقول :

أليس عاراً أن نعيش أمة مثل اللقا أو غرضا لمن رمى؟
يلفنا الخزي الى أوكاره ويحكم النذل علينا ما يرى
أنشرب الماء القراح ما بنا من مضض وليس بالحلق شجا ؟!
ونهنأ العيش على أكداره ونطعم الأجفان لذات الكرى

ثم يذكر بعد ذلك اعتزاز هذه الأمة بأسلافها وافتخارها بماضيها مع عدم سلوك منهج أولئك الأسلاف ، والقيام بما قاموا به من حق تجاه دينهم وتجاه أمتهم اذ يقول :

نقر أحلاس البيوت خشعا أبصارنا مغمضة عما دهى
ندرس تاريخ الألى تقدموا وحسبنا الله تعالى وكفى
إن العظام لا تؤاتي شرفا ولا أقاصيص الوغى تكفي الوغى
والسلف الصالح سل سيفه وكان ما كان له ثم انقضى
تلك الرفات طينة صالحة لغارس وحارث ومن بنى
أتبحثون بينها عن عزة أو في (لعل) فرجا أو في (عسى) ؟!
تلكم اذاً أمنية مخلفة وضيعة العقل وجهل وعمى

(١) غصة : نسخة قديمة للديوان ص٣٩ (المنظومات الأربع)

ثم ذكر ما بقي لهذه الأمة من أسلافنا :

أسلافنا وما لنا من مجدهم ... الا حديث بعدهم لا يفترى !!
لم التحجي بعدهم في شرف ... عند رفات القوم في الأرض حجا ؟!
نرفع منا أنفسا[1] وننتخي ... كأنها من كسبنا تلك النخا !

وهو يشير بذلك الى ان الامة يجب أن تبني مثل ما بنى سلفها ، وألا تعتز بما قدم سلفها من غير أن تطأ موطئه وتنتهج نهجه ، وتقوم بتبعات ما عليها من واجب تجاه جميع أفرادها كما تقوم بما عليها من واجب تجاه ديننا الحنيف ثم يتبع ذلك قوله :

أواه أواه رزئنا بعدهم ... وليتنا في خلف عمن مضى !!

ثم يصف مرة أخرى حالة هذه الأمة في لهوها عما هي مسؤولة عنه ، وفي غفلتها

فتحت عيني فرأيت غافلا ... يحمله السيل وليته درى
ونائماً والنار في جثمانه ... كأنه جزل الغضا وما وعى
وراضيا بذله مفتخرا ... بأن يعيش خازياً ومزدرى
ومؤمنا مستضعفا يغمزه ... ظالمه من الرجا الى الرجا
وعاقلا في رأيه متهما ... وأرشد الآراء للحر الدوا[2]
وحاسدا لنعمة تخاله ... اسعر ما كان اذا قلت خبا
وبائعا لوطن فيه انتشى ... بلقمة يلذها وهي الودى
فهل لنا استقامة وعزة ... وحالنا مشؤومة كما نرى ؟!

بعد هذا الوصف لألم هذه الأمة والامها ، نجده يقدم وصفة الدواء اليها اذ يقول :

عصائب الاسلام تلكم حالنا ... وليس يخفى في الظلام ابن جلا
ما تنظرون في التماس طبكم ... قد نكأ الجرح وادنف الضنا
ليس لها الا التفاف قوة ... بقوة ومقتد بمقتدى
ليس لها الا نفوس طفئت[3] ... اضغانها واشتعلت فيها التقى
يلمها الايمان قلبا واحدا ... وجهته الله وحشوه الهدى[4]
إذا رمت فقوسها واحدة ... وما رمت وإنما الله رمى

---

(١) (انفسنا) ص٣٤٨ ديوان ابي مسلم شاعر زمانه وفريد اوانه .
(٢) المرجع نفسه ص٣٥١ (الدوا) ،.(٣) نفس المرجع ص٣٥٢.
(٣) نفس المرجع ص ٣٥١ (الدوا) .
(٤) ديوان ابي مسلم شاعر زمانه وفريد اوانه ص١٧ ورد الشطر «وهيبة الله وسورة الهدى» .

فأبو مسلم من خلال هذا الوصف لعلاج هذه الأمة يبين لنا أنه لا يمكن خلاصها مما هي فيه وعليه من الذل والمهانة الا باستعلائها على أنانيتها ، بحيث تكون أمة واحدة، اذا رمت فانما ترمي عن قوس واحدة ، ومع ذلك فلحمة وحدتها ايمانها بالله – سبحانه وتعالى – ، وسدى هذه الوحدة تقوى الله – تبارك وتعالى – ، بحيث تجتمع في ظل الايمان والتقوى وتلتقي على ما أمر الله – سبحانه وتعالى – في ديننا من الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، حينئذ تكون أمة قوية ، وتكون أمة منصورة على عدوها.

ولم يكن أبو مسلم رجلاً محلياً واقليمياً وانما كان رجلاً عالمياً ، فحيثما كانت مشكلة تهم هذه الأمة كانت تلك المشكلة تعني أبا مسلم ، وكان يجد لزاماً عليه أن يشارك في علاجها فعندما حاول الاستعمار في مصر أن يذكي جذوة النعرة القبطية في غير المسلمين ، وأن يصور لهم بأن الإسلام دخيل فيهم وأن مصر قبطية نصرانية ، وان المسلمين هم الذين احتلوا بيضتهم وهم الذين استهانوا بكرامتهم ، وضايقوهم في بلادهم ، وانعقد اثر ذلك مؤتمر اسلامي برئاسة رياض باشا في مصر لعلاج هذه المشكلة ومواجهة ذاك التحدي ، فما كان من أبي مسلم وهو بعيد عن مكان انعقاد هذا المؤتمر الا أن شارك فيه بقلمه ، فأرسل قصيدة الى اخوانه المسلمين بمصر ، وقد قرأت بأن هذه القصيدة نشرت في بعض الصحف المصرية آنذاك وتلقيت بالقبول من قبل المسلمين الذين يعنيهم هذا الأمر ، وجاء في هذه القصيدة :

هزت العالم أدوار البشر ... ينقضي الدور بأدوار أخر
كل دور رقص الدهر له ... ضايق العالم وارتاد القمر
أيها العالم سعها جلدا ... ان نصف الليل يتلوه السحر
من كفيل الكشف عن موضوعهم ... هل له مستودع أو مستقر ؟
ان تكن فلسفة الدهر على ... حدها الأول أدركنا الخطر !
يسقط الهز علينا كسفا ... ثم لا يلبث أسقاط الحجر
ربما أشهد ظبيا كانسا ... دب فيه الدور فاصطاد النمر

ثم ينبه اخوانه المصريين المسلمين لخطورة هذا الأمر وخطورة ما غرسه العدو في جزء من أبناء الشعب المصري من بغض لبقية الشعب ، اذ يقول :

يا قطين النيل ما حادثة ... بات جفن الدين منها في سهر !!
أقلقت مصر وغاظت غيرها ... خطة القبط وذاك المؤتمر
يا لقومي والأسى كل الأسى ... ان جرى النيل على هذا القدر !!

ضايقوكم في المراعي مطلقا   واشرأبوا لاختصاص واشر
طلبوا أعظم من مقدارهم   شأن من أكسبه العدل البطر

ثم يتساءل بعد ذلك :

ليت شعري ما الذي أبطرهم   ضغطة الرومان أم عدل عمر ؟!
أم وصايا المصطفى في حقهم   ان ملكناهم وسعناهم ببر
أم لصفح الدين عنهم بعدما   جيش نابليون ولانا الدبر
تبعوا نعقته وانجفلوا   نحوه أشباه ضان وبقر
ثم لما صنع الله لنا   وجلى الخصم وابنا بالظفر
خالطونا بضمير محرق   وبصدر فيه ضب محتجر
فاصطنعناهم وقلنا جارنا   وأذى الجار جميل المصطبر
هذه سيرتهم حيث انجلت   قترة جاءوا بادهى وأمر

ثم يخاطب بعد ذلك ضمير الأقباط ، ويذكرهم بالجوار ، كما يذكرهم بالحقوق المشتركة ، وأن العدو يتربص بالكل الدوائر وهو لا يفرق بين مسلم ونصراني ، وانما همه أن يسعى الى التفريق بين أبناء الوطن الواحد :

ان هذا النيل أم حافل   كلنا يرضع منها ويذر
فغدت حافلنا ترضعها   حية أشبه شيء بسقر
رضعتها لبنا ثم دما   واغتبطنا بمشاش ووبر
وهي لا يقنعها ما ترتمي   لا ولا يقنعها بلع الحجر
ذكرتنا بعصا موسى على   ان ذي تلقف أرواح البشر

ثم يذكر ما يستفيده الآخرون من خيرات مصر فيقول :

نيلنا في الغرب يجري ذهبا   وبقينا نترامى في الحفر
أن يكن جيش احتلال غركم   فهي أمنية من لا يفتكر
ما يريد الجيش باستقلالكم   بعدما أبقى عصاه واستقر ؟!
عقد النير وما في همته   آمن المصري .. يوما أم كفر
جاء والمعية تلوي معيه   فامترى ثم تعاطى فعقر
طمت الحرفة يا أقباطها   انها مأدبة لا تنتقر
أصبح المطران والمسلم في   غمرها اعجاز نخل منقعر
فاشعبوا الوحدة وحيا قبل أن   تتداعى كهشيم المحتظر

ثم بعد ذلك يثني على أولئك الذين استيقظوا لهذا الأمر وسعوا الى رأب الصدع ، وتدارك ذلك الخطر فعقدوا هذا المؤتمر اذ يقول :

إن في مصـــر رجـــالا عـــرفت | كيـف تـأتـي الأمـر أو كيـف تـذر
لا تـبـارون لـهـم مـأثـرة | ولـو احتـلـتـم عـلـى كسف الـقـمـر
صَعّـدوا في كـل هـم فـكـرهـم | فـاقـتـنـوا حـكـم ابـتـداء وخبر
اثـر الحكـمـة فـيـهـم نير | كـادت الأفـلاك مـنـه تـنـبـهـر
مـثـلـوا غيرتـهـم مـؤتمرا | يـنصـر الـلـه ونـعـم المؤتمر
وطـئـوا الآمـال بـالـدرك الـذي[1] | ادركـوه مـن تـعـالـيـم الـنـظـر
لا يـبـيـتـون عـلـى الضـيـم ولا | حيرة الـذهـن اذا الخطب انـفـجـر
لا يـهـيـمـون بـواد مـبـهـم | هـم الى الـتـحـقـيـق أهـدى مـن بصـر
يـا بـنـي الـتـوحـيـد في مصـر لـقـد | صـرتمو في جـبـهـة الـدهـر غـرر
صـبـغـة الـلـه عـلـى نـهضـتـكـم | ان مـن كـان مـع الـلـه انـتصـر
بـيـئـة مخلصـة صـادقـة | لم يـدنسـهـا ريـاء واشـر
فـخـذوا وجـهـتـكـم واصـطبروا | لا يـنـال الـنـجـح الا مـن صبر
ثـابـروا جـهـدكـم لا تسـأمـوا | قـد بـدا لي فـتـح أمـر مـنـتـظـر
ربما ضـاق عـلـى حـيـلـتـنـا | اعـقب الـفـتـح كـلـمـح بـالـبصـر
واذا الـفـتـح تـلافـى أمـة | جـد في نـهضـتـهـا أهـل الخطـر
صـفـوة الأمـة أنـتـم وعـلـى | أمـركـم صـفـوة أربـاب الـنـظـر
بـطـل الإسـلام قـمـقـام الـعـلـى | رجـل المجد الـهـمـام المقـتـدر
نـاصـع الحجـة مـعـصـوم الـنـهـى | جـلـد الـهـمـة ذو الـعـزم الـذمـر
صـاحب الـعـز ريـاض مـن غـدت | فـطـرة الـتـوحـيـد مـنـه في وزر
هضـبـة الـفضـل عـزيـز المحتـمـى | شـأنـه الـعـدل بما شـاء وسـر
جـرد الـغيرة مـن أجـفـانـهـا | فـحـمـى الحق وأخـزى مـن غـدر
عصـم الـنـحـلـة مـرهـوب السـطـا | لين الجانب صـعـب المنـكسـر
يـا حـمـيّ الأنـف يـا لـيث الشـرى | ذد عـن الحوض فـقـد جـد الحذر
لا تـدع مصـر لمن يـعـشـو بـهـا | غير مـا عـزك مـن أمـر الـقـدر
قـائـم أنت عـلـى أرجـائـهـا | بملاك الأمـر والحق الأغـر
قـم بـحـول الـلـه لا تحفـل بـهـا | رقصت أم سـكـنت أم الـعبر

(١) (لما) ديوان أبي مسلم (مرجع سابق) ص٣٥٥

ثم يعبر بعد ذلك عن شعوره بالتقصير من نفسه تجاه هذا الأمر لأنه لا يملك الا هذا الذي يقدمه من الأدب ، اذ يقول :

لــو يــكــون الشــعــر نصــراً لم أزل انـــظـــم الانجم لا ارضـــى الـــدرر
لــو مــلــكــنــا الســيــف لم نــرجــع الى قــلــم في الــنــصــر ان قــام عثر
والــغــيــور الحر يــبــدي نصــره لأخــي مــلــتــه كــيــف قــدر
فــخــذوا شــعــري ثــنــاء بــعــدمــا مــدحت نــهــضــتــكــم آي الســور
ولــيــدم حــيــا ريــاض ولــيــعش ثــابت الــمــعــزة هــذا المؤتمر

وفي هذا ما يدل – كما قلت – على أن أبا مسلم لم يكن رجلاً محلياً ، أو رجلاً، اقليمياً وانما كان رجلاً عالمياً يعنى بقضايا أمته في كل مكان ويتحسس آلامها ويشاركها في آمالها .

وبجانب هذا الإهتمام الكبير بقضايا الأمة الإسلامية في كل مكان فانه كان يولي قضايا بلده عمان اهتماماً خاصاً وكان يعتز بجميع المنجزات التي يقدمها الشعب العماني الأصيل ، ويبدي شوقه في أشعاره الى هذا الوطن العريق ومما قال في ذلك :

مــعــاهــد تــذكــاري ســقــتك الــغــمــائــم مــلــثــا مــتــى يــقــلــع تــلــتــه ســواجــم
تــعــاهــدك الأنــواء (ســح) بــعــاقــه[1] فســوحك خضــر والــوهــاد خضــارم
اذا أجــفــلت وطــفــاء حــنت حــنــيــنــهــا عــلــى قنن الأوعــار وطــف روازم
ولا بــرحت تــلك الــريــاض نــواضــرا تضــمــخــهــا طــيــب الســلام الــنســائــم
تصــافــحــه بــالــزاكــيــات أكــفــهــا فــيــحسب فــيــهــا والــريــاض تــراجــم

الى ان قال :

ولــكــن شــجــاني مــعــهــد بــان أهــلــه فــبــان الــهــدى في أثــرهــم والمكــارم
هــو المعــهــد الميــمــون أرضــاً وأمــة وان زمجرت لــلــجــور حــيــنــا زمــازم
ســيــكثر وراداً عــلــى الحوض أهــلــه إذا جــاء يــوم الحشــر والــكــل هــائــم
لــقــد صــدقــوا المختــار مــن غير رؤيــة وتــكــذيــب جــل الشــاهــديــن مــقــاوم

وكان أبو مسلم لا يخفي اعتزازه بالمنجزات التي تحققت على أرض هذا الوطن الأصيل ، فعندما قرأ قصيدة لأحد الشعراء لام فيها اخوانه العرب على نومهم الطويل مع استيقاظ العالم الغربي ، في ضوء التقدم في كل المجالات الحضارية في العالم الغربي، انبرى أبو مسلم يجيب هذا اللائم ، ويدفع العار عن العرب ، ثم يعتز بعد ذلك ببلده

(١) ديوان الشاعر ص٣١٦

عمان، وبما تم في عمان من المنجزات التي هي لصالح الإسلام والمسلمين ، وكانت تلك الإجابة على نفس روي قصيدته وبحرها حيث قال في مطلع قصيدته :

ألا لــبــيك يــا صــوت المعــالي	لــقــد أســمــعت أحــيــاء الــرجــال
اجــابك ســادة نجب كــرام	طــوال الــعــزم بــالــبــيض الــطــوال
خــفــاف كــالصــواعــق إن يشــدوا	جــبــال في حــلــومــهــم الــثــقــال
مــعــاقــلــهــم جــيــاد فــنــقــوهــا	مســارحــهــن حــومــات الــنــزال
تــعــلــمــن الــتــقــارع من قــديم	فــهــن مــع الــتــقــارع في شــكــال
فــان تســأل بــهــم فــهــم ســراة	تــربــوا بين قــيــصــوم وضــال
رضــاع ولــيــدهــم بــدم الأعــادي	ويــحــيــى في الــرضــاع بــلا فصــال
اذا اســتصــرخــتــهــم شــبــوا سعيرا	وصــخ الــنــجــم قــعــقــعــة الــنــصــال
مســاعير الحروب لــهــم أجــيــج	اذا احــتــدمت حــمــيــات الــرجــال
مصــاعب تصــعــق الأبــطــال مــنــهــم	رغــائــبــهــم بــأطــراف الــعــوالي
اذا هــجــمــوا رأيت الــفــجــر يــجــري	بــبــارقــة الصــوارم في الــلــيــالي
تــروعك في زحــوفــهــم رجــوم	مــن الســمــر المثــقــفــة الــنــبــال
جــجــاجــح مــن بــنــي قــحــطــان صــيــد	ومــن عــدنــان آصــاد الــقــتــال
رأوا مــا حــل بــالأوطــان خــزيــاً	يســارع بــالــفــظــايــع والــوبــال

الى أن قال بعد ذلك:

وخصــم الــلــه جــزار شــنــيــع	يضــحــي بــالــديــانــة لا يــبــالي
رأوا أمــوالــهــم نــهــبــا هــنــيــئــا	وكــــل محرم عين الحلال

ثم يتوجه اليه بالدعوة لزيارة عمان فيقول :

تــفــضــل بــالــزيــارة في عــمــان	تجد أفــعــال أحــرار الــرجــال
تجد مــا شــئــت مــن مجد وفضــل	واحســاب عــزيــزيــات المثــال
تجد مــا قســمــتــه مــن المنــايــا	خــيــول الــلــه في حــزب الضــلال
تجد مــن هــيــبــة الاســلام شــأنــاً	عــلــيــه الــكــفــر مــبــيض الــقــذال
تجد هــمــم الــرجــال مصــمــمــات	بــثــأر الــديــن تــرخص كــل غــال

ثم يخاطب أهل الشرق فيقول :

قــطين الشــرق نمتــم نــوم غــيــد	فــنــبــهــكــم صــناديــد الــكــمــال
فــقــومــوا عــنــدنــا أولا فــنــامــوا	هــنــيــئــاً بين ربــات الحجــال

سنأخذ حقكم ونذود عنكم ذيادا باليمين وبالشمال
ويدرك فهمكم أنا قليل نكاثر بالحميد من الخلال
وتعترفون أن العرب قوم قديما عبّدوا صهب السبال
وقد وافاكم زمن جديد ووافتكم به السنن الخوالي
يرد الحق فيكم مشمخراً ويخزي الظلم خزي أبي رغال
بأسياف الغبيراء المواضي ستخضر الأسافل والأعالي
ويعلم عالم الدنيا بأنا بضوضاء الفخافخ لا نبالي

– وكما قلت – كان أبو مسلم في جميع ابتهالاته الى الله – تبارك وتعالى – لا ينسى جانب الأمة ووحدتها ونصرتها على عدوها وقد وجد في قصائد العلامة سعيد ابن خلفان الخليلي – رحمه الله – مثلاً يحتذى في ذلك ، فلذلك عني بتخميس كثير من قصائد الالهيات ، ومن بين هذه القصائد تلك القصيدة التي كان المحقق الخليلي – رحمه الله – يدعو بها ربه مدة اثنى عشر عاماً – كما قيل – وقد خمسها أبو مسلم ، ومما جاء في تخميسها مما يتعلق بنصرة الدين – وكلها من أجل نصرة الدين ومن أجل وحدة الأمة – قوله :

الهي عدو الله يشفي غليله
سبيلك يدنيها ويعلي سبيله
يغالب أمر الله حتى يحيله
فيا غارة الله اغضبي وخيوله اركبي ومواضيه امنعي بورود

ودائرة السوء استمري بدورة
عليه ومقت الله خذه بسورة
ويا بطشة الله اسحقيه بثورة
ومني على الأعداء منك بزورة تريحهم من كفرهم بلحود

ومزقهم اللهم كل ممزق
بأهلك غلباً فيلقاً بعد فيلق
ونكل بهم وامحقهم بالتفرق
ويا رب مزق كل سور وخندق عليهم وحصن شامخ ووصيد

طغوا في بلاد الله لما تطقهمُ
وتغييرك اللهم لم يعتنقهمُ
وانك بالمرصاد خذهم وبقهم

وقد مكروا فامكر بهم واذقهم عواقب مكر في البلاد شديد

لقد وطئوا الدنيا برجس مرجس
وعاثوا بظلم في عبادك مضرس
شياطين ملعونين من كل مبلس

فطهر بقاع الأرض منهم بأنفس من البغي تجريها بكل صعيد

الهي قبيل جاحد لك قد غوى
يعاديك لا يألوا على حربك انطوى
ابده ومن والاه وحيا وما حوى

وشرد بهم في كل أرض فلا سوى قتيل ومأسور يرى وطريد

بغيرتك اللهم يا حامي الحمى
بسطوتك اللهم يا رافع السما
سميع دعائي كن عليهم مدمدماً

وصب عليهم سوط منتقم كما لعاد وفرعون جرى وثمود

وعذبهم نكر العذاب ودنهم
وشدد عليهم وطأة واهنهم
وعن كل خزي ربنا لا تصنهم

ولا تبق دياراً على الأرض منهم فما قوم نوح منهم ببعيد

ومن غرائب الإتفاق أن هناك قصيدة للإمام سعيد بن خلفان – رحمه الله تعالى – من قصائد الالهيات تناولها أبو مسلم – رحمه الله – بالتخميس قبيل موته ببضعة أيام، ولربما كانت فاتحة تلك القصيدة اشارة بأن أبا مسلم بتخميسها يقدم نفسه الى ربه ، ومطلع قصيدة الإمام الخليلي – رحمه الله تعالى– :

تقدم الى باب الكريم مقدما له منك نفساً قبل أن تتقدما

أما مطلع تخميس أبي مسلم فهو :

هو الله فاعرفه ودع فيه من وما
دعاك ولم يترك طريقك مظلماً
عن الحق نحو الخلق يدفعك العمى

تقدم إلى باب الكريم مقدما له منك نفسا قبل أن تتقدما

وقد وجدنا بخط العلامة أبي مسلم أنه أنهى تخميسها في اليوم الثامن والعشرين من محرم ، وقد كانت وفاته ليلة غرة صفر من نفس ذلك العام ، بما يعني ان تمام تخميسها كان قبل وفاته بيومين وبعض يوم ، أو بيوم وبعض يوم .

ولئن جئنا الى الجانب العلمي ولا اقول الجانب الفقهي من حياة أبي مسلم ، نجد أن أبا مسلم هو العلامة الذي لا يشق له غبار ، وانما قلت الجانب العلمي لأن أبا مسلم درس علوم المعقول والمنقول ، فكان نابغة في العلوم الكثيرة ، ولم يكن مقتصراً على علم الفقه فحسب ، فهو في علم التوحيد والمذاهب الكلامية عالم كبير ، كما انه في الفقه فقيه مطلع محقق وله في المسائل الكلامية تحقيق يدل على طول باعه في كثير من المسائل ، من بين هذه المسائل ، مسألة شغلت الناس كثيراً وتراشقوا بسببها بالتهم وهي مسألة واضحة لا تحتاج الى النقاش الطويل ، ولا تحتاج الى ذاك الجدل العريض ، تلكم هي مسألة الأسماء والمسميات ، فإن أصحاب المذاهب الكلامية اختلفوا اختلافاً طويلاً وعريضاً في الأسماء والمسميات ، هل الأسماء هي عين المسميات ؟ أم الأسماء هي غير المسميات ؟ وقد أشبع أبو مسلم هذه المسألة بحثاً وتمحيصاً في كتابه «العقيدة الوهبية» وقد وضع فيها المفصل على المفصل ، وأوضح بالحجة والبرهان بما لا يحتمل أي جدل وأي خلاف .

خلاصة الأمر أن الذي ذهب اليه العلامة أبو مسلم هو نفسه الذي حرره العلامة الكبير السيد محمد رشيد رضا في تفسيره (المنار) وهو أن الأسماء التي هي الألفاظ المكتوبة من الحروف هي غير المسميات بطبيعة الحال ، فلا يمكن أن يكون الإسم هو المسمى ، اذ لو كان الإسم هو المسمى لكان من تلفظ بكلمة (ماء) وهو عطشان ، جرى الماء على حلقه وروي من عطشه ، وكذلك إن تلفظ أحد بكلمة (نار) احترق لسانه بمجرد هذا التلفظ ، لأن النار محرقة ولكن أعيان المسميات هي غير الأسماء ، وانما مدلولات الأسماء هي عين المسميات لأن الإسم يدل على المسمى ، فاذا كان المدلول الذي يشخصه الإسم هو نفس المسمى فلا فارق بين مدلول الإسم وبين المسمى .

وقد وجدت الإمام محمد عبده في تفسيره لقول الله تعالى ﴿**وعلم آدم الأسماء كلها**﴾[1] يذكر عن بعض المفسرين قولاً ، بأن تلك الأسماء كانت هي الماهيات ، ماهيات الأشياء.

فان آدم كان أحوج الى معرفة الماهيات من حاجته الى معرفة أسمائها لأنه يتعامل مع هذه الماهيات ، فلذلك كان بحاجة الى معرفة خصائصها ، وهذا القول عار عن الدليل، فإن آدم – عليه السلام– سئل عن هذه الماهيات ، ما أسماؤها فأجاب بهذه الأسماء

---

(١) من الآية ٣١ من سورة البقرة.

عندما عجزت عن ذلك الملائكة ، وقد أعاد الإمام محمد عبده هذا الاختلاف الى فلسفة يونانية قديمة ، هذه الفلسفة محصلها أن الحقائق الذهنية كانت تسمى عند اليونان أسماء ، وأعاد الإمام محمد عبده الخلاف بأن الأسماء هي المسميات أو غير المسميات الى هذه الفلسفة وقال بأن

الإختلاف في كون هذه الحقائق الذهنية هي نفس مدلولاتها أو هي أشياء أخر شهير ، أما الاسم فلا يمكن بحال من الأحوال أن يكون هو نفس المسمى .

واذا جئنا الى المسائل الفقهية نجد ان العلامة أبا مسلم كان العالم المحقق الذي لا يتقيد برأي عالم من العلماء بل يناقش جميع العلماء على السواء ، فقد كان ابو مسلم يجل العلماء ويحترمهم احتراماً كبيراً ، ولكن هذا الاحترام لم يمنعه من أن يناقشهم .

فعندما جاء – مثلاً – الى مسألة تخليل اللحية في الوضوء رجح بأن تخليل اللحية واجب لا بد منه مع أنه ذكر بنفسه عن ابن بركة وعن صاحب الايضاح وعن الامام القطب أنهما كانوا يرجحون عدم وجوب تخليل اللحية ، لأن الإنسان مطالب بأن يغسل ما واجه به ، وانما يواجه بوجهه لا بما كان داخل شعره ، ولكن العلامة أبا مسلم قال : إن الوضوء ليس أقل من الغسل – فكما يجب استيعاب العضو داخله وخارجه في الغسل كذلك يجب في الوضوء ، فاذا كان استيعاب البدن كله لازماً في الغسل ، فلا أقل من أن يستوعب العضو الذي تجب توضئته في الوضوء ، واستدل على ذلك بأن النبي – صلى الله عليه وسلم – ، أمر النساء بأن يخللن ضفائرهن في الغسل من الحيض وأن يغمسن قرونهن في الغسل من الجنابة ، من أجل أن يصل الماء إلى أصول الشعر ، وقد قال – عليه أفضل الصلاة والسلام – : «إن تحت كل شعرة جنابة فبلوا الشعر وانقوا البشر» فاذاً من الضرورة في الوضوء عندما يكون الشعر يغطي جانباً من الوجه الذي أمر بتوضئته أن يخلل ذلك الشعر حتى يصل الماء إلى أصوله

هناك مسألة أخرى وقع فيها الخلاف بين المذاهب الإسلامية من قديم ، وهي مسألة المني وطهارته أو نجاسته ، فالشافعية والحنابلة يقولون بطهارة المني اذا ما خرج من السبيلين ، والمالكية والحنفية وعليه أصحابنا الاباضية يقولون بأن المني نجس لأنه يخرج من المخرج الذي تخرج منه النجاسات ، فاذاً لا بد من أن يكون حكمه حكم الخارج من هذا المخرج ، والامام الشافعي أشبع هذه المسألة بحثاً في كتابه «الأم» وانتصر به لمذهبه .

والعلامة أبو مسلم في كتابه «نثار الجوهر» يجمع أشتات المسائل من المؤلفات القديمة والحديثة في مختلف المذاهب الاسلامية ، ويناقش هذه المسائل مناقشة دقيقة ،

وقد نقل كلام الامام الشافعي بنصه وفصه في كتاب «نثار الجوهر» أي نقل النصوص التي أوردها الامام الشافعي في كتابه «الأم» بحذافيرها ، ثم اتبع ذلك مناقشة علمية دقيقة ، وخلاصة الأمر أن الامام الشافعي يقول : بأن حكم المنى يختلف عن حكم ما خرج من السبيلين فللمني حكم خاص ويستدل لذلك بأدلة عقلية ونقلية .

فمن الأدلة النقلية التي أستدل بها ما جاء عن أم المؤمنين عائشة – رضي الله تعالى عنها – انها قالت : «كنت أفرك ثوب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من الجنابة» وتعرض الامام الشافعي لرواية سليمان بن يسار لهذا الحديث ، اذ روى عن عائشة «كنت أغسل ثوب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من الجنابة ويخرج الى الصلاة وان بقع الماء في ثوبه» وقال : لا نعلم أن سليمان ابن يسار روى حرفاً عن عائشة ، وانما هو وهم من الراوي عنه ، عمرو بن ميمون .

وهذا الكلام الذي ذكره الامام الشافعي في رواية سليمان بن يسار تبعه عليه البزار ، كما ذكر ذلك الحافظ بن حجر في فتح الباري ولكن الحافظ بن حجر بعد ما ذكر نصوص الرواية ، رواية سليمان بن يسار عن عائشة – رضي الله عنها – في الصحيحين ، قال : بأن هذا وهم ، ولم يهم البزار وحده بل قال هذا القول من تقدموه ومن بينهم الامام الشافعي في كتابه «الأم» .

واستدل أيضاً على ذلك بما أخرجه هو عن ابن عباس – رضي الله عنهما – أنه ذكر بأن المني ان كان يابساً يحت وان كان رطباً فيماط عن الثوب .

واستدل أيضاً برواية تشبه هذه الرواية عن سعد بن أبي وقاص .

أما من الناحية العقلية فانه استدل لذلك بأن الله – تبارك وتعالى – خلق أصل الانسان من ماء وطين والماء والطين طهوران جعلهما – تبارك وتعالى – طهورين ، فلا يعقل أن يكون خلقه لسلالة هذا الانسان فيما بعد من غير شيء طاهر ، واحتج لذلك أيضاً بكرامة الإنسان على الله – تبارك وتعالى – لأنه أكرم من أن يخلق هذا الانسان الذي شرفه بالخلافة في هذه الأرض وبالسيادة في هذا الكون ، وجعله مؤتمناً على دينه وجعله قائماً بأمره – سبحانه وتعالى – من مادة نجسة ، هذه هي خلاصة ما استدل به الامام الشافعي .

وقد أطال العلامة أبو مسلم في مناقشة هذا الكلام واستدل أول ما استدل بنجاسة المني في الحديث الذي أخرجه الامام الربيع في مسنده عن أبي عبيدة عن جابر بن زيد عن ابن عباس عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال «المني والوذي ودم الحيضة

ودم الاستحاضة نجس» فهذا النص صريح في نجاسة المني .

كما استدل لذلك أيضاً برواية سليمان بن يسار التي في الصحيحين عن عائشة - رضي الله عنها - انها قالت : «كنت أغسل ثوب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- من الجنابة ، ويخرج الى الصلاة وان بقع الماء في ثوبه» .

وقال بأن رواية الفرك لا تنافي رواية الغسل لأنها كانت تستعين على ازالة هذه النجاسة ، بالفرك أولاً عندما يكون هذا المني يابساً في الثوب فانها تحته أي تفرك الثوب حتى يزول أثر المني ثم تتبع ذلك الغسل بالماء .

وقال : إن ما قاله الامام الشافعي من أن سليمان بن يسار لم يرو حرفاً عن عائشة - رضي الله عنها - أمر غريب لأن ابن يسار كان من أكابر التابعين ، وقد كان بالمدينة المنورة وقد صرح بالسماع عن عائشة فهو تارة يقول (سألت عائشة ، وتارة يقول (سمعت عائشة) ، فهو اذا روى رواية متصلة من غير سقط ، على أن هذه الرواية كانت رواية مرسلة ، فان المرسل عندما يعتضد بدليل آخر يعول عليه عند الامام الشافعي ، ولذلك عول على مسانيد سعيد بن المسيب

وتحدث عما رواه الامام الشافعي عن ابن عباس من أنه قال : بأن المني يماط ، وقال انما هو بمثابة المخاط وبمثابة النخامة ، وبأن هذه الاماطة انما هي وسيلة الى التطهير كما يقول الاستجمار وسيلة الى التطهير بالماء فيما بعد ، وليست مشروعية الاستجمار قبل الماء الا لأجل هذه العلة والتشبيه بالمخاط والنخامة لما ينتظم هذه الأشياء المشبه بعضها ببعض من التلبد ، فان المخاط والمني شبيهان بالتلبد وكذلك النخامة بالجملة.

وقد أشبع أبو مسلم هذه المسألة بحثاً واستدل لذلك أيضاً بالأثر الذي أخرجه الامام مالك بالموطأ عن عمر ابن الخطاب - رضي الله عنه - انه ذهب الى الجرف ، وقد صلى الصبح وكان قد احتلم و لم يشعر وصلى و لم يغتسل ، فلما رأي ذلك الاحتلام هناك غسل ثوبه ونام أي غسل مارأى أثر المني عليه ، ونضح ما لم ير عليه أثر المني .

كما استدل أيضاً لرجحان رأيه بالأثر الذي أخرجه مالك أيضاً في الموطأ عن يحيى ابن عبدالرحمن بن حافظ انه صحب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - الى العمرة فاحتلم و لم يكن على ماء فركب حتى وصل الى الماء ، وبقي وقتاً يغسل ثوبه حتى أسفر وناداه عمرو بن العاص : لقد أصبحت ومعنا ثياب ، فقال له : عجباً منك يا ابن العاص : ان كنت اجد ثيابا أكل الناس تجد ثيابا ؟ لو فعلت هذا كانت سنة ولكن أغسل ما رأيت وأنضح على ما لم أره ، الى غير ذلك من الأدلة .

ثم تحدث عن مبدأ خلق الانسان من هذه النطفة فقال : ان الله – تبارك وتعالى – وصف هذه النطفة التي خلق منها الانسان بأنها ماء مهين ، ووصفها بأنها نطفة أمشاج وذلك أبلغ في الدلالة على حقارتها ، وذلك أبلغ في الدلالة على قدرة الله – تبارك وتعالى – .

وأيضاً فان الانسان ينطوي على كثير من الأشياء التي هي أنجاس فدمه نجس وفضلاته نجسة كذلك أيضاً ان كانت نطفة الرجل طاهرة ، فلم يقل أحد في نطفة المرأة بطهارتها ، على ان مرقد الانسان في الرحم عندما ينشأ ، والرحم مشتمل على النجاسة ولكن الله – تبارك وتعالى – أراد بهذا أن يذكر الانسان بحقارة ومهانة أصله لولا أن الله – تبارك وتعالى – شرفه بما آتاه من فضل وبما نفخ فيه من روح .

وتعرض العلامة أبو مسلم لكثير من القضايا فأشبعها بحثاً في كتابه «نثار الجوهر» ومن بين هذه القضايا التي ناقش فيها العلماء قضية التفرقة بين الضاد والظاء (الظاء المستطيلة والضاء المشالة) فان الامام الفخر في تفسيره قال : لا يجب أن يفرق بينهما القارىء وان لم يفرق بينهما في صلاة لما كان عليه في صلاته بأس ، ولقد تشدد أبو مسلم تجاه هذا الأمر وقال بأن الضاد وان كانت تجتمع مع الظاء في مجموعة من الصفات منها الجهر والاطباق والرهو والجرسية ، ولكن بجانب ذلك أيضاً تختلف الضاد عن الظاء في المخرج ، فالضاد من الحروف الشجرية والظاء من الحروف اللثوية كما انها تختلف عنها بكون الظاء مستطيلة والضاد ليست من حروف الاستطالة .

ويجب على الانسان أن يقرأ القرآن كما أنزل من غير أن يبدل حرفاً بحرف ، ثم بجانب ذلك ذكر أيضاً كلام الامام السالمي من أن النبي – صلى الله عليه وسلم – عندما كان يعلم أصحابه القرآن كان يعلمهم النطق بهذه الحروف ، والشعوب التي دخلت الاسلام تلقت النطق بهذه الحروف كما هي ، وذلك داخل في تعريف القرآن .

وقال : بأن هذا الرد غير مسلم به نظراً لأن العرب كانوا أقحاحاً يتحدثون بالعربية بسليقتهم وبفطرتهم ، ولم يكونوا بحاجة الى أن يعرفوا الصفات الفارقة ما بين هذه الحروف . ومعظم الصحابة رضوان الله عليهم – كانوا من العرب فاذا كانوا عندما يتلقون القرآن عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – كانوا يقرأونه بسليقتهم العربية ، والشعوب التي كانت تتعلم على أيدي العرب ، بعدما دخلوا في الاسلام كانوا يلقنونهم النطق بهذه الحروف ولئن كانوا يلقنونهم النطق بهذه الحروف ولئن كانوا يلقنونهم التفرقة ما بين الحروف الأخرى التي هي متقاربة في المخرج – فكيف لا يلقنونهم التفرقة ما بين الضاد والظاء فاشبع هذه المسألة بحثاً .

أيضاً مسألة ترجمة القرآن الكريم ، وقراءة القرآن الكريم باللغة الفارسية أشبعها بحثا وناقش كلام الحنفية ، وذكر أن القرآن الكريم لا يمكن أن تفي به لغة ، فلغته الخاصة – هي التي أنزله الله – تبارك وتعالى – بها ، ولا يمكن أن يكون أي كلام آخر بأي لغة أخرى يسد مسد القرآن الكريم ، فلو حاول الإنسان أن يستخلص المعاني من الفاتحة الشريفة ، ويقرأ قراءة غير هذه الآيات التي أنزلها الله مع الاستيعاب لتلك المعاني لا يمكن أن يقال بأنه قرأ ولو قرأها بعربية فصيحة فكيف ان انتقل من العربية الى لغة أخرى ، على أن الله – تبارك وتعالى – بين أنه حكم عربي ، وانه – سبحانه – جعله قرآناً عربياً وأنزله قرآنا عربياً فانه لا يعدل عن العربية الى أي لغة أخرى ، وقد استفاض بالاحتجاج بهذه المسألة .

كذلك مسائل أخرى متعددة لا يمكننا الآن مع ضيق الوقت أن نستوعبها ، فأبو مسلم كما كان في أدبه رجلاً عالمياً هو أيضا في علمه وفقهه خاصة رجل عالمي فانه يجمع في فقهه ومناقشاته الفقهية ما بين المذاهب الاسلامية المختلفة ويعتمد على مراجع المذاهب المتعددة فهو ينقل عن كتاب الأم للامام الشافعي والموطأ للامام مالك ، ويروي عن الأمهات الست وغيرها من كتب الحديث وعن شروحها ، كما يروي عن كتب الرجال والنقد ، ويروي عن كتب التفسير وغيرها ، فكتابه موسوعة علمية ، ولو أن الله – تبارك وتعالى – هيأ له أن يتم هذا الكتاب فأنسأ له في عمره لكان هذا الكتاب موسوعة فقهية في المذاهب الاسلامية المتعددة . نسأل الله – سبحانه – أن يتغمده برحمته وأن يمن عليه بالفوز والسعادة في دار النعيم كما أسأله – سبحانه وتعالى – أن يهدنا سواء السبيل ، وأن يبارك لنا في حياتنا وأن يعلمنا ما لم نعلم ، وأن يفهمنا ما لم نفهم وأن يهدينا الى الطريق الأقوم انه – تعالى – على كل شيء قدير ، وهو بالاجابة جدير ، انه نعم المولى ونعم النصير وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين . وفي الختام أشكر وزارة التراث والثقافة على هذه الفرصة التي أتاحتها لي وعلى رأسها سمو السيد فيصل بن علي بن فيصل آل سعيد وزير التراث القومي والثقافة ، كما أشكر القائمين على المنتدى على اتاحة هذه الفرصة وأشكركم جميعاً على اصغائكم وحضوركم . وأسأل الله – تبارك وتعال – أن يجمعنا مرات ومرات تحت لواء العلم والأدب انه على كل شيء قدير، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى صحبه أجمعين .

في بعض الجوانب الفنية لشعر أبي مسلم البهلاني الرواحي

أ.د أحمد درويش
جامعة السلطان قابوس
كلية الآداب – قسم اللغة العربية

الطاقة الشعرية المتميزة عند الشاعر العماني الكبير أبي مسلم البهلاني ، ناصر بن سالم بن عديم الرواحي (١٢٦٣ - ١٣٣٩هـ) ، طاقة تتبدى في كثير من المظاهر الفنية في نتاجه الشعري الغزير ، والمتعدد الجوانب ، وتجعل شهرته الواسعة بين طوائف متعددة الثقافات ، وبين أجيال متتابعة ، شهرة نابعة من القدرة على الاشباع الفني ، وهي قدرة يمتلكها الشاعر المتمكن ويستطيع من خلالها أن يستثير جوانب الظمأ أولاً في نفوس سامعية أو قارئية ، قبل أن يمطر على هذه النفوس بعض قطرات الري ، التي تجد الارض ممهدة لها فتهتز وتربو وتورق وتثمر ويخضر عودها بعد ذبول ويشتد بعد ضعف ، وذلك بعض آثار العطاء البياني الشعري الجيد الذي يخلع على سامعيه ثياب الحكمة ، ويؤثر فيهم تأثير السحر « إن من الشعر لحكمة ، وإن من البيان لسحراً» .

والشعراء يتفاوتون في وسائلهم الفنية التي يحدثون بها هذا التأثير - عامدين أو غير عامدين - بل ربما اختلف الشاعر مع نفسه عندما تختلف المواقف أو المقامات ، ولكل مقام مقال ، كما يقولون ، أو عندما تختلف الأجيال والثقافات ، أو معارضي التلقي سماعاً أو قراءة ، وفي هذا الاطار قد تتعدد الوسائل الجيدة بتعدد الشعراء الجيدين على كثرتهم في العربية ، وقد لا يمكن الخروج منها بقاعدة عامة في كل الاحوال ، ومن هنا عد الايجاز في بعض المواطن هدفا يسعى اليه ، على حين عد الاطناب في مواقف أخرى مطلبا لا بد منه لكي تستقيم للعبارة بلاغتها ،وورد التعبير الخبري مستملحا في موضعه ، وجاء الاسلوب الانشائي ضرورة لا بد منها في موضع آخر ، وكذلك اختلفت تأثيرات الأوجه المتقابلة للتراكيب العربية كالتعريف والتنكير والذكر والحذف والتلميح والتصريح ، وغيرها من الامور التي فصلتها كتب البلاغة العربية وهي تتحدث عن جمال التراكيب والمفردات ومما افاد منه النقد الادبي الحديث وهو يعالج قراءة النصوص الأدبية من جوانبها المختلفة .

والنص الشعري الجيد تمده كثير من الروافد المعرفية والشعورية عند قائله ، ومن القدرة على السيطرة على هذه الروافد وتنسيقها وإبراز كل منها في المعرض اللائق به، من خلال جهد قد يتم لدى الشاعر بطريقة غير واضحة المعالم والقواعد لديه هو ، ولكنها ينبغي أن تكون واضحة لدينا نحن ، وتلك احدى مهام النقد الأدبي ، على

أن وسائل هذه الطريقة اذا لم تكن واضحة لدى الشاعر من خلال التسمية والشرح ، فهي واضحة في نفسه من خلال الشعور ، بحيث لا يطمئن الى شيء يخالفها ، ويجاهد خلال كتابة القصيدة ، حتى يستقيم له الأمر على النحو الذي تتوخاه نفسه ، كما يصنع الشاعرأحيانا في تعامله مع موسيقى الشعر ، فقد لا يكون حافظاً لقواعد علم العروض ،بل وقد لا يكون درسها في بعض الأحايين ، ولكن حساسيته الفنية لا تسمح لبيت غير مستقيم أن يمر ، ولا لإيقاع يخالف البحر الذي ارتضاه أن يتسرب الى قصيدته .

وأبو مسلم البهلاني شاعر يمتلك وسائله الفنية ويسيطر عليها ، رغم تعدد هذه الوسائل ، وتنوع المعارض التي يوظفها فيها ، وقد أشرنا في دراسة سابقة عن أبي مسلم البهلاني [1] ، الى أن الشاعرية كانت عنده موهبة أولى غالبة ، رغم تعدد مواهبه الأخرى فقد كان «شاعرا– فقيهاً» أو «شاعراً – مؤرخا» أو «شاعراً – نسابة» أو «شاعراً – متحمساً لفكرة وطنية ، و لم يكن فقيهاً يلجأ الى الشعر ليصب فيه آراءه ، أو عالماً بالتاريخ أو الانساب ، يقدم للناس فكرته في شكل منظوم ، أو متحمساً لأفكار قومية ، يستعين بموسيقى الشعر على جمع القلوب حولها ، لكنه كان قبل كل شيء شاعراً سلط بصيرته الشعرية على حقول مختلفة ، فأكسبتها كثيراً من لون الربيع الشعري ومناخه»

وقد اختبرنا هذا المفهوم من قبل في قراءة بعض قصائد ابن مسلم مثل قصيدة «الفتح والرضوان» ، و «القصيدة النهروانية» [2]

ونود من خلال هذا المفهوم أيضاً ، أن نلقي نظرة هنا على بعض «مراثيه» وخاصة ما كتبه في عالمي عصره الجليلين ، قطب الأئمة الشيخ العلامة محمد بن يوسف اطفيش الجزائري ، ونور الدين العلامة السالمي ، وقد كتب في كل منهما مرثيتين متواليتين ، وجاءت المراثي الأربع في عام واحد هو ١٣٣٢هـ .

وأول ما يلاحظ على هذه المراثي ، هو طول النفس الشعري ، فقد جاءت أعداد أبيات المراثي على النحو التالي :

المرثية الأولى في قطب الأئمة : مائة وأربعة وستون بيتاً .

(١) انظر كتابنا : مدخل الى دراسة الأدب في عمان – مسقط – دار الأسرة سنة ١٩٩٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٥٥ وما بعدها .

المرثية الثانية في قطب الأئمة : مائة وستة وخمسون بيتاً .

المرثية الثالثة في نور الدين : مائة وثمانية وستون بيتاً .

المرثية الرابعة في نور الدين : مائة وتسعة عشر بيتاً .

وطول النفس ليس غريباً على شعر أبي مسلم البهلاني ، فقد بلغت قصيدته التائية التي كتبها حول الصفات الالهية ، نحو ألف وستمائة بيت ، وجاءت قصيدته اللامية بعنوان «القاموس الأسنى في أسماء الله الحسنى» في نحو مائتين وخمسين بيتاً ، وألحقت بها نفحتان في شكل قصيدة يائية في نحو تسعين بيتاً ، وكثيرة هي الشواهد في ديوان أبي مسلم على طول نفسه الشعري ، وطول النفس الشعري ، عندما يجيء في موضعه ، يعد واحدة من المزايا التي أضافها النقاد للشاعر الجيد ، والناقد القديم حازم القرطاجني صاحب كتاب منهاج البلغاء وسراج الأدباء كان يعد من مزايا الشعر الجيد «الاستقصاء والاقتران» ويعني بالاستقصاء قدرة الشاعر على تتبع جزئيات الغرض الشعري الذي يعالجه ، ويعني بالاقتران القدرة على ضم كل جزئية الى ما يلائمها ، وهما شرطان ، كان القرطاجني يرى أن شعر الارتجال ، يحرم في اجتماعهما معاً .

على أنّ طول المرثية عند البهلاني يعد لافتاً للنظر بالقياس الى متوسط طول المراثي عند شعراء آخرين قدماء أو معاصرين ، واذا قارنا طول المرثية عنده بنظيرتها عند شاعر كبير كأبي تمام ، فسوف نجد أن الأمر مختلفاً الى حد بعيد ، فالمراثي التي ترد في ديوان أبي تمام[1] هي ثلاثون مرثية ، يجيء عدد أبياتها على النحو التالي :
٦٤/٨/١٠/٢٢/١٧/١١/٧/٣٣/٢١/٤/٤٩/٢٥/٦/٤/٤/١٥/٣١/١٠/٣٠/٠
٣/٢٥/٦/٣٦/٣٥/٦/٣/١٢/٨/١٤/٧

وهذا الاحصاء يمكن أن يقودنا الى أن متوسط طول قصيدة الرثاء عند أبي تمام هو نحو ستة عشر بيتاً ، والفرق في هذا المتوسط ومتوسط القصيدة التي بين أيدينا لا يحتاج الى تعليق غير انه لا ينبغي أن يفهم من المقارنة أن قصيدة ما يمكن أن تفضل نظيرتها من خلال الطول ، فنحن هنا أمام مقياس كمي يعطي مؤشراً على حجم القصيدة ليس أكثر .

---

(١) انظر ديوان ابي تمام، شرح التبريزي، الجزء الرابع ، تحقيق محمد عبده عزام دار المعارف القاهرة.

يمكن أن يلاحظ على مراثي البهلاني أيضاً فكرة التكرار والعودة الى المرثي الواحد في اكثر من قصيدة ، على النحو الذي نراه معنا هنا من تكرار الرثاء لكل من العالمين الجليلين ، واذا لم يكن التكرار في المراثي خاضعاً لفكرة المناسبات وأحكامها ، فإن دلالته الفنية تكمن في أن الدفقة الشعرية الأولى التي عكستها قصيدة الرثاء الأولى ، لم ترو ظمأ الشاعر نفسه ريا كاملاً ، وانما بقي سؤر منها ، ما لبث أن تخمر من جديد في نفس الشاعر وامتزج بها ، فاتسعت رقعته في نفسه وتحول الى قصيدة جديدة أخرى، وتلك حالة يعرفها الشعراء المجيدون جيداً ، فالآفاق التي تتفتح أمامهم لحظة الميلاد الشعري ، لا يتم استنفادها جميعاً في القصيدة الواحدة ، وغالباً ما يختتم الشاعر قصيدته على نية العودة إليها ، وان كانت لحظات اليقظة التالية على الميلاد ما تبتعد شيئاً فشيئاً ، ببقايا اللحظة الشعرية ، وتجفف سؤرها الحائر و، غير أن بعض الشعراء يستطيعون المحافظة على ذلك السؤر حتى تتشكل قصيدة جديدة ، وذلك ما يؤدي الى وجود ظاهرة التكرار في معالجة الموقف الواحد .

على أنه اذا كانت هذه الظاهرة مسوغة في القصائد القصيرة أو المتوسطة ، والتي يمكن أن يقال حولها ، إن المعاني لم تستقص في جولتها الأولى ، فان القصائد الطوال ، على النحو الذي نراه عند أبي مسلم قد تطرح تساؤلاً آخر وهو : ما الذي أضافه الشاعر من الناحية الفنية عندما عاد يطرح موضوعه من جديد؟ وهل يتصل الأمر بتقديم خطة فنية جديدة ، أم باضافة لمسات هنا أو هناك؟ أم بالتكرار لذاته؟

إن الاشارة إلى «الخطة» قد يقودنا الى الهيكل العام الذي يحكم قصائد المراثي عند أبي مسلم ، واذا كانت القصائد أو المقطوعات الصغيرة يمكن لها أن تستبدل بالهيكل وحدة المشاعر الغنائية المثارة ، فان القصائد الطويلة لا يعصمها من الترهل ، الا وجود خيط هيكلي رقيق يتحرك بها من مرحلة الى أخرى ، وهو خيط يشكل عنصراً في بناء القصيدة ربما كان الشاعر أكثر وعيا به من بقية العناصر الأخرى ، لأنه يتم جزئياً على مستوى التخطيط العقلي للقصيدة ، وليس على مستوى الانسياب الشعوري معها ، فهل هناك هيكل للمرثية عند أبي مسلم؟

ان الذي يتأمل في القصائد الأربع المطروحة أمامنا ، يجد ملامح مشتركة تجمع بينها من حيث البناء الهيكلي ، وتنظيم المادة الخام ، وتؤكد على التنوع في روافد ثقافة البهلاني الشاعر الفقيه ، فهي جميعاً تأخذ من الحديث عن الدنيا وفنائها وعدم الاغترار

بها مدخلاً رئيسياً ، يكاد يشكل هدفاً في ذاته من ناحية ، ويمهد النفوس للدخول في جو الرثاء من ناحية ، وهذا الهدف تفتتح به ثلاث من القصائد الأربع ، حيث تطالعنا الأولى بمفتتح يقول :

عش ما تشاء وراقب فجعة الأمل ... سينقضي العمر في بطء وفي عجل

تلهو بتصويرك الآمال مغتبطاً ... وبين جنبيك ما يلهي عن الأمل

وتطالعنا الثانية بقولها :

تكب على دنياك وهي تبيد ... وتفتقد النائي وأنت فقيد

حريصاً عليها جامعا لحطامها ... وغاية ما نافست فيه نفود

أما المرثية الأولى للعلامة نور الدين ، فمطلعها :

ريب المنون مقارض الأعمار ... وحياتنا تعدو الى المضمار

والنفس تلهو فوق تيار الردى ... ياليتها حذرت من التيار

وإذا كانت المرثية الثانية للسالمي ، وهي الرابعة في مجموعتنا قد بدأ مطلعها على نحو مخالف قليلاً في قوله :

نكسي الأعلام يا خير الملل ... رزىء الإسلام بالخطب الجلل

فانها ما لبثت بعد المفتتح أن خصصت مقطعاً رئيسياً للحديث عن الدنيا وغرورها:

هذه الدنيا وهذا أمرها ... تندف الأعمار ندفاً لم تزل

كشفت عن قبحها في حسنها ... وأرتنا السم في هذا العسل

إن التركيز على الجانب الوعظي في بداية المراثي ، قد يشف عن جانب من شخصية الشاعر الفقيه ، الذي يرى أن مسؤولية الكلمة عنده تتجاوز مجرد رصد مشاعر اللحظة الطارئة ، على جسامتها ، إلى التنبيه إلى أن هذه هي اللحظة الأصل ، وما عداها من الاستكانة إلى دوام الحياة عرض طارىء ، ولقد يمتد هذا الجانب في مراثي أبي مسلم امتداداً كبيراً حتى إننا لنجد بداية الحديث عن المرثى لا تجيء الا بعد مرور نحو خمسين بيتاً من بيوت المرثية ، ففي المرثية الأولى لقطب الأئمة ، يبدأ الحديث عنه بعد ثلاثة وخمسين بيتاً ، وفي المرثية الثانية له ، يبدأ بعد خمسة وثلاثين بيتاً ، وفي المرثية الأولى لنور الدين يبدأ الحديث عنه بعد ستة وستين بيتاً وفي الثانية بعد سبعة وثلاثين بيتاً ، ويلاحظ حتى على هذه الأرقام ، التدرج النسبي الدقيق ، وامتصاص المرثية الأولى عادة للجانب الأكبر من هذا الغرض الشعري ، مما يخفف العبء عن المرثية الثانية فيجيء الأمر على النحو التالي :

	قطب الأئمة	نور الدين
المرثية الأولى	٥٣	٦٦
المرثية الثانية	٣٥	٣٧

واذا كانت شخصية الفقيه تؤثر على هذا الجانب من القصيدة ، فان شخصية الشاعر ما تلبث أن تتوازن معها في بقية أجزاء القصيدة من خلال حسن السيطرة على توجيه المادة الخام للمرثية توجيهاً شعرياً ، وهي سمة تشترك فيها كل القصائد ، مما ساعد على اكمال الصورة حول ملامح هيكلها العام ، ونعني بالمادة الخام ، ذلك التوازن بين عناصر السرد وعناصر الانشاء داخل المرثية فالمرثية في جانب منها تسرد تاريخاً للمآثر الخاصة الراحل ، وهي في آخر تلون هذه المآثر ، وجوداً وفقدانا بلون عاطفي ، وللشاعر وسائل فنية في هذا التلوين سوف نعود اليها ، بعد استكمال ملامح الهيكل، أو الخطة العامة للقصيدة التي تشتمل إلى العناصر التي أشرنا اليها عناصر أخرى أهمها :

(١) التجريد الحواري .

(٢) الدعاء

(٣) التأريخ بالشعر .

– ويأخذ التجريد الحواري أشكالاً متعددة ، فقد يجيء في صورة حوار بين الغائب الجمع والمفرد المتكلم مثل:

قالوا دسائسها في طي زخرفها ... فقلت قد صرحت بالسم في العسل
لم تخف عيباً ولم تأخذ مخالسة ... ولا الهناء بها إلا على علل

وقد يتحول المتكلم الى صوت جماعي :

حتى متى نحن والأجيال تحفزنا ... والجد والهزل منا تابع الأمل؟!

وقد يتحول المخاطب الى صورة المثنى على الطريقة الشائعة في الشعر القديم في مثل قوله :

خليلي دلاني على جزء خطوة ... خطونا ومن بعد المضي تعود
خذا بيدي نحو المنازل اذ خوت ... عساها بخير الظاعنين تجود

أما الدعاء فيتمثل في تلك النسمة الرقيقة التي تهب على أعجاز القصائد في مثل قوله في رثاء القطب:

سقى الاله ربوع الزاب ماطرة ... من رحمة الله بالأبكار والاصل
وباشرتك هبات الله دائبة ... بعارض من عظيم الفضل منهطل
وروح الله والرضوان روحك في ... منازل القرب والاسعاد والنزل

أو قوله في رثاء السالمي :

قــدست مــن غــوث وقــدس مشــهــداً غــبــطــتــه فــيك عــوالم الأنــوار
يــا وافــد الــرحــمــن أي كــرامــة لــقــيت في عــدن وأي جــوار؟!
حــلــقت لــلــطــاعــات خــطــفــة طــائــر فــحــلــلت مســرح جــعــفــر الــطــيــار

أما التأريخ بالشعر ، فهو سمة من سمات صنعة العصور الوسطى في الشعر العربي ، كانت تعمد الى اثبات جمل تعبر حروف كلماتها عن سنة الحدث اذا ترجمت الى أرقام، كقول البهلاني في رثاء السالمي :

تــاريــخــهــا مــا طــال مــا لحب الــردى الصبر أحــــرى يــــا أولى الأبصــــار

وهي جملة عندما تترجم بحساب الأرقام تعادل سنة «ألف وثلاثمائة واثنتين وثلاثين» وهي تاريخ وفاة السالمي .

ومثلها الجملة التي وردت في نهاية مرثية القطب :

ألا في ربــيــع الآخــر الحزن فــاحســبــوا فــهــذا لــتــاريــخ الــوفــاة مــفــيــد

وهي جملة تعطي بحساب الأرقام العام الذي رحل فيه العالمان معاً .

***

إن الوسائل الفنية التي أشرنا اليها من قبل ، والتي يستطيع الشاعر من خلالها أن يحدث هذا التوازن في صهر المادة الخام ، وسائل كثيرة ، تتراوح بين طريقة تشكيل الجملة الشعرية ، وعلاقاتها بجاراتها ، والتدرج والانتقال من مشهد الى آخر ، والتلوين الصوتي والموسيقي ، وبناء الصورة ، واللجوء إلى فكرة التكرار ودلالاتها ، وغير ذلك من الوسائل الفنية المؤثرة في ثنايا القصائد ، والتي يمكن للدارس أن يطيل الوقوف أمامها .وسنكتفي (هنا بايجاز) اعطاء لمحات سريعة عن بعضها .

ان تزاوج السرد والانشاء مهمة دقيقة تقتضي من الشاعر أن يختلس سامعه أو قارئه من عالم النثر الاخباري إلى عالم الشعر الانفعالي دون أن يقطع الخيط الرقيق بين العالمين، وقد يكون من وسائل ذلك ، خلخلة الاعتقاد بحرفية مضمون الكلمات والتراكيب ، فيستخدم الأمر لمن لا يستجيب والنداء لمن لا يعي والحوار مع من هو غائب ، وتستخدم صيغ الحوار المستحيلة ، التي يعلم الشاعر أيضاً أنها مستحيلة لكنه يود أن يستثير من ورائها مناخاً شعرياً لا نثرياً ، هكذا يصنع البهلاني ، عندما يخاطب السالمي في موته :

ارجـع ومـا ظـنـي بـأنك مشتر	بـجـوار ربك جيرة الأشـرار
ادعـوك لـلأمـر الـذي تـدعـى لـه	شـيـم الـرجـال وهـمـة الأحـرار
ادعـوك ان كـنت السـمـيع لـدعـوتـي	لخطـابـة الـتـبشير والانـذار
هـيـهـات يـا أسـفـاه ، لا رجـعـى وقـد	جـثـمت عـلـيك صـحـائـف الأحـجـار!!

فالحوارية هنا تنتقل في سلاسة بين عالم الأماني وعالم المستحيلات لكي تعكس من خلال هذا الانتقال ، حوارية البقاء والفناء ، ونسمح بتبادل الصفات ، لأناس رحلوا ، ولكنهم باقون ، وهذا ما يدفع الشاعر الى ألا يكتفي بخلع صفات الأحياء على أولئك الراحلين ، لكنه قد يختار أكثرها حيوية ، مثل صفة السباحة وصفة الطيران يخلعها عليهم فيعطي الايحاء بأن رحيلهم كان تخلصاً من القيود ، ويقول في رثائه للقطب :

مـا زلت تسـبـح في الـقـرآن مـلـتـقـطـاً	در المعـارف لم تضـجـر ولم تحل
حـتـى مـلأت مـراد الـعـقـل مـعـرفـة	ممدودة الـفـيض حـتـى لحظـة الأجـل
يـا طـائـراً طـار مـا أضـفـى قـوادمـه	نجوت مـن قـفـص في حـكـم محتـبـل
وقـفـت لـلـه مـن دنـيـاك في عـطـل	فـلـتـسـرح الآن بين الحلـي والحلـل

إن التكرار يمثل دون شك واحدة من أبرز الخصائص التي يتكيء عليها أبو مسلم لمحاولة ابراز المحاور العاطفية الرئيسية في عمل مطول مثل مرثياته ، وهو يستخدمه في إحكام في كثير من أغراض بناء القصيدة فقد ينتقل به ومعه من مرحلة الانفعال العاطفي إلى مرحلة سرد المآثر ، يقول في مرثيته الأولى للقطب :

جـردت نـفسك لـلاسـلام تـخـدمـه	في جـد محتسب لـلـهـول محتـمـل
كـم حـجـة بسـطت بـالـبـطـل أيـديـهـا	صـدعت بـالحق فـيـهـا فـهـي في شـلـل
كـم قـاطـع في سـبـيـل الـلـه يمنـعـهـا	رمـيـتـه بشـهـاب مـنك مختـزل
كـم مشـكـل أعـجـز الأفـكـار جـئت بـه	صـديـعـة الـفـجـر نـوراً واضـح السـبـل

وقد يأتي التكرار لكي يبني عمق المأساة ، ولكي يستنفر شرائح بعينها يريدها أن ترجع صدى أحاسيسه ، كما جاء في المرثية الثانية لنورالدين السالمي :

يـا رجـال الـديـن هـل جـاءكـم	أن بـدر الـديـن في الأرض أفـل؟!
يـا رجـال الـديـن لا تـهـنـأ لـكـم	فـرصـة إن مصـاب الـدهـر حـل
يـا رجـال الـديـن لم يـنـزل بـنـا	فـادح أعـظـم مما قـد نـزل
يـا رجـال الـديـن أهـلاً بـالـقـضـا	غـاض هـذا الـبـحـر وانـدك الجبـل
يـا رجـال الـديـن مـا هـذا الأسـى	والأسـى بـالـعـقـل، والـعـقـل ذهـل؟!

وكثيرة هي النماذج التي يعتمد فيها البهلاني على التكرار في شعره عامة وفي مراثيه خاصة ، نشداناً لأهداف فنية دقيقة في بناء قصيدته .

يلجأ البهلاني أحياناً إلى إحداث ألوان من التوازي في الايقاع أو في الصياغة أو في التراكيب، لكي يساعد التجاوب والتقابل بينها ، على إحكام الربط والتماسك ، الذي أحدثه البحر الشعري من قبل ، وشد من أزره التخطيط الهيكلي لجسد القصيدة العام ، ويأخذ هذا التوازي أشكالاً متعددة ، تقترب في مجملها من فكرة «الترصيع» التي اهتمت بها البلاغة العربية وشاعت لدى شعراء من أمثال صريع الغواني ، مسلم بن الوليد ، وأبي تمام وغيرهم من شعراء مدرسة البديع ، يقول البهلاني في رثاء السالمي :

أسرعت في الأغواث والأقطاب	**والأعلام والأبدال والأخيار**
مهلاً فما أبقيت ، ثم بقية	**نزح القطين وجف روض الدار**
أفقدتني شهب الفضائل كلهم	**ويلاه من شهبي ومن أقماري**
ويلاه أين سماؤها ونجومها	**وشموسها ، ذهبوا كأمسي الجاري**
أنضاهم التسبيح والترتيل	**والتهجيد بين جوانح الأسحار**
خبت إذا جن الظلام رأيتهم	**طاروا إلى الملكوت بالأسرار**
غر إذا سجد الظلام على الفضا	**سجدوا على الثفنات كالأحجار**

والأبيات كما هو واضح مليئة بألوان الترصيع ، في بناء الصيغة أو التركيب ، فالأغواث والأقطاب ، والأعلام ، والأبدال ، ينتمون الى صيغة واحدة يحدث تواليها أثراً عميقاً على النفس ، وكذلك النجوم والشموس ، والتسبيح والترتيل والتهجد ، وأحياناً يأتي التوازي والترصيع ، بين تركيبين متواليين ، كما هو الشأن في البيتين الأخيرين ، حيث يتشابه النسق التركيبي . من خبر محذوف المبتدأ ، وأداة شرط تأتي عقب الخبر، ويتلوها فعل الشرط في الشطر الأول ، ثم يتصدر جواب الشرط الشطر الثاني ، فيتوحد النسقان التركيبان في البدنين معاً ، مما يعطي البناء الداخلي قوة ومتانة وإحكاماً .

إن هذا النوع من التوازي ، ربما يتزامن مع ازدياد لحظات التوتر في بناء القصيدة ، ويستطيع الدارس أن يرصد مزيداً من خصائصه لو أنه تساءل في أي المواطن في القصيدة يجيء ؟ .. هل في مرحلة الاخبار والسرد ، أو مرحلة الانشاء والتعقيب ؟ ، وهل يجيء مع البناء المجرد ، أو البناء التصويري ؟ ، وهل يتحقق في بدايات القصائد

ومطالعها ، أم يجيء غالباً في لحظات الذروة الفنية ؟

وعلى أية حال ، فان هذه الوسيلة ، تضيف ملمحاً من ملامح التماسك في قصيدة المرثية المطولة عند أبي مسلم البهلاني ، يشكل مع الملامح السابقة التي أشرنا اليها ، منهجاً فنياً ، يتركنا على قناعة بأننا أمام شاعر جيد ، تعينه الشاعرية ، على التحكم في روافده ، واظهار مشاعره العميقة ، وبنائها في نسق يستخرج معه مشاعر المتلقي العميقة أيضاً ، بعد أن يكون قد استثار ظمأها بطريقة فنية ، حتى إذا نزل عليها ندى الشعر اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج .

أبو مسلم البهلاني الرواحي

حياته-شيوخه-تلاميذه-سلوكياته

المدرسة التي ينتمي إليها

سعادة الشيخ

أحمد بن سعود السيابي

أمين عام بمكتب سماحة مفتي عام السلطنة

أبو مسلم البهلاني الرواحي واحد من عباقرة الأمة العُمانية ونبغائها الذين أنجبتهم عُمان عبر مسيرتها الحضارية القائمة على دعائم راسخة من رجال عظام وفكر قويم ، وهو أحد مفاخر الأمة العربية لغة وفكراً على أنه إذا كان لا بد للأشياء من أصول ترجع اليها اعتماداً وتأصيلاً واستناداً ، فكذلك لا بد للإنسان من أصول يرجع اليها وينتمي اليها ، فمن هو أبو مسلم ؟ وما هو نسبه ؟

انه العلامة المحقق والشاعر المفلق والأديب المدقق أبو مسلم ناصر بن سالم ابن عديم بن صالح بن سالم بن محمد بن عبدالله بن محمد البهلاني الرواحي ينحدر من أسرة كريمة المحتد عريقة النسب . فقد كان جده عبدالله بن محمد البهلاني أحد قضاة الدولة اليعربية على وادي محرم كما ان أباه الشيخ سالم ابن عديم البهلاني أحد قضاة الامام عزان بن قيس والسلطان تركي بن سعيد. وربما يتبادر إلى ذهن السامع أو القارىء ، أو يتوهم متوهم أن البهلاني نسبة إلى بهلا المدينة التاريخية المشهورة في عُمان ، وليس الأمر كذلك ، فالنسبة الى بهلا بهلوي ، فلا تحتاج الى زيادة حرف النون ، أذن فمن أين نسب البهالنة أو البهلانيين؟

سمعت سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي مفتي عام السلطنة – أبقاه الله – وهو يمت اليهم بنسب – يقول نقلاً عن بعض ذوي الاهتمام أن نسبهم من طيء .

وانهم كانوا في منطقة اليمن من إزكي ومنها تفرقوا إلى أمكنة أخرى من عُمان ومنها قرية محرم بوادي محرم التي ينتمي اليها المحتفى به أو المترجم عنه . ودخلوا في بني رواحه القبيلة العبسية المشهورة . على أن تداخل قبائل العرب وأفخاذها وبطونها في بعضها البعض أمر معروف وغير منكر يعرف ذلك كل من اطلع على كتب النسب كما هو الشأن في القبائل العُمانية أيضاً .

يقول الشيخ سالم بن حمود السيابي بعد أن ذكر تداخل بعض القبائل في غيرها «وكثير غيرهم من أهل عُمان يمانيون دخلوا في النزار فترأسوا فيهم ، وكذلك يمانيون دخلوا في قبائل أخرى يمانية من غير نسبهم وانتسبوا فيهم وكذلك النزار وهلم جرا وهذا أمر لم يختصوا به شاركتهم فيه العرب في الجاهلية يعلم ذلك المطلع على السير ، وفي تاريخهم أيضاً شائع ذائع ، لا يسع المقام ذكره ، ولا يضر عرب تدخل في عرب ولكن المضر اخفاء النسب الأصلي والانتساب بنسب مستحدث» [١] .

ويقول أبو عباس القلقشندي «اذا كان الرجل من قبيلة ثم دخل في قبيلة أخرى جاز أن ينتسب الى قبيلته الأولى وأن ينتسب الى القبيلة التي دخل فيها وأن ينتسب الى القبيلتين جميعاً مثل أن يقال التميمي ثم الوائلي وما أشبه ذلك» [٢] . وهذه المسألة لا تخلو من خلاف بين فقهاء الاسلام . واذا كنا قد تعرفنا على نسب المترجم له فماذا عن حياته وكيف عاشها؟

حيـــاتـــه :

ولد أبو مسلم وأطل على هذا الوجود سنة ١٢٧٣هـ حسب رواية ابن أخيه الكاتب الأديب سالم بن سليمان البهلاني . وهناك رواية أخرى صاحبها نجل المترجم له (مهنا بن ناصر البهلاني) تقول أنه ولد سنة ١٢٧٧هـ ويبدو أن الرواية الأولى أكثر ترجيحاً وأقرب الى الحقيقة والصحة وذلك لأن صاحبها لازم عمه طويلاً وكتب عن شعره وتتلمذ عليه كما يتضح ذلك من ملازمة أبي مسلم للشيخ أحمد بن سعيد الخليلي . وأيضاً فان أبا مسلم يقول في قصيدته العينية التي مطلعها :

الا هـل لـداعـي الـلـه في الأرض سـامـع ... فــاني بــأمــر الـلـه يـا قـوم صـادع

يقول فيها : [٣]

وأي رجــاء بــعــد ســتين حــجــة ... لـعيش وهـل مـاض مـن الـعـمـر راجع

---

(١)سالم بن حمود السيابي ، إسعاف الأعيان ، ص ٤٤ (٢) أبو العباس القلقشندي ، نهاية الأرب.

(٣) أبو مسلم البهلاني ، ديوان .

فانه نظم هذه القصيدة بعيد نصب الإمام سالم بن راشد الخروصي سنة ١٣٣١هـ وبما أنه وقت نظمها كان لا يتعدى سنتي (١٣٣٣هـ) أو (١٣٣٤هـ) . وكان مولده في قرية محرم بوادي محرم موطن آبائه وأجداده منذ أن أنتقل اليها جده القاضي عبداله ابن محمد البهلاني الآنف الذكر . من أزكي .

ويبعد وادي محرم الذي أضيف الى هذه القرية عن العاصمة مسقط حوالي مائة وخمسين (١٥٠) كيلو مترا ويشتمل على العديد من القرى أكبرها قرية محرم . وهي القرية التي فتح فيها المؤلف عينيه على هذا الوجود .. وهناك نشأ وترعرع .. ودرج أيام الطفولة البريئة الناعمة . ومرح في شعابها وشراجها وتفيأ ظلال نخيلها وأشجارها. وكان لهوه زمن الصبا بمياهها الجارية الرقراقة . وتركت حياة الطفولة وبعدها حياة الشبيبه في وادي محرم صوراً لازمته طوال حياته وظلت تداعب خياله وتسكن ذاكرته عبر عنها في نونيته الشهيرة :

يا برق هل والحنايا من ضعاضع	فالاثام فالطفّ حياهن هتان
وهل ذرى القفص فالمقراة معشبة	وهل قطين بعليا قاعر بانوا
عهدي بها ونضير العيش يصحبها	والدهر في غفلة والشهب أخوان
نشأت فيها وروضاتي ومرتبعي	روح الفضيلة لا رند وريحان[٤]

وعندما كان أبوه قاضياً على نزوى في عهد الامام عزان بن قيس ، كان بمعية أبيه في نزوى ، ويقال انه أجريت له عملية الختان في حصن نزوى وهذا القول إن صح فهو من مرجحات رواية ابن أخيه سالم بن سليمان البهلاني بأن تاريخ مولده سنة ١٢٧٣هـ وكان زميله في محرم أيام شبيبته الشيخ أحمد بن سعيد بن خلفان الخليلي حيث كانا زميلين متلازمين في الدراسة لدى الشيخ محمد بن سليم الرواحي الذي كان يدرس في قرية السيح بوادي محرم في أحد المساجد هنالك . كما كانا زميلين في الخلوة الروحانية التي اختلياها معا صفاء للروح ، ونقاوة للضمير ، وطهارة للقلب ، وشفافية للوجدان، وتقوية للصلة بالله – تعالى – والذي أشار اليه في نونيته بقوله :

ارتاح فيها الى خل فيبهرني	صدق وقصد ومعروف وعرفان
فحال حكم النوى بيني وبينهم	هنا تيقنت أن الدهر خوان[٥]

(٤) أبومسلم البهلاني ، ديوان .

(٥) نفس المصدر .

وبعد أن رحل أبوه الشيخ سالم بن عديم إلى زنجبار درة الشرق الافريقي وحاضرته التي كانت زاهية بجمال الحكم العربي العُماني في عهد السلطان برغش بن سعيد بن سلطان ، سافر هو اليها ايضاً ملتحقاً بأبيه وكان ذلك في سنة ١٢٩٥هـ وأقام بها مدة خمس سنوات حيث رجع الى عمان وأقام بموطنه محرم وظل بها خمس سنين حتى أخذ الحنين يشده والشوق يجره الى زنجبار ، فامتطى أديم البحر راحلاً اليها مرة ثانية وكانت هذه رحلته الأخيرة اليها حيث أقام فيها وألقى بها عصا الترحال وقضى حياته بها ليعيش في كنف حكامها الذين أحاطوه بالرعاية التامة وأولوه العناية الكاملة لا سيما في عهدي السلطانين حمد بن ثويني وحمود بن محمد بن سعيد ومن بعدهما من سلاطين زنجبار حيث تقلد منصب القضاء ومن ثم أسندت اليه رئاسته فيها .

لقد كان لذلك الجو الذي ساده مناخ من التقدير والاحترام من قبل سلاطين زنجبار كما كان لتلك البيئة التي عاش في ربوعها الوادعة أثر في نفس الشيخ أبي مسلم فأكب على المطالعة وقراءة نفائس الكتب الفقهية والأدبية على اختلاف أنواعها ، فكان الكتاب أستاذه الثاني وجليسه المفضل حتى نبغ في العربية والشعر والأدب والعلوم الشرعية وصارت له مكانة رفيعة ومنزلة عالية في زنجبار لدى الحكام والمحكومين اعترافاً بعلمه وشاعريته حتى أطلق عليه في الشعر لقب «شاعر العرب» و «شاعر العصر» وعبر عن تلك المكانة والمنزلة بقوله في قصيدة له :

عزة العلم أمجدتني مقاماً ... فتبينت كل رأي سخيف[٦]

نعم طاب له المقام في زنجبار ، وسعدت بها أيامه وصفت لياليه ، فنستمع اليه وهو يصور لنا تلك الحياة السعيدة التي قضاها حيث يقول :

خليلي إن الدهر جمع وفرقة ... وطي ونشر لا يقر على آن
تمتعت منه بانبساط وبهجة ... ورائع حسن من لياليه فتان
ليال سقتنا صفوها ونظامنا ... كواكب أصحاب وأقمار اخوان
لدن سعدت أيامنا بمليندة ... اجر بافريقية الشرق أرداني
لعاصمة ترفض نبلا جباهها ... وتهفو بها البشرى لعرف وعرفان
افات البلاد الفضل ادنى فصولها ... وأبهجت القاصي وأسعدت الداني
بها من رجالي عصبة يمنيه ... طوال الأيادي من ذوائب قحطان
هم القوم لا يشقى جليسهم بهم ... صنائعهم في الدهر كالفلق الثاني

(٦) أبو مسلم البهلاني ، ديوان .

في ذلك المناخ وفي تلك البيئة نمت مواهبه وتفتقت قريحته وسال يراعه فكان قاضياً بل رئيس القضاء ومفتياً ومدرساً ومؤلفاً محققا وشاعراً مبدعاً .

فقد نظم القريض وألف في الفقه والعقيدة والسيرة النبوية وأنشأ جريدة النجاح التي كانت نافذته الواسعة التي يطل منها على العالم الخارجي أخذاً وعطاء وافادة واستفادة .

وعاش على تلك الحال الجميلة حتى وافته المنية في الثاني من شهر صفر ١٣٣٩هـ – ١٩١٩م ، تلكم كانت حياته طفلاً يافعاً ، وشبابا وشيبا ، علما وعملا .

فمن هم شيوخه وهل كان له تلاميذ ؟

شيوخه وتلاميذ :

حامل العلم لا بد أن يكون متلقياً ومؤدياً ، فالتلقي والأداء أمران ضروريان للعالم ولحامل العلم . فلابد من أن يكون له شيوخ يتلقى عنهم فنون العلم والمعرفة كما أنه لا بد من أن يكون له طلبة يؤدي اليهم ما حمله من علم ومعرفة .

ومما لا شك فيه أن أبا مسلم كان له شيوخ أخذ عنهم ما أخذ من علم وقد جرت العادة أن يتعلم الناشىء أول شيء في حياته قراءة القرآن الكريم وهذه عادة اسلامية عامة في جميع البلدان الإسلامية واذا كان الأمر كذلك فان أبا مسلم تعلم القرآن على يدي معلم القرآن في بلدة محرم .

أما علوم اللغة العربية وعلوم الشريعة من عقيدة وفقه وغير ذلك فيبدو أنه أخذ شيئاً من ذلك عن والده الشيخ سالم بن عديم فقد كان والده على درجة من العلم والمعرفة حيث عمل قاضياً في عُمان وزنجبار . كما حمل العلم عن الشيخ محمد بن سليم الرواحي الذي كان يقوم بالتدريس في مسجد بقرية السيح بوادي محرم أما تلاميذه فكانوا في زنجبار فهناك نضجت مداركه وتفتحت مواهبه وأبرز من أخذ عنه العلم لغة وفقهاً وعقيدة وأدباً .

١– الشيخ / سالم بن محمد الرواحي

٢– الشيخ / عبدالرحمن بن محمد الرواحي

٣– الشيخ / سالم بن سعيد الحبيشي .

٤– الشيخ / برهان بن مكلا القمري .

٥- الشيخ / سالم بن سليمان البهلاني (ابن أخيه) .

٦- مهنا بن ناصر بن سالم البهلاني (ولده) .

وقد وقفت على كلام للشيخ برهان القمري قاله في حق شيخه وأستاذه أبي مسلم أحببت أن أثبته في هذا البحث حيث يقول :

«لقد طلبت أنا وزملائي من المرحوم العلامة القاضي ناصر بن سالم بن عديم الرواحي في الأيام التي كنا نتلقى منه الدروس النحوية أن ينظم لنا أنواع المبنيات في بيت وذلك عندما وصل درسنا اليها و لم يكن في حافظتنا ضابط يضبطها لنا ، فتفضل علينا المرحوم بنظمها فنظمها في بيت واحد أثناء الدرس – رحمه الله تعالى رحمة واسعة –والبيت هو :

واضمر بشرط واشر مستفهماً وصل وكاسم الفعل للبنا أنتما

ولاستحساني لهذا البيت وكونه من الفوائد التي ظفرت بها أيام تعلمي رأيت من الواجب علي أن أدرجه في هذا الكتاب لأنه مما أجاد به المرحوم الذي كان أحد أساتذتي في علوم العربية ، فجزاه الله عني خير جزاء في دار الجنان ».[٧]

تلكم كانت حالة أشياخه وتلاميذه فما هي سلوكياته في المجتمع ؟

سلوكياته :

الإنسان في طبعه مركب من فكر وسلوك ، فالفكر يوجه الإنسان في سلوكه ليكون السلوك مترجماً عن ذلك الفكر ، وبقدر ما يحمل الإنسان من فكر يكون السلوك مترجماً له ، وإذا كنا قد تعرفنا على فكر أبي مسلم من بعض ملامح حياته وعلميته ، وما تحلى به من علم غزير في مختلف فنون العلم الشرعية والأدبية واللغوية ، وما واكب ذلك من أصيل إنتماء وعراقة حسب وسمو شرف لأسرة اتسمت بالعلم والفضل والخلق والمسئولية .

فانه لا بد الا أن يتكون من ذلك فكر نير مستنير يحمل صاحبه ويوجهه الى الخلق الكريم والسلوك الحسن القويم .

---

(٧) برهان بن مكلا القمري ، الألفية الواضحة ، ص ١١

ذلكم السلوك الذي دفع بأبي مسلم الى أن يكون عضواً فاعلاً في مجتمعه حيث انه كان اجتماعياً الى حد كبير فهو يشارك أحبابه وأصحابه في مناسباتهم وأفراحهم وأتراحهم .. فتجده مواصلاً وزائراً ومعاتباً على التقصير الذي يقابل به من بعض أولئك الأصدقاء والأخلاء ، كما كان حريصاً على الاجتماع بالناس ولا يترك الفرصة تفوته عن تلك الاجتماعات العلمية والأدبية والاجتماعية لأنه يرى في الاجتماع تأثيراً روحياً له فاعليته في النفوس وفي القلوب سعادة وابتهاجاً ، ففي الاجتماع تقتنص الحكم وتكتسب ويرقى الى الكمال ، وبالاجتماع يستفيد الانسان علوماً شتى منقولة ومعقولة فيكون غرس العقول بالاجتماع لا بالانفراد والانزواء والانطواء فانفراد الإنسان بنفسه دون مجتمعه وانعزاله عن حياة الأصحاب ، أهل العلم والأدب والثقافه والفضل لا يفيده ذلك شيئاً فهو يقول :

إن للاجتماع روحا لطيفا … فاعلا في النفوس كل جميل
قلما يكسب انفرادك فضلا … ومع الاجتماع غرس العقول
أدب حكمة كمال دعاء … واقتناص المنقول والمعقول

ويصور لنا شيئا أو نماذج من تلك المناسبات الاجتماعية التي كانت تزهو بها الحياة في زنجبار ، حيث يصور لنا مجالسَ الأنس هناك بقوله مذيلا على بيت شعري يقول :

اذا حرم الله المدام فانه … أتى ذلك التحريم من حكمة الله

فقال أبو مسلم :

وقام شراب الشاي عنها خليفة … على عالم الأرواح كالآمر الناهي
له الفضل في لون وريح ولذة … وقل فيه ما قد شئت من جانب الجاه
ذؤاب من الياقوت في وسط كوكب … به فرج المهموم بل متعة اللاهي
اذا صفقت أكوابه وسط مجلس … رأيت نجوم الزهر تهوي لأفواه
أرى كل ما تحوي مجالس أنسنا … جنوداً لدفع الهم سلطانها الشاهي

ففي هذه الأبيات تصوير للحياة الاجتماعية التي كان يعيشها أهل زنجبار وعاشها معهم أبو مسلم وشاركهم أنسها ونعمها فليست هذه الأبيات مقصورة على وصف الشاي المشروب العالمي المعروف أو كيفية احتسائه فقط .

وكان تواقاً الى حضور الأمسيات الجميلة التي تطرح فيها القضايا الأدبية ، وتقتطف فيها ثمار الأدب وتجتنى فيها أزهاره فيصف تلك الليالي المؤنسة الجميلة :

رعى الله ليلة أنس جلت … بهاء وحسنا كبدر التمام
فكانت لنا غرة في الزمان … وكانت على صورة كالوسام
من الأدب الغض أجني بها … زهورا سقاها نمير الغمام
أطارح فيها كما أشتهي … كرام السراة سراة الكلام

الى أن يقول :

تذكرت ما بيننا قد مضى — وليس بعيش سعيد دوام
فلا زال ناديكم ناعما — من السعد في نظرة وابتسام
فيا ليلة الوصل دومي لنا — فانت السلام عليك السلام[8]

كما انه كان يتخذ من شعره وسيلة للتعبير عما تكنه نفسه من مشاعر الود والصفاء والتهاني تجاه اخوانه وأخلائه وأصفيائه ، يقول في الشيخ محمد بن جمعة المغيري وقصره المشيد :

الا انعم أيها القصر المشيد — ودامت في نواديك السعود
ودام علاك ممدودا بنعمى — زمانك كله زمن جديد
تحف بك اللطائف والتهاني — رياض الأنس والعيش الرغيد
لنعم القصر منبع كل فضل — لأن قطينه الشيخ العميد
محمد بن جمعة ذو المعالي — نبيل زانه كرم وجود
كأن جبينه قمر وكلتا — يديه سحابتان اذا يجود
فدم في روضة النعمى ملياً — بسعد لا يزول ولا يبيد[9]

وكان كثيراً ما يزور الأصحاب والأصدقاء ، فقد زار مرة صديقه أبا الحارث الشيخ الأديب محمد بن علي بن خميس البرواني صاحب (مقامات أبي الحارث) .

وحدثت له قصة ظريفة ذكرها في قصيدة له يقول فيها :

أبا الحارث اسمع حديثا جرى — على قصة راق اعجابها
تشوقت يوما للقياكم — كذا يجذب النفس أحبابها
فسرت أنص إلى بابكم — وقد أرهق النفس أتعابها
ولما حللت بدار المزور — ومن عادة الدار ترحابها
اذا نحن بالباب زنجية — تقض الشياطين أنيابها
فقلنا لها ابلغي أمرنا — فقالت مقابركم بابها

(٨) ديوان أبي مسلم .

(٩) سعيد المغيري ، جهينة الأخبار ، ص ٣٤٦ .

الى أن قال بعد أن ذكر طول وقوفه وانتظاره وما شاهده أثناء ذلك ثم رجوعه .

واضـــلــــلت داري الى أن بــــدت رســـوم حـــوتـــهــن أعـــتـــابـــهـــا
والـــفـــيت ذريـــتـــي كـــلـــهـــا لـــطـــول المدى شـــاب أعـــقـــابـــهـــا
والـــفـــيت كُـــتْـــبـــي محشـــورة فـــقـــيـــل بـــنـــو الـــفـــار تـــنـــتـــابـــهـــا
فـــهـــذا أبـــا الحارث المنـــتـــهـــى لاعـــجـــوبـــة طـــال اغـــرابـــهـــا
فـــكـــان بـــلايـــا أبـــي مســـلـــم عـــلـــيك ونـــومك أســـبـــابـــهـــا[10]

إن هذا التوجه الاجتماعي الراقي لدى أبي مسلم جعل منه رجلاً جواداً سمحاً كريماً منفاقاً للمال لا يبالي آخذاً بقول الرسول صلى الله عليه وسلم لبلال «أنفق ولا تخش من ذي العرش املاقاً» لقد أكرمه سلاطين زنجبار وساداتها ، وأغدقوا عليه من العطاء جزيلاً ومن العطف جليلاً ، تقديراً لمقامه واستئهالاً لحقه حتى ظن بعض أولئك السلاطين أن أبا مسلم قد تأثل أموالً جزيلة بعمان . ولكن سرعان ما انكشف الحال وبان الواقع بأنه كان ينفق تلك الأموال في مستحقيها فهو كما كان يأخذها من حلها ينفقها في محلها – إن شاء الله – بل انه كان أحياناً تضطره الظروف وتجبره المتطلبات الى الاقتراض والاستدانة من أهل الخير والاحسان والمعروف فقد ذهب ذات مرة الى زميله الشيخ العالم راشد بن سليم الغيثي لاستقراض بعض المال ، وقال في بيتين :

أتـــيـــتك لما أجـــدب الـــربـــع عـــانـــيـــا كـــذاك غـــيـــوث الـــلـــه في الجدب تـــقـــصـــد
فـــفـــرج رعـــاك الـــلـــه هـــمـــا ألم بـــي كـــأن ســـعـــيراً في الجوانـــح تـــوقـــد[11]

وبعد أن تعرفنا على سلوكياته اجتماعاً وكرماً وتواضعاً فما هي المدرسة التي ينتمي اليها ؟

المدرسة التي ينتمي اليها :

ينتمي أبو مسلم في توجهه الفكري الى المدرسة الجاعدية أو البونبهانية – اذا جاز لنا أن نسميها بذلك – وهذه المدرسة صاحب فكرها العلامة الرئيس أبو نبهان جاعد ابن خميس الخروصي – رضي الله عنه – وتقوم معالم هذه المدرسة على :

---

(١٠) ديوان أبي مسلم .
(١١) ديوان أبي مسلم .

١- عمق التأمل في الوجود
٢- التعمق في علم الكلام والفلسفة والمنطق
٣- الخلوة .
٤- كثرة الأوراد .

وعلى العموم فان عليها مسحة صوفية فقد كانت متأثرة ببعض التوجهات التصوفية من خلال المعالم التي ذكرناها .. بيد أنها لم تتبنى التصوف من حيث الطرق والطقوس والتجمعات وغير ذلك من الامور المتبعة عند الصوفية ، وانما أخذت الخلوة الانفرادية واستعمال الأوراد .

حتى ان الاباضية لم يطلقوا على ذلك التوجه اسم التصوف بل أطلقوا عليه اسم السلوك . فالشعر الذي تكون فيه نزعة صوفية يسمونه شعر السلوك .

وبعد وفاة أبي نبهان حمل ابنه الشيخ ناصر بن أبي نبهان الخروصي - رحمه الله- فكر تلك المدرسة . ثم جاء بعده العلامة الكبير الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي - رضوان الله عليه - فرفع لواءها وأعلى من شأنها نظراً لمقدرته الأدبية والشعرية الفائقة وأسلوبه البياني الرفيع اضافة الى تعمقه في علوم الشريعة ، فسال يراعه بذلك التوجه أو السلوك نثراً ، وهاجت به قريحته نظماً عبر غرر القصيد وقلائد القريض ، وتبعه على ذلك النهج ابنه الشيخ أحمد بن سعيد الخليلي - رحمه الله - وصار لهذا التوجه أو السلوك شأن وأي شأن في الأوساط العلمية والدينية في عُمان .

وقد تأثر أبو مسلم - رحمه الله تعالى - بهذا التوجه مقلداً في ذلك الشيخ العالم الرباني سعيد بن خلفان الخليلي مترسماً منهجه متتبعاً خطاه اعجاباً بذلك القطب الرباني يدلنا على ذلك ما دبجه من كلام بين يدي تخميسه للقصيدة الموسومة بسموط الثناء للشيخ الخليلي حيث قال « لم يتصل بي كيفية تبتل سيدي القطب الخليلي - قدس الله سره - بدعوته سموط الثناء إلا ما ذكره صاحبها الشيخ جمعة بن خصيف - رحمه الله - من كون القطب كان يرتلها آناء الليل وأطراف النهار ، وطوراً ينور بها سدفة السحر ، وتارة يصمي بها رابعة النهار ، حتى خرقت له عوائد التمكين ، وفتح الله له بها الفتح المبين ، ولما منّ الله علي بتخميسها متعرضاً لبركات ذلك القطب واستمداداً للفتح من نفثاته ، لا مباراة لكلامه فان كلامه وهبي لا يبلغ شأوه مثلي حتى يقتحم الضالع الجبل الأملس ، أو يصعد بغاث كسير الجناح الى الفلك الأطلس ، ولكني امرؤ حالفت خدمة الأذكار ، وأشربت حب الاغتراف من بحار الأسرار ،

وعلمت أن لهذه الدعوة أثراً ساطعاً وبرهاناً قاطعاً ، أشهر من الشمس في كبد السماء وأغزر من بركة من عيالم الدأماء ، فاستمسكت بعروتها وأخذتها ، وجعلتها مع التخميس لرب العزة نداء ولبست لها من أديم السحر رداء»[١٢] وليس الأمر مصادفة» .

واذا كان مصادفة فهو من باب حسن الصدف – كما يعبر عنه – أن تكون خاتمة حياة العلامة أبي مسلم وآخره عهده بالدنيا هي تخميسه «ثمرات المعارف» للقصيدة الميمية للعلامة المحقق الخليلي أيضاً وهي أيضاً في فن السلوك «التصوف» كدليل على الارتباط الروحي الذي يربط الامامين العالمين والشاعرين المبدعين فقد كان تخميسه لها قبل وفاته بثلاثة أيام فقط والقصيدة الميميه التي للشيخ الخليلي مطلعها :

تقدم الى باب الكريم مقدما ... له منك نفسا قبل أن تتقدما

أما مطلع التخميس فهو :

هو الله فاعرفه ودع فيه من وما ... دعاك ولم يترك طريقك مظلماً
عن الحق نحو الخلق يدفعك العمى ... تقدم الى باب الكريم مقدما

له منك نفسا قبل أن تتقدما

أما سموط الثناء فمطلعها :

سموط ثناء في سموط فريد ... بكل لسان قد بشثن وجيد

والتخميس مطلعه :

أوجه باسم الله وجه شهودي ... لعز جلال الله رب وجودي
تسابيح اخلاصي له وصمودي ... سموط ثناء في سموط فريد

بكل لسان قد بثثن وجيد[١٣أ]

على أن الشيخ أبا مسلم تعمق في التوجه السلوكي (التصوفي) وتوغل فيه الى حد المبالغة أحياناً ، وسخر له موهبته الفذة وقدراته الابداعية الهائلة ، ووظفها لابراز مكنونات هذا التوجه السلوكي شعراً أو نثراً بما لم يسبقه اليه فيه سابق ولعله لم يلحقه لاحق فألف فيه الرسائل الجامعة ونظم فيه القصائد المطولة الرائعة ، على أنه لا بد من القول بأن هذا التوجه قد خفت حدته وقل شأنه بظهور المدرسة السالمية[١٣ب]

---

(١٢) سعيد المغيري ، جهينة الأخبار ، ص ٣٤٦.   (١٣أ) ديوان أبي مسلم .

(١٣ب) وليس معنى هذا ان هناك فرقا جوهريا بين المدرستين البونبهانية والسالمية ، وإنما هو بعض التوجهات ، وكلتاهما تستمد مفهومها من الكتاب والسنة .

بقيادة وريادة الامام نور الدين السالمي الذي استطاع بما أوتي من نبوغ فائق وملكة علمية وفكرية أن يؤسس مدرسة فكرية أخرى لها ملامحها ومعالمها . تلك الملامح والمعالم القائمة على الكتاب والسنة نصاً وظاهراً والرجوع الى سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضوان الله عليهم والأسلاف والأوائل . فقد قال : «ثم ان في الطلسمات حتى ان بعضهم جعلها نوعاً من السحر ، ولا اقول فيها شيئاً لكثرة استعمال متأخري أصحابنا لها فلو لم يظهر لهم جوازها ما فعلوها ، غير أني أقول أنها مبتدعة قطعاً ، لأن السيرة النبوية والطريقة الصحابية خالية منها ، وكذلك من بعدهم التابعين باحسان والله أعلم بحالها ، ولعل أصلها أخذ من اليهود فإنهم المعروفون بذلك في سالف الزمان ، وقد أغنانا الله عن علومهم بالعلم الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من ربه ولعل رجلاً يسمع هذا فيقول :

كالثعلب النازي الى عنقوده إن لم ينله قال هذا حامض

فلا والله ما عدلت عنه لذلك مع إني معترف بجهلي ، لكن رغبة عنه وعدولاً الى السيرة المطهرة على أن نفعه دنيوي قطعاً ويكفيك منه ذلك فاستدل بفرعه على أصله» .(١٤)

وقال في جواب له عن معنى الحديث : « من أخلص لله أربعين صباحاً تفجرت ينابيع الحكمة من قبله».

«وليس معنى الحديث كما تأوله أهل الرياضات حيث صرفوه الى الخلود أربعين يوماً ، فان ذلك تأويل للحديث على غير وجه ، مع ان الخلوة لم تثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا عن أحد من الصحابة ، ولا عن التابعين لهم باحسان ، أما ما يروى أنه — صلى الله عليه وسلم — كان يتعبد الليالي المعدودة في حراء فذلك قبل بعثته صلى الله عليه وسلم ، واذا ثبت عنه بعد البعثة فذلك قبل استقراء الشريعة فلا دليل فيه ، ومن المحال أن ينال العلم بالخلوة ، لأن علوم الإسلام سمعية منقولة عن الشارع ، وقد انسد باب الوحي فلا يمكن أخذها إلا عن الأشياخ شفاها أو من آثارهم الصحيحة » .(١٥)

وهكذا شاء الله — تعالى — أن تملأ المدرسة السالمية الساحة الفكرية في عمان بهذه المفاهيم الواضحة الظاهرة الأصلية ولا تزال آثارها باقية ومستمرة حتى يومنا هذا ، (ألا رحم الله أولئك الأئمة الأعلام والسادة العظام ورضي عنهم وأثابهم دار الجنان على ما قدموه من خدمات جليلة للاسلام وأهله وللعلم وذويه).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ..

(١٤) السالمي ، العقد الثمين ، ج١، ص ٥٠
(١٥) نفس المصدر .

بين أبي مسلم البهلاني
وأبي البقاء الرندي
(جوانب أدبية وفنية مقارنة)

الدكتور / سمير هيكل

كلية الآداب - جامعة السلطان قابوس

قسم اللغة العربية

ليست رائعة أبي مسلم النونية المسماة بالفتح والرضوان في السيف والايمان هي المعارضة الوحيدة في ديوانه ، وانما تبرز هذه المطولة كمعارضة مميزة لرائعة الشاعر الأندلسي أبي البقاء صالح بن شريف الرندي الذائعة الصيت :

لكل شيء اذا ما تم نقصان ... فلا يغر بطيب العيش انسان[1]

هذه الأندلسية التي لا بد أن تأثر بها شاعرنا العماني وتمثلت أمام ناظريه مثالا حيا ينطق بما كان يشعر به من حزن وأسى حينما نظم رائعته :

تلك البوارق حاديهن مرنان ... فما لطرفك يا ذا الشجو وسنان[2]

واذا كان موضوع قصيدة أبي البقاء يدور حول محور واحد هو رثاء الأندلس الضائعة والبكاء على القواعد الإسلامية والمدن الأندلسية التي سقطت في أيدي الأسبان النصارى من مثل بلنسية ومرسية وشاطبة وجيان وقرطبة وإشبيلية مبيناً ما آل اليه حالها وحال أهلها الذين سقطوا قتلى وأسرى دون أن يهتز إنسان ، فإن موضوع نونية أبي مسلم يدور حول عدة محاور ، ولذلك يحسن وضعها في إطار عام وتقسيمها إلى مقاطع حسب الأفكار التي وردت فيها .

ذلك أن قصيدة أبي مسلم هذه تبلغ ثلاثمائة وثلاثة وثمانية بيتاً في حين لا يتجاوز عدد أبيات نونية أبي البقاء ثلاثة وأربعين بيتاً ، وهذا يعلل تعدد الموضوعات عند أبي مسلم . فمن شوق وحنين إلى الديار ومعاهد الصبا في الوطن الأم انتقالاً إلى ذكر بيضة الإسلام نزوى عاصمة الإمامة وإلى ذكر الأئمة ورسم لوحة لهم تشع بألوان التقوى

---

(١) نفح الطيب ٦ / ٢٧٩

(٢) ديوان أبي مسلم ٢٩٩ – تحقيق عبد الرحمن الخزندار .

والهدى ، ثم الانتقال إلى الاستصراخ والاستنهاض في معرض ذكر الأحياء والقبائل التي كان يناديها من بعيد وقد مثل هذا القسم أكبر مساحة في القصيدة قبل أن ينتقل في النهاية إلى ذكر موقفه وطلب الدعم والتأييد .

هذا هو الإطار العام للقصيدة التي تدخل في باب الشعر الوطني الذي كان معنيا بتمجيد الوطن وحث المواطنين على التجاوب معه والالتفاف حوله .

ويشترك أبو مسلم البهلاني مع أبي البقاء الرندي في الدعوة إلى وحدة المسلمين وتآلفهم واجتماعهم على الحق والايمان ليتحقق للأمة ما تصبو اليه من عز ومنعة لتكون قادرة على دفع الأذى عنها ورد كيد المعتدين والخلاص من نير الأجنبي مهما كانت الصورة التي يظهر فيها .

ويتمثل موقف أبي البقاء من دعوته إلى الوحدة ودرء الشقاق ونبذ الخلافات والقطيعة في بيته التالي الذي يخاطب فيه المسلمين :

ماذا التقاطع في الإسلام بينكم   وأنتم يا عباد الله إخوان

بينما يتمثل موقف أبي مسلم في أماكن عديدة من قصيدته منها :

يا للرجال احفظوا أوطان ملتكم   فما لكم بعد خذل الدين أوطان

يا للرجال اندبوا لله غيرتكم   فالوقت قد ضاق والتثبيط خسران

يا للرجال ألا لله منتصر   فناصر الله لا يعلوه خذلان

يا للرجال أروني من شهامتكم   إن الحوادث آساد وسيدان

يا للرجال اجعلوا لله نجدتكم   فالغاية الفتح أو موت ورضوان

و لم يكن أبو البقاء ولا أبو مسلم متميزين في دعوتهما هذه ، فقد شاركا غيرهما من الشعراء الذين هبوا لاستصراخ المسلمين واندفعوا يطالبون بوحدة الصف والتخلي عن الفرقة والقطيعة .

وفي العصر الحديث عندما سقط العالم العربي والإسلامي فريسة في أفواه القوى الكبرى وتفككت أجزاؤه وذل سكانه ورسمت على أراضيه خطوط وهمية سميت بالحدود وأصبحت مقدراته نهباً لأطماع الطامعين من المستعمرين ، عند ذلك تحركت

الغيرة العربية والروح الإسلامية فهب الشعراء في عمان كما في بقية أرجاء الوطن العربي يدعون الى مناصرة القضايا العربية والإسلامية منادين بالوحدة ورد كيد المستعمرين المعتدين .

وتتضح هذه الروح الوطنية لدى أبي مسلم البهلاني في مواقف عديدة إضافة إلى ما ورد في قصيدته النونية دون أن يمنعه وجوده في المهجر العماني في شرق أفريقيا من المشاركات القومية والوطنية .

لقد عرف أثناء وجوده في زنجبار الشيخ محمد عبده وجمال الدين الأفغاني ورياض باشا ، وكان هؤلاء زعماء دعاة الإصلاح في العالم الإسلامي في ذلك الحين ، وبقيت المراسلات والصلات قائمة بينه وبينهم [٣] ثم عقد المؤتمر الإسلامي بالقاهرة على يد رياض باشا (١٨٣٤ – ١٩١١) فاستغل أبو مسلم هذه المناسبة فأرسل قصيدة الى المؤتمر يعتب فيها على أقباط مصر الذين استجابوا في ذلك الحين لدعاة التحريض فعملوا على إذكاء نار الفتنة ضد المسلمين مما تمخض عنه إزهاق للأرواح وقتل للأبرياء. يقول أبو مسلم في قصيدته [٤] :

يا بني الأقباط تلكم مصرنا	أنتم البنك ونحن المقتهر
إن هذا النيل أم حافل	كلنا يرضع منها ويذر
فغدت حافلنا ترضعها	حية أشبه شيء بسقر
رضعتها لبنا ثم دما	واغتبطنا بمشاش ووبر
وهي لا يقنعها ما ترتمي	لاولا يقنعها بلغ الحجر
ذكرتنا بعصا موسى على	أن ذي تلقف أرواح البشر
أن يكن جيش احتلال غركم	فهي أمنية من لا يفتكر
ما يريد الجيش باستقلالكم	بعدما ألقى عصاه واستقر؟!
نيلنا في الغرب يجري ذهباً	وبقينا نترامى في الحفر

كما يتضح اتجاه أبي مسلم الوطني وبخاصة تجاه وطنه العربي الكبير في أماكن أخرى من ديوانه حيث نسمعه في قصيدة أخرى يفتخر فيه بوطنه عمان ويعد بأن يحمل

---

(٣) شعراء عمانيون ٣٢٨ .

(٤) انظر القصيدة في ديوانه ٣٥٣ – ٣٥٦ .

على الاستعمار حتى القيامة وبالتعاون مع الأحرار ، واذا بعمان تصبح عنده معقد الأمل وبؤرة الاندفاع نحو حرية العرب والمسلمين وأنها ستقوم بحقهم لتعيد إليهم مجدهم وترد اليهم حقوقهم [٥] .

تفضل بالزيارة في عمان تجد أفعال أحرار الرجال
تجد ما شئت من مجد وفضل وأحساب عزيزات المثال
تجد من هيبة الإسلام شأنا عليه الكفر مبيض القذال
تجد همم الرجال مصممات بثأر الدين ترخص كل غال

الى أن يقول مخاطباً شعوب العالم العربي :

سنأخذ حقكم ونذود عنكم ذيادا باليمين وبالشمال

أما أبو مسلم فقد بين في رائعة أخرى غير النونية ، وهي المقصورة [٦] . ما فعله أما

واذا كانت صورة المأساة الأندلسية التي أتقن تصويرها أبو البقاء الرندي مبيناً هول الفاجعة التي تعرض لها المسلمون في الأندلس والفظائع التي ارتكبها الإسبان بحقهم فإن أبا مسلم البهلاني قد أتقن بدوره تصوير ما فعله الاستعمار بالعرب وبالمسلمين . يقول أبو البقاء في الحث على نجدة المسلمين في الأندلس وفي بيان المحنة الأندلسية :

ألا نفوس أبيات لها همم أما على الخير أنصار وأعوان
يا من لذلة قوم بعد عزهم أحال حالهم كفر وطغيان
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم عليهم من ثياب الذل ألوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم لهالك الأمر واستهوتك أحزان
يا رب أم وطفل حيل بينهما كما تفرق أرواح وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس اذ طلعت كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب اسلام وإيمان

---

(٥) الديوان .

أما أبو مسلم فقد بين في رائعة أخرى غير الانونية ، وهي المقصورة [٦]. ما فعله المستعمرون بأبناء وطنه وبأبناء ملته من المسلمين فقال :

تحكموا في ملككم ورزقكم ... وكبسوا البئر وقطعوا الرشا
منوا عليكم بغذاء طفلكم ... وحسوة الماء ونفحة الصبا
وأزعجوكم عن ظلال ريفكم ... وليتكم لم تزعجوا عن الفلا
وضايقوكم في بلاد ربكم ... حتى على مدفن ميت في الثرى

إلى أن يقول مبيناً الحالة المخزية التي وصلت اليها الأمة العربية والإسلامية :

أليس عاراً أن تعيش أمة ... مثل اللقى أو غرضاً لمن رمى
يلفنا الخزي إلى أوتاره ... ويحكم النذل علينا ما يرى

أما الحل عند أبي مسلم للخلاص من هذه المأساة فيصوره كما يلي :

ليس لها إلا التفاف قوة ... بقوة ومقتدي بمقتدى
ليس لها إلا نفوس أطفأت ... أضغانها واشعلت فيها التقى
يلمها الإيمان قلبا واحداً ... وهيبة الله وسورة الهدى
إذا رمت بقوسها واحدة ... وما رمت وإنما الله رمى

وهكذا نرى أن أبا مسلم البهلاني شاعر وطنية صادقة من الطراز البديع وشاعر استنهاض من المستوى الرفيع [٧] ، وهو كما قال فيه الشاعر سعيد الصقلاوي في كتابه «شعراء عمانيون» [٨]

(وأبو مسلم بلا منازع شاعر استنهاض وهو عصب شعره ، ويعتبر الشاعر الوحيد في عمان الذي كان همه الاستنهاض والدعوة اليه انطلاقاً من مبادئه الإصلاحية وكان يحث أبناء عمان على نبذ خلافاتهم والترفع عن المهاترات وكان شديد الحرص على مستقبل بلاده . يعذبه واقعها الأليم الذي كانت تحرق فيه ، وتجرح أحاسيسه ومشاعره الأحداث التي فرضت نفسها على وحدة عمان، وكان يبكيه ذلك الانقسام

(٦) أنظرها في ديوانه ٣٣٦ – ٣٥٢.
(٧) الشعر العماني مقوماته واتجاهاته وخصائصه الفنية ٥١ ، ٥٣.
(٨) ص ٣٣٤.

الاجتماعي والفرقة والشقاق بين أبناء الشعب الواحد ، وعدم الانسجام في كيان الأسرة العمانية الواحدة ، وكان الدين دافعه القوي الذي يحرك كامن مشاعره ويشغل فكره بالدعوة إلى الاتحاد والنهوض من السبات العميق الذي كانت تغط فيه).

من هذا المنطلق نستطيع أن ندرك العامل النفسي الكامن وراء تلك المقدمة الطويلة في قصيدته النونية التي تدل على انتمائه الوطني الصادق لوطنه الأم وإيمانه العميق بدينه الحنيف .

إن الشاعر الجيد هو الذي يوجد علاقات وطيدة بين مقدمات قصائده والموضوعات التي يتناولها في هذه القصائد . ويندرج اسم أبي مسلم في لائحة هذا الصنف من الشعراء حيث نجد مقدمات قصائده قد جاءت نابضة بالحياة زاخرة بها . ومن هنا يمكن أن يحكم على القصيدة من مقدمتها لأن صناعة الشعر ليست أمراً هيناً وإنما هي عملية صعبة تحتاج إلى الدربة والدراية والجهد والمكابدة [٩] ، وقد ذكر ابن رشيق القيرواني : (أن عمل الشعر على الحاذق به أشد من نقل الصخر ، وإن الشعر كالبحر أهون ما يكون على الجاهل ، أهول ما يكون على العالم ، وأن أتعب أصحابه قلباً من عرفه حق معرفته) [١٠] .

العلاقة بين المقدمة وموضوع القصيدة عند أبي مسلم وأبي البقاء :

١- بين المقدمة والموضوع عند أبي مسلم :

إن الدارس لنونية أبي مسلم يكاد يسمع من خلال مقدمتها نبضات قلب الشاعر الذي كان يخفق بالشوق والحنين إلى ديار الوطن الأم ومعاهد الصبا في نغمة أسى على أيام وديار ، ومن هنا جاءت مقدمة قصيدته معبرة عن ذاته أجمل تعبير ومصورة للحالة النفسية المؤلمة التي كان يعاني منها في ذلك الحين حينما استثار لواعجه وأشواقه بعده عن وطنه عمان وتذكره لأهله وأحبته وعشيرته وحنينه إلى معاهده ودياره ، وقد صرح بذلك منذ البداية :

إنـي أشـح بـدمـعـي أن يسـح عـلـى ... أرض ومـا هـي لي يـا بـرق أوطـان
هبك استطرت فؤادي فاستطر رمقي ... إلى مـعـاهـد لي فـيـهـن أشـجـان
تـلك المعاهد ما عـهـدي بـهـا انتقلت ... وهـن وسـط ضـميري الآن سـكـان
نـأيت عـنـهـا ولـكـن لا أفـارقـهـا ... بـلـى ، كـم افترقت روح وجـثـمـان؟!

(٩) مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي ١٨٠.
(١٠) العمدة ١ / ١١٧

وهو في بيته الأخير هذا كأنما يتمثل بيت ابن عبد ربه [١١] .

الجسم في بلد والروح في بلد   يا وحشة الروح ، بل يا غربة الجسد !!

إن عاطفة الشوق والحنين عامل مشترك يجمع بين كل الشعراء الذين عانوا من الغربة واكتووا بنارها ، ومن هنا كانت المعاناة دافعاً من دوافع التفوق والإجادة في نظم هذا الموضوع الذي يتخذ من الألم لحمته ومن المعاناة سداه . وهكذا جاءت مشاركة شاعرنا أبي مسلم لغيره من الشعراء الذين جمعتهم رابطة الأسى وألفت بينهم وحدة الموضوع مشاركة تمتاز بالصدق والإخلاص . ومن بين هؤلاء الشعراء الذين شاركهم أبو مسلم في البكاء على الأوطان والديار نذكر الشاعر الصقلي إبن حمديس الذي ناح على وطنه بعد ضياعه فخرج منه وظل يبكيه حتى وافاه الأجل المحتوم فكان من جميل ما قاله في هذا المضمار [١٢] :

ذكرت صقلية والأسى   يهيج للنفس تذكارها
ومنزلة للتصابي خلت   وكان بنو الظرف عمارها
فإن كنت أخرجت من جنة   فإني أحدث أخبارها
ولولا ملوحة ماء البكاء   حسبت دموعي أنهارها

وهناك شاعر أندلسي اخر يكاد يشترك معه أبو مسلم في تذوق معنى الغربة والبعد عن الأوطان وفي المعاناة مما سببه الحرمان فكأنما نطق الأثنان بلسان واحد . هذا الشاعر الأندلس هو ابن عميرة ، وانما ذكرناه في هذا المقام لنبين التشابه الكبير بين بعض أبياته وأبيات أبي مسلم الرواحي في الحنين إلى الوطن .

لقد قضى ابن عميرة معظم حياته خارج مسقط رأسه جزيرة شقر ، تماماً كما فعل أبو مسلم ، وتنقل بين مراكش وتونس وما حواليهما ، لكن ظل يحن الى مسقط رأسه ومرابع صباه فكان يتنسم الأخبار عن الوطن والأحبة وهو مقيم في المغرب ، لكن هذه الأخبار أكدت له استحالة رجوعه الى وطنه الذي سقط في أيدي الإسبان الذين نكلوا بأهله وعبثوا بجماله وأفسدوا خيراته [١٣] فجاء حنينه ناراً مستعرة تتأجج بلهيب البعد والحنين والحرمان . ومما قاله هذا الشاعر في التذكر والحنين الى مسقط رأسه شقر ، وبلدته بلنسيه وكل المدن في شرقي الأندلس [١٤] :

---

(١١) المطرب ١٥٣   (١٢) ديوانه ١٨٣
(١٣) رثاء المدن في الشعر الأندلسي   (١٤) المرجع السابق .

تذكر عهد الشرق والشرق شاسع ... وذاب أسى للبرق والبرق لامع
وأتبع ذكر الجزع أنة موجع ... له أبداً قلب على الجزع جازع
كفى حزناً نأي عن الأهل بعد ما ... نأينا عن الأوطان فهي بلاقع
نوى غربة حتى بمنزل غربة ... لقد صنع البين الذي هو صانع
أحن إلى أرض تقادم عهدها ... ومن دونها أيدي الخطوب الموانع
وكيف بشقر أو برزقة مائة ... وفيه لشقر ، أو لزرق مشارع

وهكذا يصرح هذا الشاعر– ومثله فعل أبو مسلم الرواحي من بعد – أنه يشعر بالغربة حتى وان كان في أوطان عربية وديار إسلامية طالما كان بعيداً عن الوطن الأم والأهل والأحباب . وهكذا جمع بين هؤلاء الشعراء نسب الغربة وشكوى البعد والحنين .

وكما نعرف فإن كل غريب للغريب نسيب ، وقد وصل الحال بأحدهم وهو أسامة ابن منقذ أن ألف كتاباً كاملاً في موضوع الغربة والحنين وسماه (المنازل والديار) إذ لم يكتف بنظم قصيدة أو قصائد كما فعل غيره من الشعراء ، ولذلك كان هذا الكتاب أهم ما وصل الينا عن موضوع الغربة والحنين دون أن يخالطه موضوع آخر ، فكأنما هاج ألم الغربة بالمؤلف فأنساه كل الموضوعات الأخرى ، فهو يصرح بذلك في مقدمة كتابه حيث يقول [١٥] :

(وإلى الله عز وجل أشكو مل لقيت من زماني ، وانفرادي من أهلي وإخواني ، واغترابي عن بلادي وأوطاني).

لقد ذكرت كل تلك الأمثلة لأبين مدى تأثير حالة الحزن والأسى التي سيطرت على شاعرنا أبي مسلم من جراء الغربة والحنين ، فجاءت مقدمة قصيدته خير شاهد على ما كان يشعر به ويحسه في قلبه وروحه

لقد صرح أبو مسلم في مقدمة قصيدته كما صرح ابن عميرة في أبياته السابقة بشوقه لربوعه وتذكره لمعاهده التي تحيا في قلبه وتعيش في وجدانه رافضا السلوان ومنكراً النسيان يعيش في غربته عيش السليم الذي لا يجد الترياق فهو دائم الألم متصل الآهات حتى لقد شف جسمه فصار كالخيال . إنها النوى التي حكم بها القدر ، ولا يغلب القدر المحتوم انسان

تلك المعاهد ما عهدي بها انتقلت ... وهن وسط ضميري الآن سكان
نأيت عنها ولكن لا أفارقها ... بلى ، كم افترقت روح وجثمان

(١٥) فعاليات ومناشط المنتدى الأدبي ، اصدار يونيو ١٩٩١ ، ص ٢٥٩

وكـيـف أنسـى عـهـودي في مسـارحـهـا ... وهـن بين جـنـان الخلـد بـطـنـان ؟!
أم كـيـف يمكـن سـلـواني فضـائـلـهـا ... نـعـم لـدي لـذا السـلـوان سـلـوان ؟!
مـعـاهـد شـاقـنـي مـنـهـا محاسـنـهـا ... إن شـاق غيري آرام وغـزلان
لـهـا عـلـى الـقـلـب مـيـثـاق يـبـوء بـه ... إن بـاء بـالحب في الأوطـان إيمان
كـأنـنـي واغترابـي والـغـرام بـهـا ... حـي قضـى خـلـفـتـه بـعـد أحـزان
هـي الـنـوى جـعـلـتـنـي في محاجـرهـا ... مـثـل الخيـال وروحـي ثـم جـثـمـان
أعـيش في غـربـة عـيش الـسـلـيـم عـلـى ... رغـمـي ولـيس إلى الترياق إمـكـان
يـا بـرق حـرك هـمـومـي إن تـكـن سـكـنـت ... فـكـل حـظـي تحريك واسـكـان

إن هذا الحزن المتمخض عن الغربة والحنين ما هو إلا مرآة تعكس حزن الشاعر العميق لحالة الفرقة التي كانت سائدة في بلاده في ذلك الحين كما تعكس ألمه وأساه لما شاهده في بلده من خلاف ، وهو الوطني الذي صرح بانتمائه وبغيرته وحماسه لجمع شمل الأمة بل الأمة العربية جميعاً . وعندما لم يتمكن من الانتقال بجسمه الى ربوع وطنه الأم، قام برحلة طار فيها من خلال روحه [١٦] ليتحسس بها تلك الأماكن الحبيبة ويزور من خلالها دياره البعيدة القريبة بعد أن برح به الوجد وطار به الحنين، والهوى ضرب من الطيران . لقد حلق به حزنه في أجواء معاهده وفوق ربوع أوطانه ، وهذا يفسر قوة الحركة التي بدأ بها قصيدته حين رسم لوحة رائعة للبرق والمطر واندفاع الماء في السهول والأوعار . إنها الحركة المتوثبة الكامنة في ضلوعه وفي أحشائه :

إن هـيـج البرق ذا شـجـو فـقـد سـهـرت ... عـيـنـي وشـبـت لشـجـو الـنـفـس نيران
وصير البرق جـفـنـي مـن سـحـائـبـه ... يـا بـرق حسـبـك مـا في الأرض ظـمـآن
وهـل ذرى الـقـفـص فـالمقـرآة مـعـشـبـة ... وهـل قـطـين بـعـلـيـا قـاعـر بـانـوا
عـهـدي بـهـا ونضير الـعـيش يصـحـبـهـا ... والـدهـر في غـفـلـة والشـهـب إخـوان
نشـأت فـيـهـا وروضـاتـي ومـرتـبـعـي ... روح الـفـضـيـلـة لا رنـد وريـحـان

(١٦) المرجع السابق

ويتابع بعد عدة أبيات قائلا :

يا ناقل العيس من عليا بدية حيث ... اليحمد الحائزون المجد قحطان
خلّف وراءك عزا والضيرب والدريز ... والقابل الراسي بها الشان
وخل (ابراء أعلاها وأسفلها) ... حيث القطين ملوك الناس قحطان
و(خذ) بأوجهها عن ساحتي (سمد) ... مياسر (الفتح حيث الحي كهلان)
ودع وراءك إن غربت (أخشبة ... تجري المجرة فيها وهي (سدران)
ويامن (الدوح والخضراء منتحيا ... أفناء حلفين حيث السوح جرنان
واعمد إلى (الجوف) واستظهر أسافلها ... أرض لعامر أهل الفضل أوطان
وافرق بها البيد حتى يستبين لها ... (فرق) على بيضة الإسلام عنوان
فان تيامنت الحوراء شاخصة ... لها مع السحب أكناف وأحضان
فحط رحلك عنها انها بلغت ... نزوى وطافت بها للمجد أركان

وهكذا نجد أن نزوى كانت خاتمة المطاف في رحلة الشاعر الوطنية ، كما كانت الأماكن التي سبقتها جسوراً للوصول اليها ، فهي بيضة الاسلام ، ومقر الإمامة وهذا يعلل النفس الطويل في مقدمة القصيدة ويبرر حزن الشاعر وألمه النفسي . ولما كان ذكر المكان يستدعي ذكر ساكنيه ، فإننا نجد الشاعر ينتقل بعد ذلك إلى ذكر الائمة ومدحهم وإظهار مناقبهم ، وبيان الصبغة الدينية التي كانوا بها من عدل وفضل وإنصاف وإحسان :

إنزل فديتك عنها ان حاجتها ... عدل وفضل وإنصاف وإحسان
إنزل فديتك عنها إن وجهتها ... تخت الأئمة مذ كانت ومذ كانوا
إنزل على عرصات كلها قدس ... للحق فيهن أزهار وأفنان
إنزل على عذبات النور حيث حوت ... أئمة الدين بطنان وظهران
حيث الملائكة احتلت مشاهدهم ... لها على الحل والتعريج إدمان

الى أن يقول مبيناً مكانة نزوى في الإسلام :

رست بـهـا هضـبـة الإسـالم مـن حـقب	**وإن قضت بـاسـتـتـار الـعـدل أحـيـان**
قـديمة الـذكـر عـاذ الـديـن عـائـذهـا	**مـن يـوم أصـبـح تـوحـيـد وقـرآن**
قـامت بـهـا قـبـة الإسـلام شـامخة	**حـتـى تـواضـع بـهـرام وكـيـوان**
ولـم تـزل عـرصـة لـلـعـدل عـاصـمـة	**لـلاسـتـقـامـة فـيـهـا الـدهـر سـلـطـان**
كـم أشـهـر الـلـه فـيـهـا مـن حسام هـدى	**كـأنـهـا لـسـيـوف الـلـه أجـفـان**

وتتضح أهمية مقدمة النونية عند أبي مسلم إذا ما عرضنا لنونية أبي البقاء الرندي لنرى كيف يشترك الاثنان في التمهيد للوصول الى الغرض والغاية .

٢- بين المقدمة والموضوع عند أبي البقاء :

إذا كان أبو مسلم البهلاني قد عبر عن حزنه العميق وألمه الدفين بالسهر الدائم وبصورة عينه وهي تسح الدموع التي انهمرت كالمطر الذي أهاج البرق سحائبه ، في مقدمة طويلة تعكس مساحة حزن الشاعر الكبيرة الممتدة من بلاد الغربة إلى الوطن الأم، فعبر عن ذلك بقوله :

إن هـيـج البرق ذا شـجـو فـقـد سـهـرت	**عـيـنـي وشـبت لشـجـو الـنـفس نيران**
وصير البرق جـفـنـي مـن سـحـائـبـه	**يـا بـرق حسـبك مـا في الأرض ظـمـآن**

إذا كان هذا حال أبي مسلم في مقدمته ، فان أبا البقاء الرندي قد لجأ إلى أسلوب آخر للعبير عن حزنه العميق وألمه الدفين للتخفيف عن نفسه الملتاعة المكتظة بمشاعر الحسرة والأسى على ديار من الإسلام خالية ، حينما حلت الحالقة فأتت على كل شيء فلم تبق أركان وخلت من الدين أقطار وبلدان .

لقد ضاعت الأندلس وأصبحت دياراً غريبة عن الجسم الإسلامي فلم يعد يرتفع في أرجائها صوت أذان وتحولت مساجدها إلى كنائس فيها نواقيس وصلبان ، وأي مصيبة بل أي فجيعة أكبر من ضياع الإسلام وديار المسلمين ومع استحالة العزاء والسلون لهذا المصاب العظيم ، فقد لجأ أبو البقاء الرندي في مقدمة نونيته إلى إستخلاص العبرة والعظة من أحداث التاريخ فضرب المثل بالممالك الزائلة والملوك العظام الذين بادوا متسائلاً عن مصيرهم ومصير ممالكهم وما آل اليه حالهم ليخلص في النهاية إلى حقيقة مؤداها أن الكل الى زوال وأن الجميع سيرحلون مهما امتد بهم

الأجل وطالت أعمارهم وعظمت سطوتهم واتسع ملكهم ، فكأن أبا البقاء يحاول أن يجد العزاء لنفسه وللمسلمين بقوله إن كل أمر اذا ما تم سيصيبه النقصان لأن الأيام دول ، ومن سره زمن ساءته أزمان . هذا هو التاريخ يشهد على ذلك وها هي أحداثه تقدم البراهين ، واذا كان هذا هو حال الأيام التي لا تديم سروراً ، وهذا هو الدهر الذي لا يبالي برضى أحد فان ما حل بالأندلس هو أمر حتمي ونتيجة طبيعية للإيذان بالزوال بعد البلوغ والكمال . ومن هنا كانت مقدمة أبي البقاء في نونيته صورة منطقية لدوران عجلة التاريخ وحوادث الأيام . ويصرح الشاعر بذلك في مقدمته بدءاً من أول بيت فيها (١٧) :

لكل شيء اذا ما تم نقصان	فلا يغر بطيب العيش انسان
هي الأمور كما شاهدتها دول	من سره زمن ساءته أزمان
وهذه الدار لا تبقي على أحد	ولا يدوم على حال لها شان
يمزق الدهر حتما كل سابغة	اذا نبت مشرفيات وخرصان

هكذا جاء مطلع القصيدة حكمة عامة أو مجموعة من أشعار الحكمة استخلصها من عبر التاريخ فكان الإطار اطاراً عاماً انتقل بعده الشاعر من العام الى الخاص (١٨) ليحدد الزمان والمكان . أما في اطاره العام فيسير أبو البقاء مع أحداث التاريخ ليتخذها مجالاً لاستخلاص العبرة والعظات :

أين الملوك ذوي التيجان من يمن	وأين منهم أكاليل وتيجان؟!
وأين ما شاده شداد في إرم	وأين ما ساسه الفرس ساسان؟!
وأين ما حازه قارون من ذهب	وأين عاد وشداد وقحطان؟!
أتى على الكل أمر لا مرد له	حتى قضوا فكأن القوم ما كانوا
وصار ما كان من ملك ومن ملك	كما حكى عن خيال الطيف وسنان
دار الزمان على دارا وقاتله	وأم كسرى فما آواه إيوان
كأنما الصعب لم يسهل له سبب	يوماً ولا ملك الدنيا سليمان
فجائع الدهر أنواع منوعة	وللزمان مسرات وأحزان
وللحوادث سلوان يسهلها	وما لما حل بالإسلام سلوان

(١٧) نفح الطيب ٦/٢٧٩

(١٨) ملامح الشعر الأندلسي ٣١٣

وهكذا نرى أن هذا التمهيد مرتبط ارتباطاً عضوياً بموضوع القصيدة والغرض الذي نظمت من أجله ، وقد رأينا كيف أتى أبو مسلم البهلاني بمقدمة وتمهيد للوصول إلى الغرض الرئيس من نونيته ، فكانت مقدمته أيضاً مرتبطة ارتباطاً عضوياً ومنطقياً بما تلاها من أغراض .

بعد ذلك ينتقل أبو البقاء من العام إلى الخاص فحدد الزمان والمكان واصفاً ما حل ببلاد الأندلس من محنة وبلاء ذاكراً البلاد المنكوبة التي سقطت في أيدي الفرنجة (فيعددها واحدة واحدة شأن من يفقد أعزة عليه فيسميهم بأعينهم ويعرب عن فجيعته بهم . وأبو البقاء يحرص حرص أمثاله من الشعراء في هذا الصدد على إبراز التضاد بين ما كانت البلاد عليه وما آلت اليه) [19] :

دهى الجزيرة أمر لا عزاء له	هوى له أحد وانهد ثهلان
أصابها العين في الإسلام فارتزأت	حتى خلت منه أقطار وبلدان
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية	وأين شاطبة أم أين جيان؟
وأين قرطبة دار العلوم فكم	من عالم قد سما فيها له شان؟
وأين حمص وما تحويه من نزه	ونهرها العذب فياض وملآن؟
قواعد كن أركان البلاد فما	عسى البقاء اذا لم تبق أركان

كما يلجأ أبو البقاء الى الاستنفار والاستنهاض عله يحرك نخوة المسلمين فيستغضبهم ويستنهضهم لعلهم يصحون من سباتهم ويتخلون عن تقاعسهم وهو في كل ذلك يلجأ الى تذكيرهم بالرابطة الإسلامية التي تربطهم بإخوانهم الأندلسيين وبالأخوة الدينية التي تؤلف بين قلوبهم مصوراً الحالة التي آل اليها الإسلام والمسلمون في تلك الديار فلجأ كي يحقق هذا الغرض إلى رسم لوحة معبرة للمصيبة التي لا تنسى لقد نجح الشاعر في عمله الفني فجاءت الصورة مجسمة لهول الفجيعة وفداحة الخطب واذا بالمصيبة تبدو شاكية باكية :

تبكي الحنيفية البيضاء من أسف	كما بكى لفراق الإلف هيمان
على ديار من الاسلام خالية	قد أقفرت ولها بالكفر عمران

(١٩) المرجع السابق ٣١٣ – ٣١٤.

حيث المساجد قد صارت كنائس ما	فيهن الا نواقيس وصلبان
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة	حتى المنابر ترثي وهي عيدان
يا غافلاً وله في الدهر موعظة	إن كنت في سنة فالدهر يقظان
وماشياً مرحاً يلهيه موطنه	أبعد حمص[٢٠] تغر المرء أوطان ؟!
تلك المصيبة أنست ما تقدمها	وما لها مع طول الدهر نسيان

أما صورة الإستنهاض عند أبي البقاء فتظهر بطريقة أوضح عند بيان صورة الاستنهاض عند أبي مسلم من خلال الحديث عن بعض الجوانب الفنية في نونيته.

جوانب فنية في نونية أبي مسلم :

مما لا شك فيه أن أبا مسلم قد جمع لقصيدته النونية كل من عوامل النجاح والتفوق من عناصر الفن ومقومات الصناعة الشعرية فجاءت متكاملة الجوانب حينما صيغت بقوالب الشاعرية المتدفقة التي اتخذت من الإدراك والمهارة مجالاً خصباً للإجادة والامتياز . وقد كان نجاح الشاعر عظيماً في عمله وأدائه ، ولا أدل على ذلك من تلك الشهرة التي حظيت بها هذه النونية والمكانة المرموقة التي نالتها في ديوانه حتى ليمكن تسميتها بـ «يتيمة أبي مسلم» . وقد تناقلتها الألسنة فطربت لها الآذان وسارت بها الركبان إلى خارج أرض عمان مما جعل صاحب شقائق النعمان يقول عنه[٢١] (كما انه نبغ في الشعر وفاق فيه على أقرانه ، وهذا الشيخ هو ثالث الثلاثة المترجم عنهم أنهم أعلم الشعراء وأشعر العلماء ، وقد سار الصيت بقصائده مسير الشمس ولو لم يكن من شعره إلا النونية والمقصورة لكانت بهما كفاية وغنى) .

إن أول ما يميز نونية أبي مسلم هو الصدق الفني حيث عبر عن عواطفه ومشاعره بصورة هي أصدق ما تكون ، ومرد ذلك يرجع إلى إحساس الشاعر وإيمانه بما يقول وبما تمليه عليه التزاماته الوطنية والدينية . فأبو مسلم شاعر وطني مسلم رفع لواء الوطنية عالياً وحمل مشعل الإسلام ونادى بوحدة المسلمين وطالب بنبذ الفرقة والخلاف . وإذا كان الصدق والإخلاص نابعين من نفس الشاعر الذي يؤمن بقضية ومبدأ ، كان عمله الشعري أكثر نجاحاً وأشد تأثيراً ، وهذا ما نجده في شعر شاعرنا أبي مسلم الذي آمن بوحدة الأمتين العربية والاسلامية واتخذها قضية حشد لها كل الزخم الفني الذي

---

(٢٠) المقصود بحمص هنا مدينة إشبيلية.

(٢١) ٣٤٧/٢.

انعكس في قصائده الوطنية ومنها النونية التي نحن بصددها.
لقد كان أبو مسلم ينتمي إلى جماعة الشعر الديني والوطني ممن نادوا بتحرير الوطن العربي الأمة العربية من النفوذ الاستعمارس .
ومن هنا اءت قصائده الوطنيه والدينية تحمل طابع الاستنهاض وكان لها وقع بالغ الأثر على النفوس. ولتحقيق هذا الهدف ، كان لا بد من الالتفات إلى المصائب الوطنية والدينية التي ابتلي بها العالمان العربي والإسلامي وأخذ العبرة منها ومحاولة (محاكاة النماذج الأصلية في الأدب العربي) [٢٢]. ومن هنا جاءت هذه النونية محاكاة لنونية أبي البقاء الرندي .
لقد نجح الشاعر منذ البداية في حشد كل العناصر الفنية لنجاح عمله من جزالة في الأسلوب وقوة في اللغة إلى إيقاع ورنين في القافية ثم طول نفس من غير ضعف أو تقصير . حيث لجأ أبو مسلم الى توظيف كل هذه الأمور الفنية بدءاً من مطلع القصيدة حينما قام بتوظيف المعاني والمفردات توظيفاً فنياً دقيقاً ليرسم لنا صورة متحركة تعكس الحركة الثائرة في داخل نفسه .

تلك البوارق حاديهن مرنان	**فما لطرفك يا ذا الشجو وسنان**
شجت صوارمها الأرجاء واهترعت	**تزجي خميساً له في الجو ميدان**
تبجست بهزيم الودق منبثقاً	**حتى تساوت به أكم وقيعان**
سقى الشواجن من رضوى وغص به	**سر وجوف وغصت منه جرنان**
وجلل السهل والأوعار معتمداً	**ربوع ما ضم عندام وجعلان**

إن هذه الصورة الجميلة التي رسمها الشاعر تفيض بالحركة النابضة التي تعكس الحركة الداخلية في نفس الشاعر ، ونلاحظ هذه الحركة في البروق التي تصبح ركباً متحركاً يسوقه حاد يغني بصوت كله رنين ، والبرق يتبعه الرعد فإذا أرجاء الكون تهتز ويصبح الجو ميداناً فسيحاً لجيوش البروق والرعود المتمثلة بالأمطار الغزيرة التي لا تلبث أن تداهم الأرض فتغمرها وتغطيها في السهول والأوعار .
لقد عمد الشاعر إلى أن يفجأ سامعيه بصورة متحركة تشع قوة وتمتلئ حيوية فتتحرك حواسهم ونفوسهم للمتابعة والاستمرار ليتمكن من نقلهم إلى صورة أخرى من مشاهد

(٢٢)الشعر العماني–مقوماته واتجاهاته وخصائصه الفنية .

قصيدته ، ويلاحظ أن مقدمة أبي مسلم هذه هي أشبه ما تكون بمقدمات القصائد الجاهلية من حيث الأسلوب واستخدام المفردات . وليست هذه هي المقدمة الوحيدة في ديوانه التي يأتي فيها الشاعر بمقدمة تشبه من حيث الشكل مقدمات الجاهليين ، وانما نلحظ ذلك في مقدمة ميميته المشهورة [٢٣] :

معاهد تذكاري سقتك الغمائم	ملثاً متى يقلع تلته سواجم

فالمطلع هنا شبيه بمطالع الجاهليين في الوقوف على الأطلال والدعاء بالسقيا للأحبة والديار . ويتضح هذا الأسلوب في الأبيات التالية للمطلع :

تعاهدك الأنواء سح انبعاقه	فسوحك خضر والوهاد خضارم
إذا أجفلت وطفاء حن حنينها	على فنن الأوعار وطف روازم
ولا برحت تلك الرياض نواضراً	تضمخها طيب السلام النسائم
تصافحها بالزاكيات أكفها	فيحسب فيها والرياض تراجم
معاهد شط البعد بيني وبينها	وحل بقلبي برحها المتقادم
تزاحم في روعي لها شوق واله	وصبر وآن الصبر أن لا يزاحموا
اذا لاح برق سابقته مدامعي	وليت انطفاء البرق للغرب عاصم
لئن خانني دهري بشحط معاهدي	فقلبي برغم الشحط فيهن هائم
وإن هيام القلب فيها وقد نأت	وسائل في شرع الهوى ولوازم
فيالفؤادي ما التباريح والجوى	فعلن إذا ازدادت عليه اللوائم
على أن ذكر النفس عهداً ومعهداً	أمض بها مما تمج الأراقم

ويلاحظ في هذه الأبيات أن أبا مسلم قد رسم لوحة أخرى تنبض بالحيوية شبيهة بتلك التي رسمها في مقدمة نونيته مع ذكر الجزئيات نفسها المتعلقة بحركة البرق في السماء وما تؤذن به هذه الحركة من انهمار للمطر فتسبقه مآقي الشاعر لتذرف الدموع حزناً على اغترابه عن معاهده وتعبيراً عن هيامه بالديار وساكنيها ، لأن ذكر العهد الجميل في المعهد الجميل بعد نأي وانقطاع يخلف وراءه ألماً وأسى أمض مما تمجه الأفاعي من سموم .

---

(٢٣) ديوانه ٣١٦ .

ومن ناحية أخرى فإن أسلوب الشاعر في مدح الأئمة وما أسبغه عليهم من صفات دينية تتمثل في التقوى والتهجد في الليل وفي عدلهم واستقامتهم وغناهم بالتعفف عن كل ما هو دنيوي زائل شبيه بأسلوب أبي حمزة الشاري في خطبته بأهل المدينة حينما ذكر أصحابه فأثنى عليهم وامتدحهم بما يتصفون به من ابتعاد عن الشر وإحجام عن الباطل فقد باعوا الدنيا الفانية واشتروا بها الآخرة الباقية فقد كانت صلتهم بالله – تعالى – هي شغلهم الشاغل فصدقوا ما عاهدوا الله عليه فكانوا موفين بعهده منجزين لوعده فقال فيهم مصوراً إيمانهم وتقواهم (٢٤) :

(شباب والله مكتهلون في شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة وأطلاح سهر ، باعوا أنفساً تموت غداً بأنفس لا تموت أبداً ، قد نظر الله اليهم في جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مر أحدهم بآية من ذكر الجنة بكى شوقاً اليها ، واذا مر بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه ، قد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وأيديهم ووصلوا كلال الليل بكلال النهار ، مصفرة ألوانهم ، ناحلة أجسامهم من طول القيام وكثرة الصيام ، مستقلون لذلك في جنب الله موفون بعهد الله منجزون لوعد الله) . هذه هي صورة أصحاب أبي حمزة التي تعتبر صورة مثالية لشباب الإسلام .

أما أبو مسلم فقد سار على المنهج نفسه في بيان صفات الأئمة الذين وصفهم بأنهم أواهون زهاد وهم هداة همهم حفظ الدين يتسابقون إلى الباقيات الصالحات يسيرون بسيرة العمرين ، وقد جردوا أنفسهم لنصرة الله وقدموا أرواحهم ثمناً لهذا النصر ، وهم يتسابقون إلى الخيرات تهديهم اليها السنة الشريفة ، لم تشغلهم الدنيا بمتاعها فباعوها لأنها فانية طلباً للدار الباقية ، ثم ذكر أنهم يقيمون حدود الله في حكمهم قبل أن يقول فيهم ما قاله أبو حمزة الشاري في أصحابه حين ذكر قيامهم في الليل وتهجدهم حتى أنحلهم هذا القيام فأصبحوا مثل الخيال . حيث جاءت الصورة معبرة عن التفاصيل (٢٥) :

أئمة حفظ الدين الحنيف بهم	من يوم قيل لدين الله أديان
صيد سراة أباة الضيم أسد شرى	شمس العزائم أواهون رهبان
سفن النجاة هداة الناس قادتهم	طهر السرائر للإسلام حيطان

(٢٤) جمهرة خطب العرب ٢/٤٧٥ .

(٢٥) الديوان ٣٠٢-٣٠٣ .

تقيلوا مدح القرآن أجمعها ... اذا استحق مديح الله إيمان
على الحنيفية الزهراء سيرهم ... والوجه والقصد إيمان وإحسان
بسيرة العمرين استلأموا وسطوا ... لشربة النهروان الكل عطشان
مسومين لنصر الله أنفسهم ... أرواحهم في سبيل الله قربان
سيماهم النور في خلق وفي خلق ... وهديهم سنة بيضاء تبيان
لم تلههم زهرة الدنيا وزخرفها ... إذ همهم صالح يتلوه رضوان
باعوا بباقية الرضوان فانيهم ... كأن لذة هذا العيش أوثان
ما زايلت خطوة المختار خطوتهم ... ولا ثنى عزمهم نفس وشيطان
فجاهدوا واستقاموا في طريقته ... عزومهم لصروح الدين أركان
وسلطوا بحدود الله حكمهم ... حتى استقام لحكم الله سلطان
لله ما جمعوا لله ما تركوا ... لله إن قربوا لله إن بانوا

وهكذا نرى التشابه في الصورتين عند أبي حمزة الشاري وأبي مسلم البهلاني . ولا غرابة في هذا فقد كان كل منهما ينطق بلسان العقيدة والايمان ويحمل لواء التأييد للدعوةالتي ينادي بها .

إن الصورة التي رسمها أبو مسلم لأئمة عمان تحمل أطيافاً من صورة الصحابة الذين امتدحهم كعب بن زهير في لاميته المشهورة (٢٦)

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول ... متيم إثرها لم يفد مكبول

وقد استلهم أبو مسلم هذه الأطياف وقام بصبغ لوته ببعض ألوانع . يقول كعب :

إن الرسول لنور يستضاء به ... مهند من سيوف الله مسلول
في عصبة من قريش قال قائلهم ... ببطن مكة لما أسلموا زولوا
زالوا فما زال أنكاس ولا كشف ... عند اللقاء ولا ميل معازيل
لا يفرحون اذا نالت رماحهم ... قوماً وليسوا مجازيعاً اذا نيلوا

---

(٢٦) أنظر القصيدة في ديوانه ٦ وفي مجاني الأدب ٢/١١-١٦.

أما صورة تأييد أبي مسلم للإمامة وإظهار حبه لأئمته فقد جاءت بأسلوب صريح أعلن فيه حبه وتأييده للأئمة والإمامة في عمان مصرحاً بقوة بهذا التأييد معلناً أنهم أنوار الهدى وأن محبتهم فرض واجب يعقبها عفو وغفران من الله تعالى – وهم المستغاث بهم في الضيق والضياع ، كما لا يصح إيمان امرىء إلا باتباعهم ولا يستقيم هداه إلا أن يدين بما دانوا به (٢٧) :

أولئك القوم أنواري هديت بهم ... عقبى محبتهم عفو وغفران
أئمتي عمدتي ديني محجتهم ... غوثي إذا ضاق بي في الكون إمكان
لا يقبل الله دينا غير دينهم ... ولا يصح الهدى إلا بما دانوا
من عهد بدر وأحد لا تزعزهم ... عن موقف الحق أزمات وأزمان
حقيقة الحق ما دانوا به وأتوا ... وما عداه أخاليط وخمان
إن يشرف الناس في الدنيا بثروتهم ... فثروة القوم إخلاص وإيقان
هم الإباضية الزهر الكرام لهم ... بعزة الله فوق الخلق سلطان

إن هذا الإعلان المؤيد للإمامة والتصريح العلني بإظهار الحب والتأييد للأئمة في عمان يحمل في طياتها نغمة هي أقرب ما تكون من نغمة الشعر الذي قيل في حب آل البيت ، وكأنما أعجب أبو مسلم بأسلوب الفرزدق في مديحه لآل البيت وحبه لهم ، فقد صرح الفرزدق من قبل بحبه وتأييده لآل النبي – عليه الصلاة والسلام – في قصيدة أنشدها أمام هشام بن عبد الملك ومطلعها (٢٨) :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم

إن الذي يجعل الدارس يقرب من مرحلة تأكيد تأثر أبي مسلم بالفرزدق هو تشابه الصورتين عند كل منهما ، فقد جاء أبو مسلم بصورة قريبة جداً من صورة الفرزدق التي أعلن فيها حبه وتأييده لآل البيت حتى أننا نجد مفردات بعينها وردت عند أبي مسلم كان الفرزدق قد وظفها في قصيدته ، ناهيك عن المعاني التي اشتملت عليها الأبيات والتي يتضح من خلالها تأثر أبي مسلم بأبيات الفرزدق التالية في مدح زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب ومدح آل البيت (٢٩)

(٢٧) الديوان ٣٠٣.

(٢٨) انظر القصيدة في ديوانه ٢/١٧٨/١٨١.

(٢٩) المرجع السابق.

هذا ابن خير عباد الله كلهم | هذا التقي النقي الطاهر العلم
سهل الخليقة لا تخشى بوادره | يزينه اثنان : حسن الخلق والشيم
حمال أثقال أقوام إذا افتدحوا | حلو الشمائل تحلو عنده نعم
إذا رأته قريش قال قائلها | إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
يغضي حياء ويغضى من مهابته | فما يكلم إلا حين يبتسم
الله شرفه قدما وعظمه | جرى بذاك له في لوحه القلم
من يشكر الله يشكر أولية ذا | فالدين من بيت هذا ناله الأمم
مشتقة من رسول الله نبعته | طابت مغارسه والخيم والشيم

بعد هذا المديح الذي زين به الفرزدق جيد زين العابدين ينتقل إلى ذكر آل البيتمادحاً إياهم منادياً بحبهم معلناً تأييده لهم ، ونلحظ التشابه بين مديح الفرزدق لآل البيت ومديح أبي مسلم البهلاني للأئمة الإباضيين الذين أعلن ولاءه وتأييده لهم . يقول الفرزدق :

من معشر حبهم دين ، وبغضهم | كفر ، وقربهم منجى ومعتصم
مقدم بعد ذكر الله ذكرهم | في كل بدء ومختوم به الكلم
إن عد أهل التقى كانوا أئمتهم | أو قيل : «من خير أهل الأرض؟» قيل : هم
هم الغيوث إذا ما أزمة أزمت | والأسد أسد الشرى والبأس محتدم
يستدفع الشر والبلوى بحبهم | ويسترب به الإحسان والنعم

إن أسلوب أبي مسلم في هذا المجال والذي يشبه أسلوب الفرزدق إلى حد ما يدل على أن أبا مسلم قد أوتى حظاً كبيراً من الاطلاع على التراث الأدبي لكبار الشعراء في مختلف عصورهم فتمثله ووظفه توظيفاً فنياً رائعاً في سبيل نجاح عمله الشعري .

أما أسلوب أبي مسلم في النداء الوطني والاستنهاض ، فشبيه بأسلوب أبي البقاء الرندي الذي لجأ الى مناداة المسلمين وإستنفار فرسانهم المسلحين بالسيوف المرهفة لكنهم يرتعون في أوطانهم في دعة وأمان لا تحركهم نخوة إسلامية ولا رابطة دينية وكأن القضية لا تعنيهم من قريب ولا من بعيد .

والرندي عندما يجسم ويشخص المصيبة الهائلة التي حلت بالأندلس المسلمة وبأهلها من المسلمين إنما يحاول أن يثير في المسلمين روح الجهاد مؤكداً حقيقة الرابطة الدينية التي تؤلف بين المسلمين والتي هي أقوى من أية رابطة أخرى ولذلك جاءت أبياته في نونيته تحمل نغماً من التقريع والسخرية من أولئك المتقاعسين الذين لم يهبوا لنجدة إخوانهم الأندلسيين الذين عظمت مصيبتهم في دينهم وأوطانهم ، هذه المصيبة التي سارت بحديثها الركبان . ونلحظ هذا الأسلوب المتضمن للتقريع والتوبيخ عند أبي مسلم حينما يستنهض المسلمين للدفاع عن الحق والذود عن حمى الإسلام . يقول أبو البقاء [٣٠] :

يا راكبين عتاق الخيل ضامرة	**كأنها في مجال السبق عقبان**
وحاملين سيوف الهند مرهفة	**كأنها في ظلام النقع نيران**
وراتعين وراء البحر في دعة	**لهم بأوطانهم عز وسلطان**
أعندكم نبأ عن أهل أندلس	**فقد سرى بحديث القوم ركبان؟!**
كم يستغيث بنا المستضعفون وهم	**قتلى وأسرى فما يهتز إنسان!!**
ماذا التقاطع في الإسلام بينكم	**وأنتم يا عباد الله إخوان**
ألا نفوس أبيات لها همم	**أما على الخير أنصار وأعوان**

ويستمر أبو البقاء في محاولته الاستنهاضية لذلك يلجأ إلى تصوير جوانب من الفاجعة التي حلت بالمسلمين الأندلسيين الذين ذلوا بعد عز وهانوا بعد رفعة فأصبحوا رقيقاً يباعون في سوق النخاسة ، كما تفرق شملهم فحيل بين الابن وأبيه وبين الطفل وأمه ، وانتهكت أعراضهم واغتصبت نساؤهم ، وهم في كل هذا لا حول لهم ولا قوة ، عاجزون عن رد الأذى عن أنفسهم وأوطانهم ، أما الطامة الكبرى فتمثلت في اكرامهم على التنصر بعد أن كانوا مسلمين ، وهكذا كانت المصيبة حالقة للدين لم تبق ولم تذر .

وأبو البقاء في تصويره هذا يحاول في صرخة استغاثة أخيرة أن يستنهض المسلمين ويحرك نخوتهم الإسلامية وروح الجهاد في نفوسهم إن كانت هناك نخوة إسلامية أو روح جهاد ، يقول أبو البقاء مصوراً واقع المأساة الأندلسية :

---

(٣٠) نفح الطيب ٦ / ٢٨٠ – ٨١

يا من لذلة قوم بعد عزهم ... أحال حالهم كفر وطغيان!!
بالأمس كانوا ملوكاً في منازلهم ... واليوم هم في بلاد الكفر عبدان
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم ... عليهم من ثياب الذل ألوان
ولو رأيت بكاهم عند بيعهم ... لهالك الأمر واستهوتك أحزان
يا رب أم وطفل حيل بينهما ... كما تفرق أرواح وأبدان
وطفلة مثل حسن الشمس اذ طلعت ... كأنما هي ياقوت ومرجان
يقودها العلج للمكروه مكرهة ... والعين باكية والقلب حيران
لمثل هذا يذوب القلب من كمد ... إن كان في القلب إسلام وإيمان

لا شك أن هذه الصورة الحية المؤلمة للمأساة الأندلسية قد كانت في خواطر شاعرنا أبي مسلم البهلاني حينما نظم نونيته ، فأضافت إلى نفسه الحزينة بعداً جديداً من أبعاد الألم النفسي عبر عنه خير تعبير بأساليب شتى امتدت على مساحة قصيدته الطويلة .

إن هذا الأسلوب من أساليب الاستنهاض الذي استخدمه أبو البقاء قد راق لأبي مسلم فنهج الطريقة نفسها لما تفيده من قوة وتأثير ولما تفيده ياء النداء في هذا المقام من معنى الاستغاثه وطلب النجدة والتلبية .

وأبو مسلم كأبي البقاء يحاول في أسلوبه هذا أن يحث الرجال على الجهاد وأن يحفظوا أوطانهم ودينهم حيث لا وطن يبقى بعد ضياع الدين ، وهذا معنى مستمد من معاني أبي البقاء الرندي . كما يطلب أبو مسلم في استنهاضه للقوم أن يحفظوا مجدهم ويحركوا شهامتهم وغيرتهم على الدين فينتصروا لله ويهبوا بعد سبات وتخاذل ، كما حاول أن يرسم لهم صورة مؤثرة لونها بأصوات الأرامل والأيتام متخذاً من دماء المسلمين أساساً لها ، وهي صورة قريبة من صورة أبي البقاء التي رسم فيها حال المسلمين الأندلسيين والمأساة الأندلسية . يقول أبو مسلم :

يا للرجال وداعي الله بينكم ... لبوا الدعاء فان الصوت قرآن
يا للرجال ألم يأن الجهاد لكم ... بلى لقد فات إبان وإبان
يا للرجال أقيموا وزن قسطكم ... فما لكم قبل وزن القسط ميزان
يا للرجال احفظوا أوطان ملتكم ... فما لكم بعد خذل الدين أوطان
يا للرجال احفظوا أحساب مجدكم ... إن لم تكن فيكم للدين أشجان

يا للرجال أندبوا لله غيرتكم ... فالوقت قد ضاق والتثبيط خسران !
يا للرجال ألا لله منتصر ... فناصر الله لا يعروه خذلان !
يا للرجال أروني من شهامتكم ... إن الحوادث آساد وسيدان!
يا للرجال اجعلوا لله نجدتكم ... فالغاية الفتح أو موت ورضوان !
يا للرجال ألم يحزنكم زمن ... طار البغاث به وانحط عقبان !
يا للرجال ألم يدهش عقولكم ... صوت الأرامل والأيتام إذ هانوا !
هذا اليتيم قد انحازت مفاصله ... من جلبة الجوع والظلام تخمان
يا للرجال بيوت الله قد هدمت ... وما لها للعدا نهب وحلوان !
يا للرجال دماء المسلمين غدت ... هدراً كما عبثت بالماء صبيان !

إن هذا الأسلوب من أساليب الاستثارة والاستنهاض المتمثل باستخدام (الياء) كأداة للنداء ، قد كرره أبو مسلم في نونيته ولكن باستخدام أداة الاستفهام (أين) التي استخدمها أبو البقاء الرندي في نونيته كاستفهام يفيد العبرة والعظة في قسم من قصيدته بينما يفيد التحسر والتفجع في قسم آخر . ففي استخدام هذه الأداة للإفادة من العظات والصبر يقول أبو البقاء (٣١) :

أين الملوك ذوو التيجان من يمن ... وأين منهم أكاليل وتيجان ؟!
وأين ما شاده شداد في إرم ... وأين ما ساسه في الفرس ساسان ؟!
وأين ما حازه قارون من ذهب ... وأين عاد وشداد وقحطان ؟!

أما استخدامها لتفيد الحسرة والتوجع والتفجع فنجدها في أبياته التي يرثي فيها مدن الأندلس الضائعة بنغمة باكية كلها ألم وأنين (٣٢) :

فاسأل بلنسية ما شأن مرسية ... وأين شاطبة أم أين جيان ؟!
وأين قرطبة دار العلوم فكم ... من عالم قد سما فيها له شان ؟!
وأين حمص وما تحويه من نزه ... ونهرها العذب فياض وملآن ؟!

---

(٣١) نفح الطيب ٦/٢٧٩

(٣٢) المرجع السابق ٦/٢٨٠

وهكذا نجد أن الشاعر قد أفاد باستخدامه هذا من معنى الآية القرآنية الكريمة **(فهل ترى لهم من باقية)** (٣٣) .

أما عند أبي مسلم فقد جاء استخدام (أين) بمعنى مختلف تماماً حيث أفادت استثارة همم الرجال واستنهاض القبائل والدعوة للذود عن حمى الاسلام ونصرة الدين . يقول أبو مسلم (٣٤) .

فأين أين ذئاب الدو حمتها	**بنو تمام ومن ربته جعلان ؟!**
وأين عنها الجنيبيون إنهم	**سعد العشيرة عليا مذحج كانوا ؟!**
وأين راسب سيف الأزد إنهم	**سارت بصيتهم في الأرض ركبان ؟!**
وأين أهل الذمار الهشم بحرهم	**بالمجد والفضل فياض وملآن ؟!**
وأين أولاد عيسى والحفاظ لهم	**نجد ضراغم أوابون رهبان ؟!**
وأين يحمدها الحرث الكرام ففي	**عزائم القوم جنات ونيران ؟!**

ويستمر أبو مسلم في هذا الأسلوب من أساليب الاستنهاض ليصل عدد أبيات قصيدته التي استثار فيها القبائل والأحياء إلى ثمانية وثلاثين بيتاً وهي نسبة تقرب من عشرة في المائة من مجموع أبيات القصيدة ، وهذا يدل على مدى تغلغل الروح الوطنية والدينية في نفس الشاعر .

ولا بد من الإشارة هنا الى أن هذه الأبيات من القصيدة تعتبر سجلاً خالداً لأسماء القبائل والأحياء العمانية ببطونها وأفخاذها .

وإذا كان أبو البقاء الرندي قد لجأ الى أسلوب تعنيف المسلمين لتخاذلهم وتقصيرهم تجاه اخوانهم في الأندلس واتخذ من أسلوب تصوير المأساة الأندلسية وسيلة لتحريك الهمم وبث روح الجهاد ، فان أبا مسلم قد لجأ الى الأسلوب المباشر في المناداة واستثارة الهمم للدفاع عن دين الله وديار الإسلام والذود عن الحنيفية البيضاء (٣٥) :

كتائب الله ذودوا عنه حياضكم	**كي لا يهدمها بغي وكفران**
كتائب اله حاموا عن حنيفتكم	**قد لوثتها خنازير وصلبان**
كتائب الله دين الله في طلق	**والمشرفيات في الإيمان طلقان**
كتائب الله أدعوكم الى شرف	**عقباه إن تصدق النيات رضوان**

---

(٣٣) القرآن الكريم ، الحاقة ٨.

(٣٤) الديوان ٣٠٨-٣١١ .   (٣٥) الديوان ٢١٢.

ويلاحظ أن أبا مسلم قد وظف في استثارته للحمية الدينية عبارات نجد مثيلاً لها في نونية أبي البقاء . فعلى سبيل المثال يقول أبو البقاء في تقريع المسلمين وتذكيرهم بالمصاب الإسلامي الأندلسي :

أعندكم نبأ من أهل أندلس فقد سرى بحديث القوم ركبان ؟!

أما أبو مسلم فيقول :

وأين راسب سيف الأزد إنهم سارت بصيتهم في الأرض ركبان ؟!

وفي بيت آخر يقول أبو البقاء في الحسرة على ضياع مدينة إشبيلية

وأين حمص وما تحويه من نزه ونهرها العذب فياض وملآن ؟!

أما أبو مسلم فيقول :

وأين أهل الذمار الهشم بحرهم بالمجد والفضل فياض وملآن ؟!

لقد جاء أسلوب أبي مسلم في نونيته متسماً بالقوة التي تغلب على كل أشعاره الوطنية وبالفخامة والجزالة في الألفاظ التي كانت تنقاد له بيسر وسهولة دون عناء ولا أدل على هذه الجزالة والفخامة من استخدامه لألفاظ تتناسب مع المعنى الذي يضمنه أبياته حتى نجح في نقل سامعيه إلى جوه الذي حلق فيه وصب في آذانهم ايقاعات موسيقية مؤثرة تعكس الحالة النفسية للشاعر وتصور مدى الانفعال النفسي الذي كان يعتمل بداخله من حزن على ما كان بين المسلمين من فرقة وتنافر .

أما **القافية** في هذه القصيدة والتي تنتهي بالألف والنون ، فقد اتخذ أبو مسلم من نونية أبي البقاء مثالاً حياً انتهجه كجانب مؤثر وفعال من جوانب القصيدة الفنية التي جمعت بين الحركة والإيقاع والعناصر الموسيقية الداخلية التي تعكس المشاعر المتأججة في نفس الشاعر القلقة المتألمة .

إن العلاقة بين بحر القصيدة التي نظمت وبين موضوعها علاقة وطيدة ذات صلة حميمة بالموضوع وأعني بذلك أن يتوافق الإيقاع الداخلي في نفس الشاعر مع الإيقاع الخارجي الذي يظهر بشكل موجات صوتية متناغمة وذبذبات موسيقية في

أرجاء القصيدة.لقد استخدم أبومسلم لنونيته – وقبله أبو البقاء – بحر البسيط وتفعيلاته:

مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن   مستفعلن فاعلن مستفعلن فاعلن

وموسيقى هذا البحر مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بموضوع القصيدة عند الاثنين ، فاذا عرفنا أن النغمة الموسيقية لهذا البحر توحي بالخطاب الموجه بلهجة عنيفة فيها شدة تارة وتحضيض تارة أخرى أدركنا مدى عمق الشاعرية في نفس الشاعر ومدى رهافة الحس الفني لديه ليتمكن من توظيف اللحن الموسيقي والرنين الايقاعي بصورة مؤثرة وفعالة .

إن الخطاب الشعري في قصيدتي أبي مسلم وأبي البقاء يتسم بالنداء والاستصراخ ، ولذلك جاءت موسيقى هذا البحر لتواكب هذا النداء وذاك الاستصراخ بمعزوفات ايقاعية تترك أثراً كبيراً وصدى عميقاً في نفوس الذين يصغون اليها .

أما استخدام حرف النون وقبله الألف في قافية الشاعرين فله دلالة كبيرة ذات صلة وطيدة بموضوع القصيدتين . وحرف النون كما نعلم حرف جهري ذلقي أي مجهور متوسط أنفي يتسرب الهواء معه من الأنف من اللثة العليا مع امتداد النفس من الأنف ، ومن هنا جاءت مراعاة الشاعر لقافية القصيدة ، حيث وفق في اختياره لحروف الروي ليكون الحرف الأخير وليكون له موسيقى فيها ذبذبة صوتية متناسبة مع نغمات الحرف الطويل ، ومن هنا كان أفضل هذه الحروف لموضوع القصيدة هو حرف النون الذي يتردد بأنفاس الأنف والحلق . ولا ننسى أن هناك أصواتاً تعبر عن الشجن في النفس ويبدو أن الشاعر قد تنبه الى ما في الأنف والنون من تأثير موسيقي سماعي فوظفها التوظيف المثالي في نونيته .

إن علاقة الصوت بالحالة النفسية عند المتكلم العادي هي علاقة احتمالية واعتباطية، أما عند المتكلم المبدع الواعي فتتسم بالعمق لهادلالة نفسية وفنية .

إن وجود حرف الألف قبل الحرف الأخير في نهاية القافية قد مكن الشاعر من مد صوته بها وفي هذا راحة نفسية له من ذلك الألم النفسي المسبب عن احساسه بالغربة وشعوره بالأسى لما حل بأمته الإسلامية من فرقة وهوان .

إن طول القصيدة عند أبي مسلم لم يضعف من تأثير القافية كما أن مفردات قافيته تدل على غزارته اللغوية حيث تحتشد المفردات غزيرة بين يديه وتأتيه طواعية يختار منها ما يشاء مما يحتاجه موضوعه الذي ينظم فيه .

الصـــورة الفنيـــــة :

إذا كانت المفردات اللغوية المنتقاة تنقاد بيسر وسهولة لأبي مسلم لينظم من لآلئها عقد روائعه الشعرية ، فإن الصور الفنية ما كانت لتتأخر عن التدافع إلى خياله الشعري ليربط بينها وبين موضوع القصيدة في وحدة وإنسجام ويأتي بناء القصيدة نتيجة لذلك مرتدياً ثوباً قشيباً من الجمال الفني والكمال البياني .

لقد برع أبو مسلم في دقة التصوير وتناسق الصور الفنية فكان فناناً ماهراً يعرف كيف يرسم اللوحات الأدبية التي تعبر عن أحاسيسه وأفكاره .

لقد جاءت نونية أبي مسلم مليئة بالصور البيانية والمحسنات البديعية . أما الصور البيانية فأكثر ما تتضح بالاستعارات التي وردت في بعض أبيات القصيدة بينما تظهر المحسنات البديعية في توظيف الطباق والمقابلة والجناس وحسن التقسيم ومراعاة النظير توظيفاً له أبعاد نفسية ودلالات معنوية . ولا تكاد عين المرء تطالع البيت الأول حتى يبهرها جمال الصورة البيانية فيه المتمثلة بالاستعارة البديعة حينما شبه البروق بركب تسوقه الحداة المنشدون فكان موفقاً غاية التوفيق فيما يسمى ببراعة الاستهلال :

تـــلك الـــبـــوارق حـــاديـــهـــن مـــرنـــان فـمـــا لـطـرفك يـا ذا الشـجـو وسـنـان ؟!

ويتضح البعد النفسي في هذه الصورة من خلال الأرق الذي أصاب الشاعر ، هذا الأرق الذي كان نتيجة للمعاناة النفسية بسبب البعد عن الأحبة والأوطان ، والنأي عن الديار فهو يبحث عن وسيلة للوصول فكان الخيال الشعري حافزاً لرسم هذه الصورة المتحركة بركب المرتحلين وصوت الحادي الذي يسير في مقدمة القافلة . كما نلمح الاستعارة وإيحاءاتها النفسية في البيت التالي :

إن هـيـج البرق ذا شـجـو فـقـد سـهـرت عـيـنـي وشـبت لشـجـو الـنـفس نيران

لقد أهاج البرق وما سببه من أمطار أشجان الشاعر فاشتعلت في نفسه نيران الشوق والحنين للأحبة والأوطان . إنها صورة معبرة عن لظى الحنين المضطرم في نفسه والذي تمخض عن سهر دائم وأنى لمشتاق أن يغمض له جفن أو أن ينام قرير العين !!

كما نلمح بلاغة الاستعارة في إطار فني جميل حينما ذكر مدينة نزوى :

مـــا طـــار طـــائـــرهـــا لـــلـــه محتسـبـــاً لـــه جـنـــاحـــان إيـــقـــان وعـــرفـــان

إنها صورة فنية معبرة عن مركز نزوى الديني وما تحتله من قدسية بين سائر المدن، فقد جعل لها طائرا يطير بجناحي اليقين والعرفان .

وكما برع أبو مسلم في استخدام الصور البيانية ، فقد برع أيضاً في استخدام المحسنات البديعية التي أضفت ظلالاً بهيجة على اللوحة الفنية للقصيدة وأضافت بعداً آخر عميقاً لمعاني القصيدة وايحاءاتها . فعلى سبيل المثال نجد أن أبا مسلم يلجأ الى استخدام الطباق والمقابلة لزيادة الإيضاح وتأكيد المعنى . والمعروف أن الطباق هو الجمع بين ضدين [٣٦] ، والضد يظهر حسنه الضد ، ومن أمثلته في نونية أبي مسلم :

يا برق حرك همومي ان تكن سكنت فكل حظي تحريك وإسكان

حيث جاء الطباق في «حرك» و«سكنت» في الشطر الأول بينما بدا واضحاً في لفظتي «تحريك» و«إسكان» . ولا بد من التأكيد على أن هذا الأسلوب البديعي لم يرد هنا كحيلة لفظية لا معنى لها ، وانما عمد الشاعر الى تصوير الحالة التي كان يعاني منها فهو متململ لا يقر له قرار ، ولذلك أتى بلفظتي «تحريك» و«إسكان» في الموقع المناسب للتعبير عن حالة نفسية معينة .

وما يقال عن توظيف الطباق ، يمكن أن يقال عن توظيف المقابلة وهي أن يؤتى بمعنيين متوافقين أو معان متوافقة ، ثم بما يقابلهما أو يقابلها على الترتيب [٣٧] كما في البيت السابق .

أما الجناس فنجده في أبيات متفرقة من القصيدة وقد استخدمه الشاعر بهدف التوضيح ووظفه توظيفاً فنياً جميلاً لأن الجناس يعني التماثل بين لفظتين في معنيين مختلفين ، ومن أمثلته مما قاله أبو مسلم :

مقيدون بحكم الله حكمتهم وهم حيثما كان الهدى كانوا

فهناك جناس ناقص بين لفظتي «حكم» و «حكمة» .

كما أجاد أبو مسلم في استخدام لون بديعي آخر وهو حسن التقسيم أو الترصيع حسبما ذهب إليه بعض البلاغيين ، والمراد به في القصيدة تقطيع ألفاظ البيت الواحد من الشعر إلى أقسام تمثل تفعيلاته العروضية أو إلى مقاطع متساوية في الوزن [٣٨] ومثاله عند أبي مسلم قوله :

لله ما جمعوا ، لله ما تركوا لله إن قربوا ، لله إن بانوا

فالشاعر هنا يحاول استيفاء أقسام المعنى . ولايضاح هذا الجانب عند أبي مسلم

(٣٦) علم البديع ٧٦ . (٣٧) المرجع السابق ٨٦.

(٣٨) المرجع السابق ١٣٩.

يحسن ذكر مثالين معروفين : نجد الأول منهما عند أبي تمام في بائيته المشهورة في فتح عمورلة حيث يقول في الخليفة المعتصم (٣٩) :

تدبير معتصم ، بالله منتقم   لله مرتقب ، بالله مرتغب

بينما نجد الثاني عند الخنساء في رائيتها المشهورة التي ترثي فيها أخاها صخراً وتذكر فيها مناقبه (٤٠) :

حمال ألوية ، هباط أودية   شهاد أندية ، للجيش جرار

نحار راغية ، ملجاء طاغية   فكاك عانية ، للعظم جبار

ومن شواهد حسن التقسيم الأخرى التي وردت عند أبي مسلم :

صعب شكائمهم ، سحب مكارمهم   إن حاربوا صعبوا ، أو أكرموا هانوا

شم إذا حزموا ، نار إذا عزموا   تنسيق شهب إذا رجموا ، للفضل هتان

وكما أحسن شاعرنا في استخدام هذا اللون البديعي ، فقد برع في استخدام لون بديعي مختلف وهو مراعاة النظير الذي يفيد التناسب والائتلاف والتوفيق والمؤاخاة ، أي أن يجمع الشاعر بين أمر وما يناسبه (٤١) . ومثاله في نونية أبي مسلم :

صيد ، سراة ، أباة الضيم ، أسد شرى   شمس العزائم ، أواهون ، رهبان

كما لم يفت أبا مسلم أن يستمد من القرآن الكريم معيناً لا ينضب يقتبس منه آيات كريمة ليضمنها في أبياته بهدف تقوية المعنى وإلباسه ثوباً زاهياً من الفخامة البلاغية التي يعتبر القرآن الكريم مصدرها الرئيس . ومن أمثلة أقتباسه لبعض معاني القرآن الكريم ما

---

(٣٩) الديوان ١٥.

(٤٠) الديوان ٤٩.

(٤١) علم البديع ١٧٩.

نجده في الأبيات التالية :

جـدوا إلى الـبـاقـيـات الصـالحات فـلـم يـفـتـهـم في الـتـقـى سـر وإعـلان

حيث نجد في الشطر الأول اقتباساً من الآية الكريمة **﴿والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً﴾** (٤٢) . أما في بيته التالي :

مضـوا وآثـارهـم نـور وذكـرهـم رحـمـى ومضـجـعـهـم روح وريـحـان

فنجد في نهاية الشطر الثاني اقتباساً من الآية القرآنية **﴿فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم﴾** (٤٣) . كما تتضمن الأبيات التالية معاني قرآنية مقتبسة من آيات كريمة :

يـختص مـن شـاء بـالـرحـمـى ويصـرفـهـا عـمـن يشـاء وفي الحكـمين رحـمـن
يـا لـلـرجـال أقـيـمـوا وزن قسـطـكـم فـمـا لـكـم قـبـل وزن الـقسـط مـيـزان
إن تـنـصـروا الـلـه يـنصـركـم فـلا تـهـنـوا فـالـكـفـر في المقت والإسـلام رضـوان

ففي البيت الأول نجد اقتباساً من الآية القرآنية الكريمة **﴿يختص برحمته من يشاء﴾** (٤٤) بينما نجد في البيت الثاني اقتباساً من الآية الكريمة **﴿واقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان﴾** (٤٥) .

أما في البيت الثالث فالاقتباس كان من الآية الكريمة **﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾** (٤٦)

لقد أضفت الصور البيانية والمحسنات البديعية والاقتباسات القرآنية جمالاً وروعة وتأثيراً على هذا العمل الرائع وتضافرت كل عوامل النجاح لتجعل من نونية شاعرنا الكبير عملاً فنياً مميزاً يستحق البقاء والخلود .

(٤٢) سورة الكهف ، ٢٦ .
(٤٣) سورة الواقعة ، ٨٨-٨٩ .
(٤٤) سورة البقرة ١٠٥، سورة آل عمران ٧٤.
(٤٥) سورة الرحمن ٩٠ .
(٤٦) سورة محمد ، ٧.

بقي أن أشير إلى أن أمير الشعراء أحمد شوقي قد عارض بدوره أيضاً أبا البقاء الرندي بقصيدته (٤٧) :

قم ناج جلق وانشد رسم من بانوا	مشت على الرسم أحداث وأزمان

لكن معارضته هذه كانت من باب المشاركة القومية فقد كان أميراً للشعراء العرب ويدعوه الواجب إلى النهوض بالمسئوليات الملقاة على عاتقه كأمير للشعر العربي .

أما أبو مسلم فقد جاءت معارضته لأبي البقاء الرندي نابعة من حقيقة تجربة عاشها الرجل فجاءت نابضة بالحياة ومعبرة عن أصدق مشاعر الوطنية والروح الإسلامية ، حيث كان شاعرنا يحمل هموم أمته يفرح لفرحها ويأسى لمصابها وآلامها ويشير إلى طريق الخلاص من هذه المصائب والآلام فكان كالطبيب الذي يجد العلاج لمرضاه ليبرأوا مما هم فيه .

وإذا كانت نونية أبي البقاء هي أشهر قصيدة أندلسية في رثاء الممالك الزائلة في الأندلس ، فإن نونية أبي مسلم هي من أشهر قصائد الوطنيات المشبعة بروح الاستثارة والاستنهاض ولا غرابة في ذلك فقد كان الرجل يمتاز بشاعرية فذة انقادت له فيها أسرار الفصاحة والبيان إذ ما كاد يفرغ من نظم قصيدة حتى تتلقفها الآذان وتسير بها الركبان فكان كما قال المتنبي عن نفسه (٤٨) :

وما الدهر الا من رواة قصائدي	إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً
فسار به من لا يسير مشمراً	وغنى به من لا يغني مغرداً

(٤٧) الشوقيات ٢/١٠٠.

(٤٨) الديوان ١ /٢٩٠-٢٩١.

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم .

٢- البستاني ، فؤاد أفرام : المجاني الحديثة (عن مجاني الأب شيخو) ، دار المشرق ، بيروت ، ١٩٧٢.

٣- البهلاني ، أبو مسلم ناصر بن عديم الرواحي : الديوان ، تحقيق عبدالرحمن الخزندار ، سلطنة عمان ، ١٩٨٦.

٤- أبو تمام ، حبيب بن أوس : الديوان ، شرح وتعليق شاهين عطية ، دار صعب ، بيروت ، (ب.ت) .

٥- الجروان ، محمد راشد : رسالة إلى ولدي ، دار الخليج للصحافة والطباعة والنشر، الشارقة ، ١٩٨٥

٦- ابن حمديس ، عبد الجبار : الديوان ، صححه وقدم له : احسان عباس ، دار صادر بيروت ،١٩٦٠

٧- الخصيبي ، محمد بن راشد : شقائق النعمان على سموط الجمان في أسماء شعراء عمان ، الجزء الثاني ، وزارة التراث والثقافة ، سلطنة عمان ، ١٩٨٩ .

٨- الخنساء ، تماضر بنت عمرو : الديوان ، دار صادر ، بيروت (ب.ت) .

٩- درويش ، أحمد : مدخل إلى دراسة الأدب في عمان ، دار الأسرة ، دار المعارف، ١٩٩٢ .

١٠- دعبيس ، سعد : دراسات في الشعر العماني ، دار المعرفة الجامعية ، الاسكندرية، ١٩٩٢ .

١١- الدقاق ، عمر : ملامح الشعر الأندلسي ، دار الشرق ، بيروت ١٩٧٣.

١٢- ابن دحية ، عمر بن الحسن : المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق ابراهيم الأبياري وآخرين ، المطبعة الأميرية ، القاهرة ، ١٩٥٤.

١٣- ابن رشيق القيرواني ، الحسن : العمدة في محاسن الشعر وآدابه ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

١٤- الزيات ، عبدالله محمد : رثاء المدن في الشعر الأندلسي ، جامعة قاريونس ، ١٩٩٠.

١٥- الشكعة ، مصطفى : الأدب الأندلسي - موضوعاته وفنونه ، دار العلم للملايين، بيروت ، ١٩٧٩ .

١٦- شوقي ، أحمد : الشوقيات - الجزء الثاني ، المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، (ب.ت) .

١٧- صفوت ، أحمد زكي : جمهرة خطب العرب ، المكتبة العلمية ، بيروت ،(ب.ت) .

١٨- الصقلاوي ، سعيد : شعراء عمانيون ، مسقط ، ١٩٩٢ .

١٩- ضيف ، شوقي : تاريخ الأدب العربي - عصر الدول والإمارات (الأندلس) ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٩.

٢٠- الطائي ، عبدالله : الأدب المعاصر في الخليج العربي ، مطبعة الجبلاوي ، القاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٧٤، م .

٢١- الطائي ، عبدالله ك شعراء معاصرون ، مطبعة الألوان الحديثة ، مسقط ، ط أولى، ١٩٨٧.

٢٢- عباس ، إحسان : تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطين ، دار الثقافة ، بيروت ، الطبعة السابعة ، (الطبعة الأولى ١٩٦٢) .

٢٣- عتيق ، عبدالعزيز : علم البديع دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٥.

٢٤- عطوان ، حسين : مقدمة القصيدة العربية في العصر الجاهلي ، دار الجيل ، بيروت ، ١٩٨٧.

٢٥- علي ، علي عبد الخالق : الشعر العماني - مقوماته واتجاهاته وخصائصه الفنية ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٨٤.

٢٦- الفرزدق ، همام بن غالب : الديوان - الجزء الثاني ، دار صادر ، بيروت ، (ب.ت) .

٢٧- المتنبي ، أحمد بن الحسين : الديوان ، تحقيق مصطفى السقا وآخرين ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٧١ .

٢٨- محمد ، عبد الرحمن حسن : رثاء المدن والممالك الزائلة في الشعر العربي حتى سقوط غرناطة ، مطبعة الجبلاوي ، القاهرة ، ١٩٨٣ .

٢٩- المقري ، أحمد بن محمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب - الجزء السادس ، تحقيق يوسف البقاعي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٨٦.

٣٠- ابن منقذ ، أسامة : المنازل والديار ، تخقيق مصطفى حجازي ، القاهرة ، ١٩٦٨ .

٣١- وزارة التراث والثقافة بسلطنة عمان ١٩٦٨ : فعاليات ومناشط المنتدى الأدبي - حصاد أنشطة المنتدى لعام ٩١-١٩٩٢ ، اصدار يونيو ١٩٩١ ، مسقط - سلطنة عمان .

أبو مسلم البهلاني الرواحي

في شعره الإبتهالي

الدكتور / محمد صالح ناصر

معهد العلوم الشرعية

تمهيد :

عندما يتوجه الدارس الى شعر أبي مسلم ، انما يفعل ذلك لأن أبا مسلم يمثل الشاعر المسلم بكل مواصفاته الأصلية ، عقيدة دينية راسخة وسلوكاً محمدياً ثابتاً ، ورؤية اسلامية للكون ، والحياة والناس ، لا تذبذب فيها ولا اهتزاز ، وهو الى جانب هذه الخصائص السلوكية العقدية يتميز بشاعرية فياضة تجمع الجماليات الفنية الرائعة التي تجعل التجربة الشعرية تنتفض ، وتتحرك ، وتؤثر .

وعندما يختار الدارس من بين هذا الشعر موضوعاً محدد الأطراف مثل شعر الإبتهالات ، فانما يتوجه اليه بدافع موضوعي ، لأن الأغلبية الساحقة من قصائد أبي مسلم انما تنحو هذا المنحى ، فقد استحوذت قصائد الإبتهال عنده على الحيز الأكبر من ديوانه . قد تبلغ ثلثي شعره أو تزيد .

على أن أبا مسلم لم ينظم قصائده الأخرى بموضوعاتها المختلفة ، حنيناً واستنهاضاً مدحاً ورثاء ، الا تحت هذا الإلحاح الديني الذي يمثل الشاعر أبا مسلم أحسن تمثيل ، ويعبر عن شخصيته أبلغ تعبير .

فوطنياته ومدائحه ومراثيه كلها لا تخرج عن اطار هذا النهج المستقيم ، ولينظر المتأمل ملاحمه الوطنية : المقصورة ، والنونية ، والميمية ، والعينية ، ثم لينظر تخميساته لقصائد الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي ، ولينظر بعد ذلك مراثيه في العلماء الأجلاء ، يجدها قد صيغت كلها بقالب سلوكي رفيع ، لأن شعره كله في الغالب متمحور حول الإستقامة منبثق عنها داع اليها [1] .

لذا فإننا عندما نجرؤ على الدخول الى هذا البحر الزاخر ، نكون قد تجرأنا على أنفسنا أولاً وبالذات ، والجرأة هنا لا تأتي من عمق أمواج شعر أبي مسلم وحسب ،

---

(١) ينظر . أحمد بن سليمان الكندي ، قصائد السلوك في شعر أبي مسلم ، اصدار المنتدى الأدبي ، فعاليات ومناشط ١٩٩١ ص ٢٠٢.

عد أحد الدارسين عدد أبياته الدينية فبلغ بها (٥٢٨٠) بيتاً من مجموع (٩٠٠٠) بيتاً وان كنا لا نوافق على هذا التحديد المفتعل . ينظر ديوان أبي مسلم د/ صلاح رزق (مخطوط) ص ١٣ .

وانما تأتي من كون المركب الذي اخترناه لشق هذا الخضم ليس مأمون العواقب ، فليس أخطر على المرء من تناول موضوع يتعلق بالنفس البشرية التي مهما قال العلماء فيها وعنها ، فانهم لن يصلوا الى حدود تفسير الآية الكريمة التي تتحدانا : **﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾**[٢] . **﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾**[٣] . فنحن اذا حين ندخل هذا البحر المتلاطم ، فاننا ندخله على وجل وخوف ، للأسباب السابق ذكرها :

– صعوبة النفاذ الى أبعاد هذا النوع من الشعر لأنه يتعلق بالروحانيات ، وهي أمر صعب الإحتواء والفهم .

– سعة أطراف الموضوع لأن جل ما كتبه أبو مسلم إنما يدور حول هذا المحور ، لذا فان بحثنا هذا لا يدعي الاحاطة أو النفاذ إلى الأعماق ، وانما هو محاولة للتقرب من هذا البحر الضخم ، والتأمل في عالمه العجيب تأمل استفادة وتجريب .

- وسنحاول أن نقف مع قصيدة الإبتهال عند أبي مسلم من خلال المحاور التالية :
- قصيدة الابتهال تعريفها وأبعادها .
- مكانة هذا الفن عند أبي مسلم ولماذا اهتم به ؟ .
- محاور هذه القصيدة عنده من جانبها الموضوعي .
- محاورها من جانبها الفني .
- قصيدة الابتهال بين الزهد والتصوف .

---

(٢) سورة الذاريات ، الآية : ٢٧

(٣) سورة فصلت ، الأية ٥٣

قصيدة الابتهال

تعريفها – أبعادها

جاء في لسان العرب لابن منظور : ابتهل في الدعاء اذا اجتهد ، .. والابتهال ، التضرع، والإبتهال الإجتهاد في الدعاء ، واخلاص لله عز وجل .

وفي التنزيل العزيز **﴿ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين﴾** [٤] أي يخلص ويجتهد كل منا في الدعاء واللعنة على الكاذب معاً .

قال أبو بكر ابن الأنباري : قال قوم : المبتهل معناه في كلام العرب المسبح الذاكر لله واحتجوا بقول نابغة شيبان :

أقطع الليل آهة وانتحاباً وابتهالاً لله أي ابتهال

وفي حديث الدعاء : الإبتهال أن تمد يديك جميعاً .. وأصله التضرع والمبالغة في السؤال .

من هنا نرى أن معنى الإبتهال ، هو التضرع في الدعاء والإجتهاد فيه . وأما الدعاء فقد ورد في القرآن بمعنى العبادة ، كما جاء في سورة الأعراف : **﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين﴾**[٥] . وفي سورة الرعد : **﴿له دعوة الحق والذين تدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين الا في ضلال﴾** [٦] . وقد وردت اللفظة في آيات كثيرة أخرى ، وعندما نتناول تلك الشواهد كلها نجد الدعاء حين يرد بمعنى العبادة يتضمن أيضاً معنى النداء **﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها﴾** [٧].

والدعاء مما يوصي به القرآن عباده المؤمنين لأنه حفظ الصلة التي لا تنقطع بين العبد وربه **﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾** [٨] . **﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعانِ﴾**[٩] .

وقد قص علينا القرآن الكريم نماذج من أدعية الأنبياء مما لا يزال المؤمنون يرددونها

---

(٤) سورة آل عمران ، الآية : ٦١. (٥) سورة الأعراف ، الآية : ١٩٤.
(٦) سورة الرعد ، الآية ١٤: . (٧) سورة الأعراف ، الآية : ١٨٠.
(٨) سورة غافر ، الآية : ٦٠.
(٩)سورة البقرة الآية : ١٨٦.

في صلواتهم وخلواتهم تأسياً ، واقتداء بهم . وقد وردت على لسان أنبياء الله آدم ونوح ، وابراهيم وموسى وعيسى ، ومحمد وغيرهم صلوات الله عليهم أجمعين .

وقد رغب الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – أمته في الدعاء في حالتي الخير والشر ، وفي مواضيع الشكر والضر ، لأن الدعاء بالنسبة للمؤمن هو علامة استسلامه لله خالق كل شيء ومدبر كل شيء . فالدعاء بالشكر عند النعماء يزيده عطاءاً وانعاماً والدعاء بالصبر عند الضراء يزيده أجراً وثواباً ، وعند الإنابة والإستغفار يزيده من الله قرباً وملاذاً .

وقد جاء عن الرسول – صلى الله عليه وسلم – : «إن الدعاء ينفع بما نزل وما لم ينزل فعليكم عباد الله بالدعاء» . وقال : «إن الله حيي كريم يستحي اذا بسط الرجل اليه يديه أن يردها صفراً ليس فيها شيء» . الى آخر ما جاء في هذا الموضوع من أحاديث كلها تحض على الدعاء ، وتدعو المؤمن على ملازمته سراً وجهراً ، ليلاً ونهاراً، في المكره والمنشط .

واذا عدنا الى التراث الاسلامي ، فاننا نجد في أبيات المتصوفة اهتماماً بالدعاء والأذكار وضعوا لها آداباً وشروطاً ينبغي أن يكون المرء عليها في حالة الدعاء ، حتى يستجيب الله لدعائه .

ولهذه الآداب تفاصيل توجد في الجزء الأول من [احياء علوم الدين للغزالي] والجزء الخامس من [غاية الارب للنويري] ، كما تكتظ بها كتب المتصوفة ، والرقائق .

وجملة هذه الآداب تبين كيف يحرص الصوفية على صفاء النفس حين تراض على هذه الآداب ، فوصل النفس بالله ، واستحضار فقرها اليه ، ورهبتها منه ، ورغبتها فيه ، وانتظارها لفضله في ثقة ويقين ، كل أولئك من العوامل المهمة في صقل النفس ، وتطهير القلب ، وتربية الوجدان ، وانتظار الخير كله من الله ، وتهيئة النفس لذلك ، لذلك باب أصيل في بناء الملكات الأخلاقية ولا سيما اذا لاحظنا مخلصين أن الأمر بيد الله وأن العبد لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، هذه الأسباب تجعلنا نفهم موقنين لماذا يصف الرسول صلى الله عليه وسلم الدعاء بأنه «مخ العبادة» .

من هذا المنطلق الايماني نفهم لماذا يتجه شاعر مثل أبي مسلم الى هذا النوع من الشعر

ولماذا يكرس له من ديوانه كل هذه القصائد بحيث تصبح الجزء الغالب عليه ، بل تصبح الروح الذي طبع أغلب أعماله الشعرية ، وسنعود الى هذه النقطة بالذات بالشرح والتوضيح .

لماذا اهتم أبو مسلم بقصيدة الإبتهال؟

يبدو لي – والله أعلم – أن أبا مسلم حين كتب الشعر كان أول ما كتب منه هو الشعر الديني الخالص ، أي شع الابتهال والذكر ، آية ذلك اننا عندما نعود الى ديوانه المخطوط نجده عبارة عن مجموعة من الأذكار الدينية ، أعطاها هو بنفسه عنواناً دلالياً مقصوداً : النفس الرحماني* في أذكار أبي مسلم البهلاني) ويشتمل أغلب قصائده كما ذكرنا آنفاً ، وهو الذي يعنينا من هذه الدراسة المتواضعة .

وقد قسم الديوان نفسه الى عناوين تنطوي كلها تحت عنوان واحد هو (الأذكار) فلم يميز بين قصائده إلا بأعدادها حسب الترتيب ، فكان منها :

الذكر الأول : وعنوانه **(الوحي المقدس)** . ومقدمة في شروط الذكر ، ثم فاتحة الدعوة المباركة لأسماء الله الحسنى ، وعدد أبياته ١٥٦٧ بيتاً .

الذكر الثاني ، وعنواه **الناموس الأسنى في أسماء الله الحسنى** ، وعدد أبياته ٢٦٢ بيتاً. **الذكر الثالث** ، وعنوانه : **المعرج الأسنى في أسماء الله الحسنى** ، وعدد أبياته ١١٤ بيتاً .

الذكر الرابع ، وعنوانه : **النفحة الفاتحة في التوسل بأسماء الفاتحة** . وعدد أبياته ٢٠٢ بيتاً.

الذكر الخامس ، وعنوانه : **درك المنى في تخميس سموط الثنا** . وعدد أبياته ٢٥٢ شطراً .

لأن القصيدة يخمسها بقصيدة هي في الأصل للعالم الرباني الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي .

الذكر السادس ، وعنوانه : **مقدس النفوس** ٧٩٥ بيتاً .

الذكر السابع ، وعنوانه : **الكلم الطيب** ، **وعدد أبياته ٨٥٥** بيتاً

الذكر الثامن ، وعنوانه : **الباقيات الصالحات** ، **وعدد أبياته** (٦٠٠) بيت سقط منها حوالي ثلاثون بيتاً لم ترد في الديوان المطبوع ولا المخطوط ، وتلحق بهذه القصائد .

---

(١٠) زكي مبارك ، التصوف في الأدب والأخلاق ج٣ ، ص ٤٥.

(*) في رواية أخرى (النفس الرباني) والمعنى واحد .

هذه هي القصائد التي يمكن أن يشملها جميعها الإتجاه الإبتهالي لأنها انما نظمت أساساً لهذا الغرض ، كما تدل على ذلك مقدمة الشاعر نفسه ، حيث يضع لها سلوكية معينة قبل الذكر وأثناءه .

وقد دلت المقدمات التي يفتتح بها تلك القصائد على احتفاله بأدائها ، اذ كان يهيىء نفسه بالطهارة والوضوء والتبتل والخشوع والصلاة في جوف الليل ، فتنساب تلك الأبيات على لسانه دعاء يناجي بها ربه في تلك اللحظات الروحية الرفيعة تجيش بها عاطفته ، وينتفض بها وجدانه ، ويمتلئ بها قلبه ، وتخفق بها جوانحه[11].

بعد هذا الإستعراض السريع الذي يقدم أمامنا انطباعاً على اهتمام الشاعر أبي مسلم بهذا الفن الشعري ، الذي يكاد يتفرد به من بين الشعراء المعاصرين له ، لا في عُمان وحسب ، بل في العالم العربي على ما نعلم ندرك أن أبا مسلم قد اتخذ الشعر وسيلة يتقرب بها الى ربه ، كما يتقرب اليه بأي عمل صالح آخر ، إنه المعاناة النفسية والخلوة الروحية التي اختار للتعبير عنها الفن الشعري ، وما في ذلك غضاضة .

وبعيداً عن استنطاق الظروف السياسية والإجتماعية ، وهي دوافع موضوعية ولا شك نود أن نبدأ . من دافع ذاتي نابع بكل قوة من حنايا الشاعر لأن الدافع الذاتي في كتابة الشعر يكون أقوى ولا ريب من الدافع الخارجي ، وكأن الشاعر توقع تساؤل الناس عن اختياره هذا فقال :

بـأسـمـائك الحسـنى تـقـربت سـيـدي	**الـيـك مجداً في هـتـافي وقـربـتـي**
جـعـلت سـمير الـطـبـع تـرتـيـل ذكـرهـا	**لـوجـهك ربـي خـلـوة بـعـد خـلـوة**
بـحـقك أمـطـرني سـحـائب سـرهـا	**بما خص كـلا مـن كـمـال وقـوة**
وهب لي بـهـا مـن كـل خير أئمه	**الـهـي في الـدنـيـا وفي الأخـرويـة[12]**

ولعل احساس الشاعر بأنه انما يدعو الله ويرفع اليه أكف الضراعة وهو ينشد تلك القصائد ، هو الذي أضفى عليها جواً حميماً من الصدق والتجلي الروحي .

(١١) أحمد بن سليمان الكندي ، مرجع سابق ، ص ٢٠٢ .

(١٢) ديوان أبي مسلم ط الحارثي . ص ١٢٧.

والقارىء عندما يردد تلك القصائد بتمعن يخيل اليه أن الشاعر لا ينشد شعراً عادياً، وانما هو يدعو خاشعاً متبتلاً في محراب الشعر ، وهو موقف طالما طالعنا من شعره ، ولا سيما في خواتم تلك المطولات التي يخصصها لأسماء الله الحسنى ، حيث يتكرر لفظ الدعاء أكثر من مرة تعبيراً من الشاعر عن معاناته النفسية الصادقة واحساسه الايماني الفياض .

إلـهـي هـذا مـوقـف الخوف والـرجـا	وهـذا مـقـام الـعـائـذ المتـشـبت
إلـهـي مـا أوقـفـتـني مـوقـف الـدعـا	لـطـرد ، وابـلاس ، ويـأس وخـيـبـة
إلـهـي لا يشـقـى دعـاتك بـالـدعـا	ولا بـاء بـالحرمـان اخـبـات مخبت
إلـهـي لـولا نـظـرة أزلـيـة	الى لما أنـهضـتـني نـحـو دعـوتـي
إلـهـي بشيري بـالاجـابـة دعـوة	أرتـلـهـا والـلـه حـاضـر حضـرتـي
إلـهـي دعـائـي مـا لـه عـنك حـاجـز	وعـزم إراداتـي وثـبـت عـزيمتـي
إلـهـي أبـواب الـدعـاء لمن دعـا	مـفـتـحـة فـاسـمـع دعـائـي وصـرختـي [١٣]

هكذا يتجلى صدق الشاعر وخشوعه وخضوعه ، واتخاذه الشعر وسيلة يدعو بها ربه ويناجيه مما يجعله يردد لفظة الدعاء وما أشتق منها في هذه الأبيات أكثر من ثماني مرات والابتهال بالشعر عنده وسيلة من وسائل التقرب الى الله ، لا تختلف عنده عن دعائه بالنثر ، أو بالأدعية المحفوظة المأثورة الأخرى . وقد قال عن نفسه في مقدمة تخميسه لقصيدة شيخه وامامه في هذا الإتجاه الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي : «ولكني امرؤ حالفت خدمة الأذكار ، وأشربت حب الاغتراف من بحار الأسرار ، وعلمت أن لهذه الدعوة (سموط الثناء) أثراً ساطعاً ، وبرهاناً قاطعاً أشهر من الشمس في كبد السماء، وأغزر بركة من عيا لم الدأماء (البحار) فاستمسكت بعروتها وأخذت بحجزتها وجعلت مع التخميس لرب العزة نداء ، ولبست لها من أديم السحر رداء» [١٤]

فأبو مسلم يرتقي بهذا الفن الشعري رتبة في السمو الروحي أرقى من أن يكون شعراً يحفظ أو ينشد ، وانما يتخذ هذه القصائد أوراداً يقسمها بين اليوم والليلة ،

---

(١٣) ديوان أبي مسلم الرواحي . طبع ونشر صالح بن عيسى الحارثي . (د.ت) ص ، ١٢٥، وفي نفس الطبعة (جلوة بعد خلوة).

(١٤) الديوان المخطوط . ص ٩٣ .

فتصبح عنده عبادة قارة ، ورياضة روحية يصفي بها نفسه من أدران المادة وأوضار الدنيا كلما أصابه شيء من غبارها .

سيدي سائل بأسمائك الحسنى على باب العظيم الأجل
سيدي عائذ بأسمائك الحسنى دؤوب بحبلها متدلي
سيدي مخبت بأسمائك الحسنى وأذكارها حديثي وشغلي

فهو سائل عائذ مخبت ، حتى أصبح الذكر حديثه وشغله فيما يقول ، والدافع الى ذلك طمأنينة يجدها قرب الله إذا استبد به القلق ، وأمن في حمى الله إذا نزل به خوف . ذلك ما يقرره بنفسه حيث يقول :

سيدي عز في الوجود ملاذاً ونعمت أمام وجهيَ سُبْلي
سيدي من يحلل حماك يصادف كرماً منزلاً برحب وأهل
سيدي أي قاصد طوحته في حماك الخطوب باء بحظل (*)

الى أن يقول :

سيدي من يصرف هواه إلى غيرك لم يلق (**) منك غير التولي [١٥]

إن قصيدة الابتهال عند أبي مسلم حاجة نفسية ، واستجابة ملحة لخواء روحي يشعر به عندما تدلهم أمامه الحوادث ، وتتحكم حوله حلقات الأزمات النفسية فلا يجد سلاحاً لدفعها الا الإبتهال المتضرع الى الله ، لأنه يشعر – لا محالة – بالضعف البشري ، ويعترف بقلة حيلته وهوانه عند الناس ، فيغدوا والدعاء عندئذ سلاح المستضعف الذي لا يجد النصير إلا عند الله قاهر المستبدين والجبابرة والطغاة ، فأسماء الله الحسنى تغدو عنده الجنود ، والحصون والسيوف والنبال التي يقاتل بها بل انها البروق التي تخطف أبصارهم كلما أرادوا به سوءاً .

---

(١٥) الديوان ، ط التراث ، ص ١٣٠.

* الحظل : المنع والحرمان .

** طبعة الحارثي (ص ١٣٩) وردت (يلف).

رب ســلــطــانك الــنصير نصيري وخــلــوص الــدعــاء ســيــوفي ونــبــلــي
وجــنــود الأســمــاء أنصــار قــهــري وكــنــوز الأســمــاء كــنــزي وطَــوْلي
وحصــون الأســمــاء مــعــقــل أمــنــي وغــيــوث الأســمــاء غــيــثــي لمحلــي
وبــروق الأســمــاء تــخــطــف أبصــار المريــديــن ســوء حــالي وذلي
وفــيــوض الأســمــاء قــوة تصــريــفــي وفصــلــي في الــكــائــنــات ووصــلــي
فــاكــســنــي مــن لألاء أســرارهــا نــو راً ،وهب لي بــفــيــضــهــا كــل ســؤلي
وأغــشــنــي مــتــيــمــاً ، مــولــع الــقــلــب بــأذكــارهــا نــهــاري ولــيــلــي
لست أخشــى مــن الحوادث إن كــنــت بــأنــوار ســرهــا مــتــجــلــي

إن المتتبع لتلك الابتهالات الدافقة من أعماق القلب ، يشعر بحق إلي أي حد كان أبو مسلم وهو يسبح في ملكوتها كما قال حقاً ، متيماً ، مولع القلب بأذكارها ليله ونهاره وما ذلك إلا لثقته العظيمة في الله ، فإن الذكر والدعاء طاقة روحية هائلة تفيض على جنبات نفسه ، فتملؤها الطمأنينة والرضى واليقين ، فهي اذا عبادة وحاجة وأمان :

«الــهــيَ أكــرمــنــي بــقــرب اجــابــتــي فــاني مضــطــر عــظــيــم الــبــلــيــة
وعــدت بــقــرب واســتــجــابــة دعــوتــي اذا عــرجت عــن ذلــة وضــرورة»*

*الديوان ص ١٠٦.

قصيدة الإبتهال من جانبها الموضوعي

إن قصيدة الابتهال عند أبي مسلم تسير وفق مخطط فكري مرسوم ، ومنهج رؤيوي معلوم ، يقسمها الى محاور وعناصر ، وما يزال يتبعها في خطى ثابتة موزونة حتى يصل إلى خاتمتها ، بل تشعر وأنت تقرأ تلك الإبتهالات أن خيطاً نفسياً رفيعاً يسلكها في عقد واحد ، يبدأ من الجزئي الى الكلي ، أو من الكلي إلى الجزئي .

ولأن هذه القصائد هي في حقيقة أمرها أدعية تصعد من أعماق قلب الشاعر ، اتسمت في الأغلب الأعم بالتكرار اللفظي والمعنوي ، إنها ترجمة صادقة لحاجات الشاعر النفسية ، يطلب من الله أن يستجيب لها ، على النحو الذي أوضحناه ، لذا جاءت محاورها على كثرتها متشابهة ، وعناصرها متماثلة ، فلا يكاد المرء يجد فرقاً بينها من ناحية الأفكار والمعاني والمواقف ، وليس المهم أن تتسم بالتكرار المعنوي ما دامت استجابة صادقة لأحاسيس الشاعر ، وأدعية خالصة لهمومه وغمومه ، ولئن لوحظ تشابه موضوعاتها . بما عرف في الشعر الصوفي من اهتمام بالسلوك ، والأخلاق ، والحب الإلهي ، والمدائح النبوية ،والتأمل الروحي ، فإن الشاعر أبا مسلم قد وفق في عرضها بطريقة منهجية تنداح في دوائر نفسية تبدأ من همومه الخاصة الشخصية ، ثم تتسع شيئاً فشيئاً لتشمل هموم وانشغالات أمته الإسلامية . وهذه الرؤية في حد ذاتها تسم هذه القصائد بسمة الخصوصية ، وتفردها بنكهة شعرية محببة .

وقصائد الإبتهال عند أبي مسلم تسير وفق المحاور التالية في الأغلب الأعم :

- افتتاحية في تقديس اسمه – تعالى –
- تمجيد الذات الإلهية بذكر صفاته التي وصف بها نفسه .
- الاعتراف بالذنب والتقصير في جنب الله.
- التوبة وطلب الغفران – مطالبه وحاجاته الدنيوية والأخروية وهي :

تزكية نفسه ، العلم اللدنى ، القبول والرضى ، الغنى الذي يغنيه عن ذل السؤال ،

الدعاء على أعدائه بطلب الانتقام منهم ، طلب نصرة الأمة الإسلامية على الكافرين والمشركين والطغاة ثم الخاتمة بالصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وبما أنه من الصعب على الدارس أن يقف عند هذا العدد الضخم من الأبيات فقد رأينا الوقوف عند الذكر الثالث الذي عنوانه : المعرج الأسنى في أسماء الله الحسنى ، اذ خيل لنا – والله أعلم – أنها القصيدة الإبتهالية النموذج ، التي أفردها للدعاء الخالص من أول بيت الى آخر بيت ، وقد نظمها قصداً للدعاء بها عند الحاجة كما أوضح ذلك في مقدمتها .

وقد افتتحها أبو مسلم بمقدمة نثرية يقول فيها :

«وبعد فهذه نفثات عرشية ، وكلمات قدسية ، عبق عبيرها من رياض الأسرار الفرقانية ، وأشرق ضوءها عن مشكاة الأنوار الاسمائية ، أجراها الله على لسان عبده المفتقر الى رحمته ، ولقد بلوتها عند الشدائد ، فوجدتها غياثاً جميلاً ، وركناً جليلاً ، والحمد لله حد النهاية ، وهاكها حسبما جادت بها العناية» .

ثم يقسم الذكر شعراً على النحو التالي :

– **مقدمة في شوط الذكر :**

– اللطيفة الأولى : في سؤال تزكية النفس .

– اللطيفة الثانية : في امداد الأنوار العلمية والأسرار الحكمية .

– اللطيفة الثالثة : في الدعاء لرفع الافات والكلاءة من طوارق المخافات .

– اللطيفة الرابعة : في تطهير النفس بالاستغفار من الأوزار .

– اللطيفة الخامسة : لفتح خزائن النعم ، وانبساط فيوض الكرم .

– اللطيفة السادسة : في كسر شوكة الفساد ، ووصم العباد .

–**الخاتمة**

إن الدارس عندما يقرأ هذه العناوين أو هذه اللطائف الست يتذكر ولا شك مقامات وأحوال المتصوفة التي وضعوها للسالك في هذا الطريق ، والمقام عندهم معناه : مقام

العبد بين يدي الله - عز وجل - فيما يقام من العبادات والمجاهدات الرياضية ، والانقطاع الى الله تباركت أسماؤه (١٦) .

والمقام الأول عندهم ، هو التوبة النصوح ، وهي ندم القلب ، واستغفار اللسان ، وترك الجوارح ، وإضمار ألا يعود التائب إلى الذنب ، وقد وصفوا عشر خصال ، ينبغي أن يتحلى بها العبد في مقام التوبة ، قبل أن يتجاوزها الي المقامات الثابتة ، وهي مقام الصبر ، ومقام الرجاء ، ومقام الرضى ، ومقام الرفعة ، ومقام الفقر ، ومقام الورع، ويكون العبد في كل مقام على حال خاصة من أحوال يعرفونها وهي متداولة في كتب التصوف .

وقد وضع أبو مسلم لمن يريد الابتهال بها شروطاً ، تتعلق بالإعداد النفسي بطهارة الظاهر والباطن ، والتفرد بعيداً عن ضوضاء الدنيا ، وبهرجها ، وزخارفها .

أيكون أبو مسلم متأثراً بمثل هذه السلوكات التي وضعها الصوفية في كتبهم ؟

والواقع أن هذه الشروط التي وضعها قبل الذكر هي من آداب الدعاء قبل أن تكون طقوساً صوفية ، لأنها لا تخرج عن اطار الإعداد الروحي ، للسمو بالنفس البشرية من دنيا المادة ، وأوضار الحياة اليومية ، وهي كما ذكرنا شعراً :

أولها : تطهير القلب .

وثانيها : التفرد في الخلاء .

وثالثها : الاخلاص لله وحده .

ورابعها : استقبال القبلة عند الدعاء .

وخامسها : الوضوء ..

ويضيف اليها شروطاً أخرى يقول عنها ، انها مستحبة مثل صوم يوم الخميس وأن

---

(١٦) ينظر د/زكي مبارك . التصوف في الأدب والأخلاق ج٢ ص ١١٧: ١١٨

تكون تلاوة اذكار يوم الجمعة سحراً ، لما للصوم من كسر غلواء الجسم ومطالبه المادية ، ولما للسحر من صفاء ونقاء وسكون وهدوء يؤثران على النفس ، ويعدانها اعداداً طيباً لتلقي الفيوضات الإلهية . وتحديده ليلة الجمعة بالذات لأن الله فضل ليلة الجمعة ضمن ليالي الأسبوع ، لحكمة لا يعلمها الا هو .

ثم يقول : «إن من استكمل تلك الشروط ثم دعا ربه منيباً متضرعاً وجد الإجابة يقيناً»[١٧]

ويختم نصيحته قائلاً :

فـعَـوّل عــلــيــه في المهــمــات داعــيــاً بــيــاء الــنــدا مســتــهــديــا مــتــوكــلاً

والواقع أن أبا مسلم لم يبتدع طريقة جديدة للذكر حين وضع هذه الشروط ، ويبدو أنه نقلها عن كتاب شيخه وإمامه سعيد بن خلفان الخروصي الموسوم «النواميس الرحمانية» حيث نجد الشيخ يذكر الشروط نفسها : الخلوة ، والطهارة ، واستقبالالقبلة، واستدامة الصيام ، والتقليل من الأكل والشرب ، والصبر والإخلاص . وهو يذكر أنه نقل ذلك عن الإمام الحجة أبي حامد الغزالي . ويضيف الشيخ سعيد : «وفي قول الإمام الحجة أن الحصن من قواطع الطريق أربعة أمور : الخلوة ، والصمت ، والجوع والسهر. فقد قيل صفة الأبدال : أكلهم مأفنة ، ونومهم مغلبة ، وكلامهم ضرورة . فالصمت يسهل بالعزلة ، والسهر بالجوع ، ومنها ينجلي القلب ، ويصفو ، ويتنور ، ويكون كالمرآة المجلوة ، فيلوح منها جمال الحق ، وتشرق فيها أنوار الآخرة »[١٨] .

على أننا لا يمكن أن ننفي الصلة بين ابتهالات أبي مسلم وشعر التصوف ، لأننا لاحظنا في هذه القصائد استمداداً واضحاً من عالم التصوف لغة وتعبيراً ، وتوظيف مصطلحات لها دلالات معينة عندهم . وسنعود الى هذه القضية بالتفصيل في مكانها .

---

(١٧) الديوان ، طبع التراث ، ص ١٣٨.

(١٨) النواميس الرحمانية . طبعة حجرية . د.ت ص ٨٩، ٩٠

وبما أن المجال لا يسمح بأن نأتي بأمثلة شعرية لكل ما ذكرناه ، فانه من الضروري الوقوف عند بعض المحاور التي رأينا الشاعر يقف عندها طويلاً ، ويردد الطواف حولها متبتلاً .

والحاح الشاعر على هذه المحاور بالذات استجابة نفسية طبيعية لما يشعر به ، ودعاء من الله ليستجيب له حاجاته تلك إذ تغدو أسماء الله الحسنى عند الشاعر وسيلة للدعاء وطلب الإجابة .

– من هذه المحاور التي يفتتح بها تلك المقاطع عادة ، التوبة النصوح ، والندم مما بدر منه في جنب الله ، والندم والتوبة أو المقامات التي يشترطها الصوفية في تنقية النفس ، وتطهيرها ، لتلقي المعارف اللدنية :

إلهي قد اشتدت الى الله فاقتي	**وشدت الى معروف جودك نُجعتي**
إلهي من حاجات نفسي توبة	**علي وغفران وعفو لزلتي**
وأكبرها الرضوان عني بجنة	**أجاور فيها خاتم الرُّسُلِيَّةِ**
إلهي ان كانت ندامة من عصى	**متاباً فإني نادم من خطيئتي**
ندامة مضطر ندامة متق	**ندامة مغرور بدنيا دنية**
ندامة عبد فارق الكون كله	**اليك ، ولم يعبأ بكثرٍ وقلة**

وقد يكون محور الذكر فرصة ليعرض نفسه على ربه دون مواربة أو تكلف ، لأن مقام الدعاء هو مقام استغفار من الذنب فعلاً ، كما جاء ذلك عنده في المقطع الذي عنوانه : (غافر الذنب جل جلاله) .

ويا غافر الذنب اغتفر لي قبائحاً	**تجشمتها في جهرتي وسريرتي**
تعودتها لا عذر لي في اقترافها	**سوى خستي طبعاً وشدة شهوتي**

إلــهـي اكـتـسـبـت الإثـم عـمـداً كـأنـه لـكثرة مـا آتـيـه أعـظـم قـربـة
يـنـبـهـني الـقـرآن في غـفـلـة الـهـوى فـأصـدف عـنـه مسـتـمـراً بـغـفـلـتي
ومـا صَـدفـتي جـحُـدُ ، ولـكـنـهـا هـوى دهـاني الى أن صـار وصـفـي وحـيـلـتي
أقـل عثرتـي يـا غـافـر الـذنب إن لي يـقـيـنـا بـغـفـران وجـود ورحـمـة
إذا انـتـابك المسـتـغـفـرون بـحُـجّـة فـجـودُك ربـي حُـجّـتـي ووسـيـلـتي

يقول :

– ومن المحاور التي يقف عندها أيضاً ، وترددت في أذكاره وأدعيته ، طلب العلم اللدنى ، وهو ما يسميه الحكمة ، أو علم الأسرار ، فقد كان فيما يبدو شغوفاً بهذا العلم الذي جاهد نفسه من أجل الوصول إليه ، وقيل إنه كان ممن يعلمونه تأسياً واقتداء بشيخه الخليلي .

يقول :

عـالم الـغـيـب والسـعـادة عـلام الـغـيـوب الـعـلـيـم عـلـمك هب لي
واهب الـفـيض ادع قـلـبـي بـالحكـمـ ـة والـعـلـم يـاحـكـيـم ومَـلّ
يـا مـفـيض الأنـوار نـور السـمـاو وات ، والأرض أجـل رين ظـلـمـة جهـلي
مـنـعـتـنـي عـن الحقـائـق حـجب مـزق الحجب يـا مـبين وجَـلّ
يـا بـديـع أكشـف لي الـبـدائـع واقـذف شُـعَـل الـفـهـم والـذكـاء بـعـقـلي
يـا سـمـيـع اكشـف لي سـتـائـر أسـرا ر الأسـامي ، واسـمـع دعـائي ووهـلي

يشكو الى الله إملاقه وعسرته :

– ومن مطالبه التي طالما رددها أن يوسع الله له في الرزق ليكفيه ذل السؤال والحاجة ، ويسأله متضرعاً ألا تلجئه الفاقة إلى أن يذل نفسه ، ويكسر خاطره أمام الخلق ببسط يد السؤال فـان موقـف الذل لا يرضاه لنفسه سوى أن يكون كذلك لمولاه :

بطولك ملكني غنى غير نافد وهب لي ملكاً مدة العمر كافياً

ووفر لي النعماء وافتح خزائن الـ مواهب وابسط ووسّع ثرائيا

وصن بالغنى يا مالك الملك والرضا صحيفة وجهي من ذليل مثاليا

ولا تلق حاجاتي الى غير قادر على النزع والإيتاء ما دمت باقيا

فلا خير الا من يديك ولا غنى لك الملك توتي الفضل تولي الأياديا

وهو كلما دعا الله أن يوسع له في الرزق والثراء ، يذكر أن طلبه ليس من أجل نعيم الدنيا وزخرفها ، أو حباً في المال لذاته ، وانما ليصونه ذلك عن التذلل للناس ، جميعاً بمن فيهم الأهل والأقارب مشيراً الى ذلك بالتصريح لا بالتلميح :

عسى نفحات اسم الرحيم تكون لي على خطة أعيت لحالي وقوتي

عسى نفحات اسم الرحيم تنيلني بوسع ندى يجتاح فقري وعسرتي

عسى نفحات اسم الرحيم تقوم بي وقد قعدت عني رجالي وأسرتي

وقد تنزل به فيما يبدو عسرة ، وتكثر حوله المطالب ، فلا يجد سبيلاً لدفعها سوى الوقوف بباب الوهاب الذي لا تنفد خزائنه ، وهو طالما أطال الدعاء طالباً أن يرفع الله عنه الحاجة والفقر ، مستجيراً متضرعاً شاكياً .

ببابك يا وهاب أملقت مخفقا وأقويت مجهوداً بأسر البلية

ببابك يا وهاب أخلصت رغبتي وأوردت آمالي وأنزلت بغيتي

عنائي عناء المجهدين وحالتي بعلمك ، فاجبر عيلتي ، وإشف غُلتي

وأنت الجواد الحق لا وهب مطلقاً من الخلق الا منك يا ذا العطية

إلهيَ هب لي من مواهبك الغنى عن الخلق في نفسي وفي واجديتي

ورب قائل يقول ، كيف ينسجم هذا الخلق الحريص مع الزهد في متاع الدنيا الذي هو الطابع الذي يفترض في شخص مثل أبي مسلم ؟

يقول الإمام الغزالي في هذا الصدد :

«ولا بأس أن يحمد المتصوف ما في الحال من الحظوظ الدنيوية ، كالخلاص من ذل السؤال ، وحقارة الفقر ، والوصول الى العز بين الخلق ، واكثار الإخوان والأعوان والأصدقاء والوقار والكرامة في القلوب» [١٩] .

ونحن نعلم من أخبار أبي مسلم أن من صفاته التي شهد بها الجميع ، كرمه الحاتمي حتى انه لا يترك في يده درهماً ولا ديناراً كرماً وسخاءً ، فما أن يصل يديه متاع من متاع الدنيا ، إلا وبدده انفاقاً يميناً وشمالاً ، ولذا نعته ابن عمه حين رثاه بأنه أبو اليتامى والفقراء والمساكين . فلا عجب إذاً أن تضيق حاله المادية ، من حين الى آخر ، بما يدفعه الى طلب المدد من الله لينقذه مما هو فيه من ضيق إلى سعة ، ويحوله من عسر الى يسر [٢٠] .

رب اشكو اليك فقراً وذلاً	واحتياجاً لبيّن الفقر مثلي
رب أنت الغني ذو الرحمة الوا	سعة املأ كفي رجائي بفضل
رب لم تنفد الخزائنُ والطّو	لُ، ولا ضاقت الايادي بنيل

وهذه الحال المعسرة لم تغير حاله من الرضى إلى السخط، وما كانت شكواه احتجاجا وضيقا بقدر ما هي طلب للرزق والعطاء، ممن لا تنفد خزائنه.

رب تعطعي لحكمة بالمقادير	ر وتعطي بغير وزن وكيل
رب أن تعطني فقد نضب الما	ء ، وجف المرعى ، لشدة محلي
رب أشكو اليك طَرْقَ الرزا	يا ، جلبت لي حرباً بخيل وَرَجَل

---

(١٩) التصوف في الأخلاق والأدب ص ١٤٠ نقلاً عن احياء علوم الدين ٣ج ص ٥٠.

(٢٠) الديوان ، نشر وزارة التراث ص ١٣٣.

دعاؤه على الكافرين والمتجبرين :

إن أبا مسلم حين يعبر بالشعر ، يعبر عن واقع أليم يعيشه هو ويعيشه قومه ، وتعيشه أمته الإسلامية معه ، فهو شاعر حساس بآلام وآمال نفسه ومجتمعه من حوله ، مما يميزه عن شعراء الأبراج العاجية ، والكهوف المنعزلة ، وينفي عنه كل سلبيات الزهد ، والتصوف ، فبالإضافة الى ما عرف عنه من أفكار في الإصلاح الديني والإجتماعي حتى انه ليعد في زمنه أحد الإصلاحيين الذين حاولوا معالجة أدواء المجتمع العماني على كل الأصعدة سياسياً ، ودينياً ، وفكرياً .

فقد عرف أيضاً بموافقه السياسة ولا سيما قصيدته التي يحفظها أغلب العُمانيين ، النونية ، أو قصيدة الفتح والرضوان ، وليس هنا مجال الحديث عنها ، فقد تحدثنا عنها في دراسة سابقة .

إذاً ، فان الاتجاه نحو هذا الفن الشعري ، لم يحل دون أن ينطلق الشاعر الإسلامي المتحرك بسجيته التي عرفت عنه ، وطبيعته المتفتحة على العالم الإسلامي من حوله ، ومعايشة هموم مواطنيه في عُمان ، وزنجبار و شرق افريقيا ، والمغرب وغيرها .

ومن وحي هذا الإحساس نراه يهتبل كل فرصة في ابتهالاته ليرسل النبال المحمية الى الظلمة ، والكافرين ، ومن لف لفهم ، فهو يستخدم الدعاء وسيلة ، كما استخدمه الرسول صلى الله عليه وسلم في حربه مع المشركين والكفار ، لذا نجده يتوجه بكل جوارحه حين يكون الذكر اسماً من أسماء الله الحسنى ، التي تحرك في نفسه هذه المعاني مثل : الجبار ، القهار ، القابض ، والحافظ ، والمذل ، والقوي ، والقادر ، والمنتقم، وسريع الحساب ، شديد العقاب ، الحضرة القاصمة ، وغيرها ..

ولنأخذ – كمثال – هذا الدعاء الذي فيه على الظالمين الذين طالما ذكرهم دون أن يحدد صفاتهم وأسماءهم ، ثم هو لا يذكر ، أهو ظلم لحق به وحده أم هو ظلم أصاب أمته .. ومن خلال الأبيات نستطيع أن نستشف ذلك من هذه المقطوعة .

تحت عنوان : الحضرة القاصمة يقول :

رب قهر الرجال أشكو فياقا (م) هِرُ هب لي قهراً يُذِلُّ مُذِلّي

يا شديد العقاب ذو البطش والأخذ الأليم الشديد خذهم بعدل

وارث الأرض خذهمُ وأبدهم وانتصر لي منهمُ وخذ لي بذحلي (*)

كادني الخصم يا حسيب فكده أمتن الكيد لا تدعه بمهل

أرني العدل فيه قائماً بالـ قسط والعدل منك ليس بسهل

رب أنت الشهيد والحكم العد ل انتصف لي من ظالمي واشف غِلي

في المقطوعة السابقة أشار الى ظالمه بقوله : قهر الرجال ، والخصم ، ولم يزد على ذلك ، ولكننا نجده أحياناً يشير إلى الظالم اشارة واضحة كما جاء في مثل قوله :

دعوت دعاء المستجير وأنت يا قريب ترى ما مس جنبي فأَعضَلا

ايدركني ضيم نصيري ، ومن تكن له ناصراً مولاي كان المبجّلا

بعزك مجدّ يا مجيد مهابتي يظل لها خصمي العنيد مذللا

وكد من رماني يا ودود بكيده فكيدك للأعداء لا زال أمثلاً

وقد يكون الظالم طاغية جباراً ، وهذا نوع آخر من الظلمة الذين طالما رفع أبو مسلم أكف الضراعة لينزل الله عليهم عذابه وانتقامه .

رب أشكو اليك طاغية فاكـ بته كبتاً وأبهله أعظم بهل

رب نكل به وشدد عليه وطأة الإنتقام في غير مهل

أعطني قوة عليه وحولا ليس يقوى بغير حولك حولي

مدني من قوى سطاك (*) بقهر واقتدار يطويه طي السجل

(*) الذحل : الثأر.

(*) السطا : جمع سطوة : القهر والغلبة .

والذي ضاعف من محنة أبي مسلم فيما يبدو قلة النصير، وخذلان الأقرباء والأصحاب، لذا فهو يطلب النصرة من ربه مستخدماً في ذلك ألفاظاً قوية تزلزل النفوس، وتهز الأفئدة :

غارة الله أدركي نصرتي إذ عزني النصر من قريب وخل
غارة الله جردي صارم المقـ ت على مفرق الظّلوم المضل
غارة الله بيتي الكفر والطغـ يان . أو صبحيه منك بشكل
غارة الله قد ظُلِمتُ وشكوا يّ إلى من يرى ويسمع ذلي
غارة الله بالصواعق من نِقْـ متـه فاحصبي (*) العدا واستهلي

إلهيَ أشكو ظالماً أنت حسبه ترفع طغياناً على ضعف قوتي
تراءت له الدنيا كأكلة جائع فساغت له أكلاً ويا شر أكلة
فيا خافض أخفضه بأسفل سافل وسلط عليه الرجز من كل وجهة
وادركه محفوضاً على أم رأسه الى دركات المهلكات الوبيلة

وأحياناً يعينه بالذات، ويصوب اليه سهم دعائه ليصيبه في مقاتله :

إلهي عبد من عبيدك ظالم رماني بسهم الظلم منه فأصمت(*)
تخطى خطا العدوان للمكر آمنا وعينك بالمرصاد من كل خطوة
فيا عدل أوبقه بعدلك إنه تمادى على الطغيان والأشرية (*)
تعاليت ما في الملك إهمال ظالم ولا ردّ مظلوم ببابك مخبت (*)

(*) احصبي العدا : أي القيهم في نار جهنم ليزداد اشتعالها . (*)أصمت : أصابت .

(*) مخبت : خاشع . (*)الأشرية : البطر .

وتنداح دائرة الدعاء على الظالمين أفراداً لتشملهم جماعات ودولاً . وما كان شاعر مثل أبي مسلم يعيش آلام أمته الإسلامية بكل خلجات قلبه ، ويتابع أخبارها بكل جوارحه ، أن ينساها ، وفي هدأة الليل ، حين تصفو النفس ، وتزال بينها وبين ربها حجب المادة ، وأوضار الحياة اليومية ، يرفع يديه لاهجاً بالدعاء الى الله ليغير من واقع أمته العربيـة والإسـلاميـة التـي كـاد لهـا المستعمـرون ، بكـسر شوكتهم ، ومحـق دولتهـم .

ويـا قـاهـر اقصـم دولـة السـوء وامحهـا	وشـرد بـهـا وأشـدد عـلـيـهـا مـعـجـلاً
ويـا بـاعـث ابـعـث رايـة الحق حـولـهـا	جـنـودك تـبـلـو في رضـاك وتـبـتـلـى
ويـا قـائـمـا بـالـقـسـط قـوم مسـدداً	قـويـاً عـلـى اظـهـار ديـنـك فـيـصـلا
يصـول سـريـعـاً يـا سـريـع بـنـقـمـة	عـلـى كـل ضـلـيـل عـن الحق أجـفـلا
ويـا قـابض اقـبض بسـطـة الخصـم وانـتـقـم	كـفـعـلـك في عـاد ومـديـن أولا
وشـدد عـلـيـهـم يـا شـديـداً عـقـابـه	ولا تـبـق مـنـهـم يـا وكـيـل مـبـدلا
وعـجـل عـلـيـهـم يـا مـقـيت بـوطـأة	وذرهـم حصـيـداً خـامـديـن كـمـن خـلا

وعندما يكون الدعاء على الكافرين فإنه يعني بهم أولئك الذين ظلموا بلاده العربية والإسلامية واستباحوا خيراتها ، وفرقوا بين أهلها ، وتجبروا على أبنائهابالخبائث والمنكرات .

إلـهـي مـذل الـكـافـريـن بـكـفـرهـم	بـعـلـمـك فـعـل الـكـفـر في الـقـدمـيـة
إلـهـي تـعـدى خصـمـك الحد واعـتـدى	عـلـى حـرمـات الـلـه بـالأغـلـبـيـة
فـأرسـل عـلـيـه يـا مـذل قـواصـف الـ	نـكـير ، وسـربـلـه بسـربـال لـعـنـة
وصب عـلـيـه الـذل قـلـبـاً وقـالـبـاً	وفي جـاهـه والمال والـتـبـعـيـة
مصـائب ذل تـخـتـبـطـن (*) حـيـاتـه	ويـحـطـمـنـه حطـم الـدريس (*) المفتت

(*) تختبطن حياته : بما يفسد عليها أمرها ويعكرها بالشر والأذى .

(*) الدريس : هو كل ما يدرس ويحطم تحطيماً ، من درس يدرس .

ومن خلال أدعيته على الكافرين ، ويقصد بهم الإستعمار الأجنبي ، وعملاءه فإنه. وهو يدعو على الظالمين المعتدين – يدعو لنصرة أهله وقومه ، وبني ملته ، وعقيدته من أهل الإستقامة . كما جاء في مثل قوله مسبحاً معظماً اسم الله القوي ، مؤمناً بأن العاقبة للمتقين ، ولو كانت القوة الى جانب الأعداء فان قدرة الله أقوى وأعظم تحيل القوي ضعيفاً ، والغالب مغلوباً في لمح البصر .

قوي على التغليب والفتح عاجلاً	**لأهلك أهل العدل في أي بقعة**
فجرد لنصر الإستقامة قوة	**تصول بسيف من سيوفك مصلت**
فليست قوى الأعدا وإن جد جدها	**بقائمة للقوة الأزلية**
وما أشر الأحداث وهي ضعيفة	**مؤشرة للقوة القدرية**

وفي الذكر الخامس الذي عنوانه (درك المنى في تخميس سموط الثناء) وهي قصيدة للشيخ سعيد بن خلفان الخليلي – كما هو معلوم – ، يبلغ أبو مسلم في هذا الاتجاه المبلغ الأسنى ، ويتناغم صوته مع صوت شيخه في الدعاء ، فيصعد الى عنان السماء ، دعوات ملتهبة ، وصواريخ منقضة على رؤوس الكافرين والظالمين .

وان المرء عندما يقرأ هذه القصيدة لا يكاد يميز بين ما كتبه الشيخ سعيد بن خلفان وبين ما كتبه أبو مسلم لتوهج العاطفتين والتقاء الرؤيتين ، ونشير بالتعيين الى الفصول الآتية ، منها :

فصل في شكاية إضاعة سنن الإسلام برفع حدوده ، وتعطيل الأحكام .
وفصل في الدعاء على أعداء الإسلام بقطع دابرهم واستئصال أولهم وآخرهم .
وفصل في المقصد الأسنى ، وهو اظهار دين الله على يد قائم مولاه .

وبما أن القصيدة طويلة ، فاننا نختار من كل فصل مقطعاً نحسبه دالاً على الفصل معبراً عنه ليتضح لنا ذلك الإنسجام الكامل بين التلميذ وشيخه أي بين أبي مسلم والشيخ سعيد بن خلفان :

الديوان – طبعة وزارة التراث القومي والثقافة ص ٥٨.

ومــن لي وسـيـف الـعـدل بين جـفـونـه
ولـلـجـور سـيـف شـاهـر في يمـيـنـه
ومــن لي وأهــل الـلـه تحت مـتـونـه

ومــن لي بــأن يــرضـى الإلــه لـديـنـه بـتـعـطـيـل أحـكـام ورفض حـدود

الى أن يقول في الفصل نفسه :

ومـن لي بسـهـم في يـد الـلـه مـرسـلا يـفضـفض حـيـزوم الأعـادي مجنـدلاً [٢١]

إذا انـقـض هـز الـكـون وارتـعـد الملا

ومن لي بسيف يقطع الهام والطلى [٢٢] ويـفـري مـن الأعـداء كـل وريـد

ومن الفصل المعنون ، (في الدعاء على أعدائه بقطع دابرهم واستئصال أولهم ، وآخرهم) ، نورد ما يلي :

ومـزقـهـم الـلـهـم كـل ممزق
بـأهـلك غـلـبـاً فـيـلـقـاً بـعـد فـيـلـق
ونـكـل بـهـم وامحقـهـم بـالـتـفـرق

ويـا رب مـزق كـل سـور وخـنـدق عـلـيـهـم ، وحصـن شـامـخ ووصـيـد [٢٣]

لـقـد وطـئـوا الـدنـيـا بـرجس مـرجس
فـعـاثـوا بـظـلـم في عـبـادك مضـرس [٢٤]
شـيـاطين مـلـعـونين مـن كـل مـبـلـس

فـطـهـر بـقـاع الأرض مـنـهـم بـأنـفس مـن الـبـغـي تجريـهـا بـكـل صـعـيـد [٢٥]

---

(٢١) يفضفض : يشق ويوسع . الحيزوم : وسطا الصدر . مجندلاً : مضروباً (٢٢) الطلى : الأعناق.
(٢٣) الوصيد : الجبل والكهف . (٢٤) مضرس : قاطع طاحن (٢٥) صعيد : أرض .

وفي الفصل : في المقصد الأسنى ، وهو اظهار دين الله على يد قائم مولاه :

متى تخفق الرايات فوق مؤزر
مظفرة تجرى بجيش مظفر
إلهي أيد قائم الحق وانصر

وعجل بنصر منك للدين معظم   وعن كيد من عاداك غير مكيد

متى السمحة البيضاء ترقى سماءها
متى عزة الإسلام تحمي فناءها
متى فطرة التوحيد تلقى رجاءها

وتنشر أعلام العلوم لواءها   بأسياف عدل لم تلق بغمود

وقال في قصيدة أخرى :

وأيد الإسلام بالكرامة   والمجد والعز والإستقامة
وارفع على أضداده أعلامه   ونكس الشرك ومن والاه

بحق لا إله إلا الله

وأكسر قوى أعدائه معجلاً   مستأصلاً شأفتهم مذللاً
حتى متى الإسلام منهم مبتلى   نصرك يا غوثاه يا غوثاه

بحق لا إله رلا الله

وهكذا نجد الشاعر أبا مسلم في كل قصائده ينتفض حزناً وينزي ألماً لمصير أمته الإسلامية ، حزن وألم ، شاعر مؤمن حساس . يدفعه إيمانه القوي المتشبع بروح القرآن وتوجيه القرآن الى أن يكون حتى في أصفى ساعات التجلي الروحي والسمو الإبتهالي قريبا من واقعه الأرضي يعايش واقعه وواقع وطنه وأمته . ولذلك يصبح الدعاء سلاحاً حاداً فيه العبادة ، والتجلي والحضور . وذلك هو سر الإبتهال الصادق النابع من قلب يؤمن بالله رباً يخلص العبادة له وحده ويتخذ من تلك العبادة الخالصة وسيلة يتقرب منها الى رب العالمين ليفيض رحماته على العالمين .

المدائح النبوية

من المحاور البارزة في قصيدة الإبتهال عند أبي مسلم : المديح النبوي ، وهو عنصر هام في الإبتهال عند الشاعر لأنه في تصوره ركن أساسي لا يتم الذكر إلا به ، صرح بذلك في مقدمة تخميسه لسموط الثناء ، ودل على ذلك من خلال قصائد الذكر الكثيرة التي يختتمها دائماً بمدح الرسول ﷺ، معتبراً ذلك وسيلة ودعاءً وذكراً .

ويقول د/زكي مبارك «المدائح النبوية من فنون الشعر ، التي أذاعها التصوف ، فهي لون من التعبير عن العواطف الدينية ، وباب من الأدب الرفيع ، لأنها لا تصدر إلا من قلوب مفعمة بالصدق والإخلاص .

وأكثر المدائح النبوية قيل بعد وفاة الرسول ﷺ، وما يقال بعد الوفاة يسمى رثاء ، ولكنه في الرسول يسمى مدحاً ، كأنهم لحظوا أن الرسول موصول الحياة .. في أمته التي ترك فيها سنته وهداه ، فهم بهذا يخاطبونه كما يخاطبون الأحياء .

و لم يكن فناً ظاهراً بين الفنون الشعرية كالرثاء ، والوصف ، والنسيب ، وانما هو فن نشأ في البيئات الصوفية ، و لم يهتم به من غير الصوفية إلا القليل» [٢٦].

قد يكون انتشار هذا الفن وتخصصه وذيوعه جاء في أعقاب التصوف كما يقول الدكتور زكي مبارك ، ولكن لا يعني ذلك طبعاً أن المتصوفة وهم أو هم الأغلبية كما أشار في هذا الفن .

إذ نلحظ عناية بالمدائح النبوية في الشعر الإسلامي ، وإن اختلفت بين الشعراء من جيل الى جيل آخر .

والدارس عندما يتتبع المديح النبوي عند شاعرنا أبي مسلم من خلال قصائد الابتهال ، يلحظ أن الشاعر يعتبر المديح ركناً أساسياً في الإبتهال لا يتم الذكر الا به ،

---

(٢٦) د/زكي مبارك . المدائح النبوية في الأدب العربي . منشورات المكتبة العصرية ، بيروت ، لبنان . (ط : ١) ١٩٢٥ القاهرة ص ١٧، . (بتصرف) .

فمن محاور القصيدة عنده أن تكون مختتمة بالصلاة والسلام على أشرف الخلق محمد ﷺ، وكان ذلك رأيه وقصده في كل ما كتبه من قصائد الإبتهال اضافة الى قصائد خصصها للمديح النبوي وحده ، ومن ثم فقد أشار بأسلوب مهذب ، وبطريقة ذكية الى خلو قصيدة «سموط الثناء»لشيخه سعيد بن خلفان من هذا العنصر الأساسي الهام في تصوره ، حيث يقول «إن هذه الدعوة لم تتصل بنا مذيلة بصيغة صلاة على رسول الله ﷺ . على أنني أجزم بطريق حسن الظن في حضرته – رضي الله عنه – بأنه لم يترك ذلك احتمالاً للأولى ، فان له في سوابق الخير ، وأعمال البر ، وعلم الأذكار القدح المعلى ، فإنه وإن لم يأت بها في متن النظم ، فلا نرتاب في إتيانه بها حالة الذكر ، تشرعاً بالواجب ، وتذرعاً بالأفضل .

ولكن تجاسرت تجاسر العبد على مولاه ، بأن نظمت لها صيغة صلاة . وفاء بالواجب عليَّ لا تلافيا لتقصير اعتده على ذلك القطب [٢٧] .

وأول ما يلفت النظر في تلك القصائد هذا الحب الجارف الذي يشعر به الشاعر لرسول الله ﷺ يستخدم لذلك كل ما عليه من طاقة تعبيرية وتصويرية ، صادراً عن ايمان عميق واعجاب شديد بنبي الإسلام ، حتى صار حبه له حباً جِبِلّياً كما يقول :

أنوار حبك في قلبي قد انطبعت	جِبِلّة كانطباع الشمس في القمر
ما زال حبك في روحي يخامرها	حتى تجردت عن عيني وعن أثري
ما للمحبة مقدار اذا اقتصرت	الحق حبك حب غير مقتصر
تجرداً من هنات كلها حجب	لا وصل والحب محجوب بذي الستر
أدعوك خلف حجاب الكون منبسطاً	في بسط حبك لم أخلص من الأثر
ذهلت عن كل شيء مذ علقت به	فلا أفرق بين الصفو والكدر
لا أحسب الروح إلا أنها خلقت	من الهوى فاختفت عن عالم الصور [٢٨]

(٢٧) الديوان . ط التراث ص . ١٤٥ .

(٢٨) الديوان طبعة التراث ص ٢٧٦ .

وقال من قصيدة أخرى :

عليل وما بي علة غير أنني سلوكي حب المصطفى صار علتي

عليل غليل غالني حب أحمد فما حيلتي أموت بِغُلّتي

فليت فنائي كان في فيء (طيبة) إذا فاه فوه القبر فهت بلهفتي

قُتلتَ قتيل العذل في دار حِبّة وقلت لقلبيَ اقبل، و كبدي تفتتي [٢٩]

ويدلك شعر أبي مسلم في مدح النبي محمد ﷺ على حب عظيم، واعجاب لا يوصف، تراه يضفي عليه من الصفات العظيمة مصداقاً لوصف الله – سبحانه – لرسوله ﴿**وإنك لعلى خلق عظيم**﴾ [٣٠]، ولكنه ينساق أحياناً في هذا الاتجاه فيأتي بصفات يحتاج المرء في فهمها الى فهم مصطلحات الصوفية .

يقول في احدى أذكاره وهو يصف الرسول ﷺ :

هو الجامع الأسماء جمع تحقق ومشكاة مصباح الصفات الجليلة

هو الجامع الأسرار في جيب سره هو المشرق الأسرار في أي وجهة

هو الكاشف الأستار عن نيّر الهدى هو الباعث المبعوث بالحنفية

هو الأول المكنون في أبحر الخفا هو الآخر المقصود في كل رتبة

هو الظاهر المعلوم قبل ظهوره هو الباطن الخافي بكل حقيقة

ويستمر في تتبع هذه الصفات التي يحتاج المرء في فهمها إلى الوقوف على بعض المصطلحات الصوفية كما ذكرت، مثل قوله : «هو الجامع الأسرار» وقوله : «هو الكاشف الأستار . وهو الأول المكنون في أبحر الخفا» إلخ .. إلى أن يقول مخاطباً الله – عز وجل –:

---

(٢٩) الديوان طبعة التراث ص ٢٨٧.

(٣٠) سورة القلم . الآية ٣ .

تولّيته واخترته وملأته بنورك واستخلصته للمحبة
وبوّأته من كل خير أتمّه وأذكاه ، والأكوان في العَدَمِيَّةِ
فكل مزايا الرسل والأنبياء في بحار مزايا شأنه حكم نقطة
وما طمع الأملاك والرسل مطلقاً بأن يبلغوا مقداره مع نسبة
ولا جنح الأبرار أن يتزلفوا اليك سوى من بابه عند قربة

إن هذه الصفات التي يضيفها أبو مسلم على الرسول الكريم من أفضلية للخلق ، بما فيهم الأنبياء والمرسلين واستمدادهم أنوار الهداية ، – يذكرنا ولا شك – بقول البوصيري في بردته ذائعة الصيت :

وكلهم من رسول الله ملتمس غرفاً من البحر أو رشفاً من الديم
وواقفون لديه عند حدهم من نقطة العلم أو من شكلة الحكم
وكل آي أتى الرسل الكرام بها فانما اتصلت من نوره بهم
فإنه شمس فضل هم كواكبها يُظهِرْنَ أنوارها للناس في الظُّلم

وأبو مسلم حين يصف الرسول الكريم ، نراه يوظف كل امكاناته العقلية والفنية ، ليصل بمدحه الى أعلى مستوى ، الى الحد الذي يقف فيه الدارس أحياناً عاجزاً عن فهم بعض الرموز والصفات التي يأتي بها ، لأنها مستمدة – ولا شك – من عوالم الصوفية، مثل قوله :

وآثرته من بين خلقك كلهم بأن كان أصل الكائنات البديعة
وآثرته من بين خلقك كلهم بأن كان عند الله خير وسيلة
وآثرته من بين رسلك كلهم بأن جاء مبعوثاً الى خير أمة [31]

(٣١) الديوان طبعة وزارة التراث القومي والثقافة ص ١٢٩ .

إن وصفه بأنه خير الخلق ، وأنه خير وسيلة ، وأنه خير مبعوث إلى خير أمة فذلك كله مفهوم ومشروع ، ولكن الذي لم نفهمه ، ولم نستجل حقيقته وأبعاده هو قوله «بأن كان أصل الكائنات البديعة ».

يا مصطفى الله يا مختار نظرته ... يا أصل ما أظهر الإبداع من فطر
يا رحمة الله يا مبعوث رأفته ... يا مظهر اللطف في الأرواح والصور
يا أول الكل بعد الله مبتدعاً ... وأول الكل عند الله في الخطر
يا ظاهراً بكمالات الظهور على ... كل الظواهر في سلطان مقتهر
يا باطناً لم تفته الباطنات ولم ... يدرك مقاماته علم من الفطر
أنوار حبك في قلبي قد انطبعت ... جِبِلّةً كانطباع الشمس في القمر

إلى أن يقول :

فِداً لك الكون لا أسلو بزهرته ... عن فرط حبك يامن حبه وزري
وكيف تفدى بكون أنت علته ... لولاك ما أوجدت موجودة الفطر

ويقول في قصيدة أخرى :

أهلاً بمن خلق الوجود لأجله ... سر الوجود وفاتح الأقفال
أهلا بمغني العالمين بجوده ... دنيا وأخرى عتبة المفضال
فعلى يديه حظوظهم مقسومة ... حتى السعادة قسمة الأنفال (٣٢)

والواقع اني عاجز عن فهم قوله : أنت علة الكون ، ولولاك ما أوجدت موجودة الفطر ، إلا بعرضها على ما جاء عن محيي الدين بن عربي ، حيث يقول :

«إعلم أن الله لما خلق الخلق جعلهم أصنافاً ، وجعل في كل صنف خياراً ، واختار

---

(٣٢) الديوان ، ص ٢٨٣.

من الخيار خواص ، وهم المؤمنون ، واختار من المؤمنين خواص ، وهم الأولياء واختار من هؤلاء الخواص خلاصة وهم الأنبياء ، واختار من الخلاصة نقاوة ، وهم أنبياء الشرائع المقصورة عليهم ، واختار من النقاوة شرذمة قليلين هم صفاء النقاوة ، وهم الرسل أجمعهم ، واصطفى واحداً من خلقه هو منهم وليس منهم ، هو المهيمن على جميع الخلائق ، جعله الله عمداً ، أقام عليه قبة الوجود ، وجعله الله أعلى المظاهر تعيينا وتعريفاً ، فعلمه قبل وجود طينة البشر ، وهو محمد ﷺ ، لا يكاثر ولا يقاوم» (٣٣) .

ويشرح الدكتور زكي مبارك هذه النظرية بقوله :

«إن الصوفية يتصورون ذاتاً أحدية ، لا تتكثر الا بالتعينات ، والتعين الأول هو محمد صلى الله عليه وسلم وهو الحكمة الفردية ، وعنه نشأت جميع التعينات حتى الأنبياء، ومن أجل ذلك كان سيد جميع الناس ، وكان خاتم الأنبياء ، وقد حام حول هذه النظرية كثير من أقطاب الصوفية» (٣٤) .

«إن أثر التصوف الفلسفي واضح في هذه النظريات الغريبة عن الإسلام وبساطته، ووضوحه ، إنها نظرية متأثرة بالفلسفة القائلة بوحدة الوجود ، وهي الفلسفة التي أقام عليها ابن عربي تصوفه ، بل نقول مدرسته الصوفية ، حتى قيل إنه لا يمكن أن يفهم ابن عربي في أي موقف من مواقفه الفكرية ، إلا بفهم نظريته في وحدة الوجود ، وإيمانه بوحدة «الحق» (الله) والخلق .. (الكائنات) لأنها القاسم المشترك الأعظم الذي يظل كافة آرائه ووجهات نظره . فوحدة الوجود هي المنظار الذي أبصر من خلاله ابن عربي كل شيء سواء أكان ذلك في عالم الفكر ، أم في عالم السلوك » (٣٥) .

وأبو مسلم عندما يتوسل بالرسول ﷺ ، يضفي عليه صفات ما تعودنا اضفاءها الا على الله – سبحانه وتعالى – مثل غوث الوجود ، ونور الوجود ، وروح الوجود ، وأنس الوجود ، وأصل الوجود ، وعين الوجود ، وعز الوجود ، ويتوجه اليه في دعوته كما يتوجه بها الى الله.

---

(٣٣)الفتوحات المكية ج٢ – ص ٩٧.

(٣٤) د/زكي مبارك ، التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق ج١ ، ص ٢٣١ .

(٣٥) د/محمد عمارة . نظرة جديدة الى التراث ، دار قتيبة ، ط٢ (لا مكان للطبع) ١٩٨٨ ص ١٣٢.

غـوث الـوجـود أغـثـنـي ضـاق مصـطبري	سـر الـوجـود اسـتـلـمـنـي مـن يـد الخطـر
نـور الـوجـود تـداركـنـي فـقـد عـمـيت	بصيرتـــي في ظـــلام الـــعين والأثـــر
روح الـوجـود حـيـاتـي انـهـا ذهـبت	من جعـلـهـا بين سـمـع الـكـون والـبصـر
أنس الـوجـود قـد اسـتـوحشت مـن زلـلي	وأنت أنســـي في وردي وفي صـــدري
عين الـوجـود تـرى بـؤسـي ونـازلـتـي	وفي محالك أنـــقـــاذي مـــن الصـــور [٣٦]

ويتمادى أبو مسلم في هذا الاتجاه حيث يقول :

وجـهت نـحـو رسـول الـلـه نـازلـتـي	وقـلـت يـا نـفس عـم الـنصـر فـانـتـظـري
أمـنـيـة الـفـوز مـنـه غير خـائـبـة	ومـطـمـع الـنـجـح مـنـه غير مـنـحسـر
ونـائـل الخير مـنـه غير مـنـقـطـع	وفـائض البر مـنـه غير مـنـحصـر
بسـطت كـفـي إلى فـيـاض رحـمـتـه	عـلـى يـقين بـدرك السـؤل والـظـفـر [٣٧]

الواقع اننا لم نتعود من الزهاد الأوائل ، والذاكرين الأولياء في عصر الصفاء والنقاء أن نسمع هذا الوصف منهم لغير الله ، ولكنها مفاهيم فلسفية داخلت الإسلام مع ما داخلها من فلسفات أخرى ، وإلا كيف يمكن أن يطلب الغوث في الخطر ، والنور للبصيرة . والأنس من وحشة الذنب ، والانقاذ من الضرر ، كيف يطلب المؤمن هذه الصفات من غير الله ، وهو يسمع ربه يقول : **﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾** [٣٨] ، **﴿وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له﴾**[٣٩] .

فهل نقول في الأخير ، ما دام الشاعر يعتقد في الرسول أنه وسيلة لا غير ، فإنه يجوز له ذلك ، وأن الذي جرأ الصوفية على هذا المنحى استنادهم الى التكريم الألهي الذي كرم به رسوله ، شفيعاً للمؤمنين ، وذلك ما جعله يرفع أكف الدعاء متوسلاً برسول الله قائلا :

---

(٣٦) الديوان . ط الحارثي ، ص ٢٧٥ .

(٣٧) مرجع سابق ، ص ، ٢٧٥ .

(٣٨) الآية (٦٠) من سورة غافر .

(٣٩) جزء الآية (٥٤) من سورة الزمر .

يـا سـيـدي يـا رسـول الـلـه قـد وصـلـت	الـيـك حـالي فصـلـهـا مـنك بـالـنـظـر
فـنـظـرة مـنك في حـالي يـكـون بـهـا	فـوزي بـربـي وانـقـاذي مـن الضـرر
يـا سـيـد الـرسـل ضـاقت كـل كـائـنـة	«بـنـاصـر» فـلـتـكـن لي خير مـنـتـصـر
وإن يضـق بـي أمـري فـهـو مـتـسـع	بـوسـع جـاهك في وردي وفي صـدري [٤٠]

وأحسب أن الأغلبية من علماء الإستقامة وأئمتهم ما زالوا متشددين متورعين في اخلاص الدعاء لرب العالمين ، اللهم الا بعض من شذ في ذلك متأثراً بعصره وقراءاته . وما على المؤمن الا الرجوع الى القرآن وموقفه من هذا ، صريح حيث يقول :

﴿قل انما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد ، فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحدا﴾ [٤١] .

هذه الآية تقرر حقائق منها :

*** بشرية الرسول وتفضيله بالوحي الإلهي .**

*** وأن الله واحد لا شريك له .**

*** وأن لقاء الله ورضاه لا يكون الا بالعمل الصالح وحده وعدم الإشراك به أحداً من خلقه .**

وفي هذا تلميح خفي إلى خلوص التوجه إلى الله وحده بدون واسطة أو وسيلة ، والله أعلم . وقبل أبي مسلم نجد شعراء آخرين يغالون في مدح الرسول ﷺ ، الى حد قولهم ، إنه لولا محمد ما ظهر شمس ولا قمر ، ولا نجوم ولا أعفار ، ولا بحار ، ولا شجر ولا مدر ، ولا جبال ، كما جاء ذلك عن ابن نباتة المصري حيث يقول :

لـــولاه مـــا كـــان أرض لا ولا أفـــق	ولا زمـــان ولا خـــلـــق ولا جـــيـــل
ولا مـنـاسك فـيـهـا لـلـهـدى شـهـب	ولا ديـار بـهـا لـلـوحـي تـنـزيـل [٤٢]

---

(٤٠) الديوان . ط الحارثي ، ص ٢٨٢.
(٤١) الكهف : الاية . (١١٠).
(٤٢) التصوف في الأدب والأخلاق . د/زكي مبارك . ج١ ، ص ٢٢٩.

فهل يعد هذا من مبالغات الشعراء التي هي من وحي العاطفة المتأججة ، فنحمل قول أبي مسلم عليها ؟ أم أنه بلل أصابه من مذهب المتصوفة وآرائهم التي لا تخلو من تطرف وغلو على النحو الذي أوضحناه عند ابن عربي ؟

إن محبة الرسول ﷺ صفة المؤمن الحقيقي ، صفة أوحى بها القرآن الكريم قبل أن تكون سمة لتأثر بفلسفة ما .

ومحبة الرسول ﷺ يتخذها أبو مسلم في دعواته ، وأذكاره وابتهالاته وسيلة يتقرب بها الى الله ليتقبل دعاءه ، أو قربة يتفيأ تحت ظلالها رحمته ، ومن ثم جاءت في الأغلب الأعم خاتمة لتلك الأدعية والإبتهالات وهو يصرح بذلك قائلاً :

إلـهـي بـجـاه السـيـد الأكـرم الـذي — هـو الـرحـمـة العـظـمى لـكـل الخليـقـة
محمـد البر الـرحـيـم الـذي أتـى — حـريصـاً عـلـيـنـا بين بـر ورأفـة
تـوسـلت مـلـتـاذاً بسـلـطـان قـربـه — إلـيك ، وحسـبـي أن يـكـون وسـيـلـتـي
ومـن يـتـوسـل بـالـرسـول محمـد — يـلاق المنـى مـن عين كـل رغـيـبـة [٤٣]

من الواضح هنا كيف نظر أبو مسلم إلى شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم ، من خلال منظار القرآن ، لا من خلال منظار ابن عربي ، ففي البيت الثاني إشارة واضحة للآية الكريمة : ﴿**لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم**﴾ [٤٤] .

ويقول ، متوسلاً بالرسول الكريم :

بـحـق ذكـر نـورك المحمـدي — ببركـات الـنـفس المحمـدي
بسـر فـيض المدد المحمـدي — بـنـفـحـات روحك المحمـدي

يـا حـبـذا مـن نـفـحـات وبشـر (*)

---

(٤٣) الديوان ، ط التراث ، ص، ١١٧ .
(٤٤) التوبة الآية : (١٢٨) .
* الديوان ص ١٩١ .

بـقـربـات المصطفى المحمـدِ		بسبحاته من التهجدِ
بما لـه في مصـدر ومـوردِ		من رتبة ومشهد ومددِ

بنور ما أبطنه وما ظهر

بالمعنويات التي بها انطوى		وبالخصوصات التي بها احتوى
بعرش زلفاه الذي فيه استوى		يا فالق الحب وفالق النوى

صل عليه مدداً لا ينحصر [٤٥]

ويقول من الذكر السابع تحت عنوان الكلم الطيب :

بجاه نور الله مولانا الشفيع		من لم يزاحم في مقامه الرفيع
محمد خير مطاع ومطيع		من استمد النور من هداه

بحق لا إله إلا الله [٤٦]

والذي ننتهي اليه من هذا العرض هو أن التوسل بالرسول في حد ذاته أمر لا يمكن البت فيه جوازاً أو حرمة لأنه على حد تعبير الشيخ سعيد بن خلفان مما اختلف حوله العلماء والفقهاء وقد أجازه الشيخ القطب أطفيش محمد بن يوسف معتمداً في ذلك على أدلة عقلية ونقلية :

ولكن الذي نخالف فيه مع هذا الاتجاه هو التوسل بالصالحين ، أو كل من هم أقل رتبة من الرسول الكريم ﷺ .

وقد يتجاوز الأمر إلى حد التوسل بالابدال ، والأقطاب ، والأحباب والنقباء ، وغير ذلك مما هو معروف عند المتصوفة ، وقد أشار أبو مسلم إلى هذا صراحة حيث يقول :

---

(٤٥) الديوان ، ط التراث ، ص ، ١٩٢ .

(٤٦) المرجع السابق ص ٢٣٥ .

بـــالســـادة الأبـــدال والأقـــطـــاب   بـــالســـادة الافـــراد بـــالأحـــبـــاب
وبـــرجـــال الـــغـــيـــب بـــالأنجاب   بـــالـــنـــقـــبـــاء الـــطـــهـــر الأطـــيـــاب

بـــالســـادة الأوتـــاد بـــالـــغـــوث الأبـــر

بـــدرجـــات الأزكـــيـــاء الســـالـــكين   وبمقـــامـــات نـــفـــوس الـــعـــارفين
وبـــقـــلـــوب الأولـــيـــاء الـــواصـــلين   بـــالخلـــفـــاء مـــنـــهـــم والمرشـــديـــن

حـــقـــيـــقـــة الـــعين ابـــتـــغـــوا دون الأثـــر [٤٧]

إن أثر التصوف في هذه المواقف ، واضح دون أن نحدد هذا الأثر وابعاده أهو اثر ينتمي إلى مدرسة الإمام الحجة الغزالي ، كما صرح بذلك الشيخ سعيد بن خلفان في النواميس الرحمانية أم هو أثر يذهب الى أبعد من ذلك ؟ إن الذي يستطيع الإجابة عن هذا السؤال ، عالم متخصص في هذا المجال ، ونحن أبعد ما نكون عن ذلك .

من خلال هذا العرض الذي اعتمدنا فيه النصوص الشعرية نستطيع القول :

– إن قصيدة الابتهال كشف جلي للآلام والآمال التي تعتور نفس أبي مسلم ، في حالتي الرضا والغضب ، والأمن والخوف ، والسعة والضيق ، والقلق والطمأبينة .

– وما تقسيمه لقصائد الذكر إلى محاور موضوعية الا استجابة موضوعية لدوافع الحاجات النفسية .

وأبو مسلم يعلم علم اليقين تلك الحالات التي تعتور النفس ، فتلجأ الى الله داعية مبتهلة ، كل حسب حاجتها ، وعن هذا يقول معللا تقسيم الذكر إلى ما يسميه (حضرة) ، كل حضرة تشتمل على مقطع : «ثم ان مقاصد الداعين متعددة ، فيأخذ الداعي ما ناسب مقصده ، ولا بأس من جمع حضرة بأخرى إذا ناسبتها بحسب المقاصد ، ولو على غير ترتيب الأسماء الواردة كما لو جمعت أسماء الجلال وأسماء الكمال كل منها على حدة ، لما تقتضيه المظاهر» [٤٨]

---

(٤٧) الديوان ، ط التراث ، ص، ١٩٤ .
(٤٨) الديوان . ط التراث . ص ١٢٥، الحضرة القدسية ، الحضرة الرحموتية .

وبوسع الدارس المتمعن أن يدخل شغاف قلب أبي مسلم ويتجول في أنحاء نفسه ، من خلال تلك القصائد التي يعرض فيها نفسه على بارئها دون حاجز أو حاجب ، بطواعية ويسر ، بعفويه وتلقائية ، وان بعضها ليغدو صرخات أنين تصعد من أحشائه، وبعضها الآخر صرخات غضب ينفجر حمماً على أعدائه ، ومن هنا يتوجه الى الله قاهر كل جبار ، ونصير كل مستضعف ، ومفرج كل هم ، داعياً متضرعاً :

فارج الهم ، كاشف الغم عجل — فرجاً عاجلاً ولطفاً بذلي
يا مغيث الملهوف يا راحم العبـ — ـرة يا منجي الغريق استجب لي
حيطة العلم بي متاب سؤلي — وسؤالي فقري وذل محلي

وليس عند أبي مسلم وهو يقف هذا الموقف الذليل الخاشع من وسيلة سوى الدعاء بأسماء الله الحسنى ، يقول :

هذه سيدي الوسيلة أدلوها — على بابك الكريم الأجل
ليس لي حجة ولا من شفيع — بابتهالي وذكر اسمك أدلي
فأراني أخيب اذا قمت أدعو — ك وألقيت عند بابك رحلي[٤٩]

ومن ألفى بهذه الطمأنينة ، وهذا السمو النفسي عند باب الله رحله جدير به أن يجد الله عند دعائه له مجيباً ، ما دام في نفسه قريباً .

(٤٩) الديوان ، ط التراث ، ص ، ١٩١

«قصيدة الإبتهال من جانبها الفني»

هل طبع فن الإبتهال والعقيدة عند أبي مسلم بطابع فني خاص ؟

إن الجواب عن هذا التساؤل يستوجب دراسة فنية متأنية لهذه القصائد ، وبما أن العقائد كثيرة تكاد تكون وحدها ديواناً كاملاً ، فاننا نستسمح القارىء الكريم بالوقوف عند أبرز السمات الفنية لهذه القصائد من خلال البنية العامة لقصيدة الابتهال وموسيقها الداخلية والخارجية .

أولاً : البنية العامة للقصيدة :

عندما اختار أبو مسلم عنواناً لديوانه **«النفس الرحماني»** ، هل كان يعني ما توحي به هذه الكلمة من فيض رباني ، ومدد عرفاني بحيث غدا طابع الديوان هذا الفيض الزاخر من العطاء الشعري الذي يمتد أحياناً ليصل ١٥٩٧ بيتاً في القصيدة الواحدة كما فعل ذلك في «الوادي المقدس» حيث بلغت أبياتها ١٥٨٥ بيتاً ؟ .

هذا الطول المفرط هو أول ما يلحظ في البنية العامة لهذه القصائد ، وقد بناها الشاعر على هذا النحو السامق الشاهق لتتماشى مع جلسات الذكر التي يفترض فيها أن تستحوذ على وقت طويل كما أوضح ذلك في الشروط التي وضعها لهذه الأذكار الثمانية التي احتوى عليها ديوانه **«النفس الرحماني»** .

وأبو مسلم على وعي تام بهندسة قصائده على نحو خاص يستجيب لما نظمت من أجله وقد شرح لنا بنفسه رؤيته الفنية هذه حيث يقول في مقدمة هذا الذكر الذي عنوانه **«الوادي المقدس»** .

«وبعد ، فإنه يحتوي على فاتحة **بخصوص اسمه – تعالى –** «**هو**» تشتمل على ستة وستين بيتاً ثم على حضرة بخصوص **اسم الجلالة** وهي عدد ستة وستين بيتاً ثم على ثمانية وتسعين حضرة **لكل اسم حضرة** مخصوصه .

أولها : اسمه تعالى **«الرحمن»** .

وآخرها : اسمه تعالى «الصبور».

ثم على اثنين وعشرين حضرة على الأسماء المستخرجة من القرآن العزيز مما لم يدخل في جملة الوارد به الحديث النبوي .

ثم ان كل حضرة من هذه الحضرات المائة والعشرين ترتبت على أحد عشر بيتاً بمناسبة عدد اسمه – تعالى –«هو» وبمناسبة أحرف بسط اسم الجلالة تعظيماً .

ثم على خاتمة تشتمل على ستة وستين بيتاً .

ثم على خاتمة أخرى تشتمل على ستة وستين بيتاً موضوعها الصلاة والسلام على رسول الله محمد – ﷺ – والثناء عليه .

ويفصح أبو مسلم عن سب هذا البناء الخاص لقصائده عندما يذكر طريقة تلاوتها ونلحظ أن طريقة التلاوة هي التي أوحت بهذه البنية الخاصة حيث يقول :

«ثم ان طريقتي في تلاوته – أي الذكر – توزيعه على أيام الأسبوع مبتدئاً بليلة الجمعة مختتماً بمساء يوم الخميس ، والتوزيع على حسب الإمكان لا بالتزام ترتيب مخصوص ولكن الشرط اتمامها في أسبوع ، ومن قدر على تلاوتها في أقل من ذلك ولو في مقام واحد فلكل درجات مما عملوا»(٥٠) .

هكذا نلحظ أن البنية العامة للقصائد خضعت أساساً ومنذ البداية لتستجيب لجلسات الذكر التي تتوزعها أيام الأسبوع السبعة كما شرح وبين .

ثانياً : اللغة الشعرية :

إن أبا مسلم يملك قدرة هائلة في النظم وسيطرة معتبرة على أدواته الفنية تتجلى في هذا الفيض الغزير من الألفاظ والكلمات التي لا تنضب ولا تضعف مما يدل على امتلاكه الراسخ القوي لناصية اللغة العربية ويدل على رصيده الزاخر الذي يغترف من محيط القرآن الكريم ، والحديث الشريف والأدب العربي بكل فروعه وبمفهومه الواسع أمثالاً ، وحكماً ، ومواعظ .

هذا المدد اللغوي الغزير ساعده على أن يكوّن عوالم خاصة به في بناء لغته الشعرية.

---

(٥٠) الديوان ص ٧ .

وعندما نتحدث عن اللغة الشعرية فإننا نقصد بهذا التعبير والتصوير معاً أي الألفاظ بدلالتها المعجمية والخيالية ، إذ من الصعب الفصل بين العنصرين في العمل الشعري الموحد .

ونعني بدراستنا ما له علاقة بموضوع بحثنا وهو الابتهال فقط دون التطرق الى الجوانب الأخرى التي لها صلة بالتجربة الشعرية لدى أبي مسلم بصفة عامة .

ولعل أول ما يلفت النظر أن العوالم التي يستمد منها أبو مسلم لغته الشعرية هي نفس العوالم التي يستوحي منها أذكاره وأدعيته وهي : القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة والأدب الصوفي .

هذا أمر طبيعي لأن هذه القصائد في حقيقة أمرها أدعية وأذكار وابتهالات ، فلغتها ينبغي أن تكون مستوحاة من عوالم القرآن اللانهائية ، وتعابيرها الفنية مستلهمة من أجواء الآيات ، القرآنية بصورة أو بأخرى .

وكان أبو مسلم على دراية بهذا الاختيار المقصود لذاته ، كما عبر عن ذلك بقول :

مولاي بالأسماء والأسرار والأنوار ، والآثار منها أبتهل

أدعو بكل اسم لذاتك بالصفا ت الطاهرات وكل موحي نزل

أدعو بكل وسيلة أحببتها من سائليك فتستجيب لمن سأل

فلغته التعبيرية إذاً استيحاء ظاهر من الأسماء والصفات والآيات للذات العلية ، واذا كان الإبتهال أساساً عماده لغة قائمة على أسماء الله الحسنى فإن ذلك يعني بالتبع أن يكون الاستيحاء من القرآن الكريم نفسه ، لأن تلك الأسماء إنما وردت في القرآن الكريم أولاً ، فهو لهذا يكتفي ببناء الصورة الشعرية مستخدماً . فيها الاقتباس ، ويتوغل في بناء الصورة الشعرية عن طريق ما يطلق عليها النقاد «الصورة الإشارية» أي يلمح إلى معنى الآية من خلال كلمة واحدة أو يستلهم الأجواء والظلال التي توحي بها الآية من خلال لفظه واحدة أو عدد ألفاظ في الآية الكريمة دون أن يوردها بكاملها حيث يترك استلهام ذلك للقارىء الكريم المفروض فيه حفظ القرآن وفهمه ، وهذه الكلمة تفيض عليه عطاء ثراً من الصور الموحية التي تجسدها تلك الآية المشار اليها .

(١) الصورة البلاغية :

ونعني بها الصورة التقليدية القائمة على التضمين والاقتباس حيث يورد الشاعر الآية الكريمة أو جزءا منها داخل البيت أو الأبيات دون اضافة كما وردت في القرآن الكريم .

– كأن يقول :

إلــــهـــي تــــؤتـــي الملك مــــن تشـــا ... وهــذا اخــتـصـاص سـره لـلألـوهـة[٥١]

هنا ضمن الآية الكريمة : ﴿قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير﴾(٥٢)

– وقوله داعيا الله على العدو الكافر :

إلــهـي لم تجعــل سـبـيــلاً لـكــافـر ... عــلـى مـؤمـن مسـتـمسك بـالشـريـعة
إلـــهـــي مـــا هـــذا المريـــد بمعـــجـــز ... وأنت غـيـور شـاهـد صـدق دعـوتـي[٥٣]

وهنا استمداد من الآية الكريمة : ﴿ ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً﴾ (النساء/ ١٤١)

أو استلهاماً من الآية الكريمة : ﴿لا تحسبن الذين كفروا معجزين في الأرض﴾ (النور /٥٧)

– وقوله :

وأيــن فــرار الـعــبــد مــن مــلك ربــه ... ومــا عــزبت عــنــه حــقــيــقــة ذرة[٥٤]

من قوله تعالى : ﴿لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض﴾ (سبأ/٣)

– وقال متوسلاً :

برتبة الحق رفيع الدرجات ذي العرش ... مـبـقــي الـروح بـاعث الـرفـات (٥٥)

من قوله تعالى : ﴿رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده

---

(٥١) الديوان ص ٢٧٨ .

(٥٢) آل عمران/الآية (٢٦) .

(٥٣) الديوان ، ص ٤٠ .

(٥٤) المرجع السابق ، ص ٤٢ .

(٥٥) المرجع السابق ، ص ١٨٣ .

لينذر يوم التلاق﴾ (غافر /١٥) .

– وقوله داعياً اله على أعدائه وأعداء الدين :

مـكـنـي الـلـهـم في خير مـقـام | في الـديـن والـدنـيـا وبـلـغـنـي المرام
ورد أحـزاب أعـاديك الـطـغـام | بـغـيـظـهـم عـنـا وخـذهـم بـانـتـقـام

إني مـغـلـوب الـيـهـم فـانـتـصـر

لـيـسـو بمعـجـزيـن في الأرض ومـا | كـان بـهـم مـن دون ربـي أولـيـاء
ضـاعـف لـهـم مـن الـعـذاب والشـقـا | مـعـجـلا مـا عـجـزت عـنـه الـقـوى

حـتـى يـكـونـوا كـهـشـيـم المحتضـر [٥٦]

– وفي قوله :

(واني لـغـفـار لمن تـاب) ردني | إلـيك فـلا تـردد مـتـابـي بـخـيـبـة

﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾ (من سورة طه/٢١)

– وقوله :

مـعـشـر احسـانك ربـي مـزدلـف | وفـيك لي مـن كـل فـائت خـلـف
قـد انـتـهـيت عـن جـمـيـع المقترف | (إن يـنـتـهـوا يـغـفـر لـهـم مـا قـد سـلـف)

ففي الشطر الأخير اقتباس ظاهر للآية ٣٨ من سورة الأنفال .

ونراه أحياناً يستلهم الأجواء الروحانية من أدعية القرآن فيضمنها أبياته بطريقة ليست اقتباساً نصياً ، وانما هي مزيج من التضمين والإقتباس أو هي إزدواجية بين الصورة البلاغية والصورة الإشارية .

---

(٥٦) المرجع السابق ، ص ٢٠٣ .

من ذلك قوله :

وهـبتـنـي الـذكـر كـمـا أجـريـتـه ... هب لي بـه نجاة مـن أنجيـتـه
ووقـنـي الـنـار كـمـن وقـيـتـه ... (مـن تـدخـل الـنـار فـقـد أخـزيـتـه)

ومـا لـظـالم عـلـيك مـنـتـصـر

سـمـعت مـن نـادى لـلايمان وقـد ... آمـنت لا أعـدل بـالـلـه أحـد
بـحـق الإيمان بـغـفـرانك جـد ... مـعـاذك الـلـهـم مـن خـزي الأبـد

تـوفـنـي بـراً وأنت خير بـر

وآتـنـا وعـداً عـلـى رسـلك ثم ... لا تـخـزنـا يـوم الـقـيـامـة في الأمم
لا تـخـلـف الميـعـاد مـا قـلت انـحـتـم ... ولا تضـيـع عـمـلاً فـيك ولم

تحرم إجـابـة الـدعـاء مـن افـتـقـر

هنا استحضار كامل للآيات الكريمة التي علم الله بها عباده الذين يتفكرون في خلق السموات والأرض في تأمل وخشوع :

﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ، ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته وما للظالمين من أنصار ، ربنا سمعنا منادياً ينادي للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار﴾ [٥٧](آل عمران، ١٩١-١٩٤).

وقد جاء هذا الإستلهام عنده في مثل قوله :

هـو الـلـه بـاسـم الـلـه يـا رب لا تـدع ... لأمـارتـي بـالـسـوء نـقـطـة خيرة
هـو الـلـه بـاسـم الـلـه أفـرغ عـلـيّ في ... بـلائك صبراً ولـيك الشـكـر لـهـجـتـي

من الواضح هنا أن أمارته بالسوء هي نفسه وهنا صورة اشارية الى الآية الكريمة حيث يقول تعالى : **﴿وما أبرىء نفسي إن النفس لأمارة بالسوء﴾** (يوسف /٥٣)

وفي البيت الموالي استلهام للآية الكريمة **﴿ربنا أفرغ علينا صبراً﴾** (البقرة/ ٢٥٠)

---

(٥٧) وانظر الصفحات التالية : ١٧٩ ، ١٩١، ١٨٣ ، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٨ ، ١٩٢ ، ١٩٦، ٢٠٤، ٢٠٧، ٢٠٦ ، ٢٢٣، ٢٢٤ وانظر الصفحات ، ١٣، ١٧، ٢٣، ٢٩ ، ٣٠، ٣٢.

دعاني قل ادعوا الله والفقر مطلقاً ... وإنك يا الله أهل لدعوتي
ونور جلال من (قل الله) مشرق ... سريت به حتى شهود الحقيقة
وعز كما من (أنا الله) باهر ... له استسلم الأشياء طوعاً وذلت
وحسن جمال من (هو الله) ظاهر ... به نشوة الأرواح تحت الهوية [58]

البيت الأول اشارة الى قوله تعالى في سورة الإسراء – ١١٠–: ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾

والبيت الثاني إشارة الى قوله تعالى في سورة الانعام – ٦٤ – : ﴿قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون﴾ . إو قوله : ﴿قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون﴾ (الأنعام ٩١) .

والبيت الثالث إشارة قوله تعالى في سورة طه –١٤ – : ﴿إنني أنا الله لا اله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري﴾ .

والبيت الرابع من قوله تعالى في سورة الحشر – ٢٢– : ﴿هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم﴾ .

وقوله :

ضاقت عليّ الأرض سيدي بما ... رحبت الأرض ونفسي مأثما
إليك ألجأت اضطراري مسلماً ... أسألك التوبة يا الله [59]

والواقع أن ديوان أبي مسلم يكتظ بالأمثلة الشاهدة على ثقافته القرآنية الواسعة حفظاً وتمثلاً ، واستلهاماً لآيه بطريقة فنية بارعة تدل على حفظه القوي لكتاب الله من جهة ، كما تدل على براعته الفنية في استخدام هذه اللغة المتميزة بايحاءاتها وظلالها وهي لغة منتقاة مقصودة لذاتها لأنها تتماشى مع أجواء القصيدة الإبتهالية في روحانيتها وشفافية إيمانها .

---

(٥٨) الديوان ، ص ١٧ .

(٥٩) الديوان ، ص ٣٢٤ .

٢- تضمينه واستلهامه :

وإلى جانب الآيات القرآنية نجد الأحاديث النبوية الشريفة اقتباساً نصياً أو استلهاماً إشارياً على أنه لم يكثر من الأحاديث إكثاره من الآيات القرآنية الكريمة مثل قوله :

بسر الشهيد ارزقني الصبر سيدي لحكمك واجعلني شهيد عبودتي
لأعبدك اللهم حقاً كأنني أراك وكل الكون من خلف رؤيتي (٦٠)

والى جانب استلهام لغة الأحاديث النبوية الشريفة نجده يستلهم الأمثال والحكم **العربية مثل قوله :**

عند الصباح يحمد القوم السرى (٦١)

* * *

[أو قوله : **يا سيدي قد بلغ السيل الزبى** (٦٢)

٣- اللغة الصوفية :

أما العنصر الثالث في لغته الشعرية فهو ما يتخللها من **لغة صوفية** ونعني بها تلك المصطلحات التي شاعت عند المتصوفة .

اذ لا مفر من الإعتراف بأن الصوفية كان لهم وجود أدبي ملحوظ ، وكيف لا يكون الأمر كذلك وقد عرفت عنهم ألفاظ وتعابير دونها المؤلفون ، وتلك الألفاظ والتعابير هي ثروة لغوية يقام لها وزن حين تدرس المصطلحات ، وقد يقال : «إن لكل قوم ألفاظ وتعابير حتى النجارين والحدادين ، ولا يكون ذلك عنواناً على سلطتهم الأدبية ، ونجيب بأن ألفاظ الصوفية جرت في الأغلب الأعم حول معان وجدانية وروحية ونفسية واجتماعية فهي ألصق بالحياة الأدبية» (٦٣)

وقد أورد الدكتور زكي مبارك في دراسته القيمة عن التصوف الإسلامي وأثره في الأدب والأخلاق مجموعة من هذه المصطلحات التي يكثر ورودها عند المتصوفة ولها دلالات لغوية معينة عندهم .

---

(٦٠) المرجع السابق ص ٥٦. (٦١) المرجع السابق ، ص ١٨٠ .
(٦٢) المرجع السلبق ص ٢٢٠ .

وعندما ندرس شعر أبي مسلم في الأذكار والابتهالات نجده مليئاً بهذه الألفاظ والتعابير ، ويبدو أن الشاعر تأثر بها تأثيراً عميقاً فطبعت شعره الابتهالي بجوها الروحاني ، ولعله تأثر بها من خلال إدمانه لقراءة تلك الأشعار التي تأثر بها قبله شيخه سعيد بن خلفان الخليلي .

ونحن لا نستطيع أن نقطع برأي حول القصد من استخدام هذه التعابير عند الشاعر أهو استخدام فلسفي اصطلاحي معقود لما وراءه من معان وإشارات يعرفها المتصوفة أم هو استخدام لا يتعدى المجال الشعري الذي يستخدم الشعراء عادة من كل الأجواء الأدبية حسب قراءاتهم ورؤاهم الفنية وأبعاد تجاربهم الشعرية ؟

يقول في التمهيد لأذكاره :

نصبت لهم من نير الذكر معلماً	**وبوّأتهم من أنفع الذخر مغنما**
وصيرت نفسي خادماً لطريقة	**بها هام أهل الله في الأرض والسما**
فيا لرجال الحب والكأس مفعم	**هلم اشربوا هذا المغني ترنما**
عصرت لكم من خمرة الله صفوها	**فموتوا بها سكراً فما السكر مأثماً**
لقد هام أهل الإستقامة قبلنا	**بها فانتشوا بين الخليقة هيماً**
تراهم سكارى ينشر الجمع فهمهم	**ويطويه نور الفرق في أبحر العمى**
ملأت لكم دني شراباً مروقا	**وحركت أوتاري فأنطقت أعجما**
وغنيت في حزب هم الرسل كلهم	**«تقدم الى باب المليك مقدماً»** (٦٤)

اضافة الى هذه اللغة التصويرية الرائعة نلحظ كيف اعتمد الألفاظ الصوفية هنا ، مثل : **المعلم ، والمغنم ، والخادم ، والطريقة ، والحب ، والكأس ، والمغني ، والشراب ، وخمرة الله ، والسكر ، والنشر ، والطي ، والنور ، والأوتار** ، وغير ذلك مما يشيع في قصائد المتصوفة حتى غدا علامة لهم ، وبصمة تطبع شعرهم ، ولغة خاصة بهم تحمل أبعاداً وأخيلة ودلالات معنوية رامزة .

---

(٦٣) د/زكي مبارك . التصوف الإسلامي وأثره في الأدب والأخلاق ج١ ص ٥٨ .

(٦٤) الديوان ، ص ٣ .

وقد استوحى هذه العوالم الصوفية ليبني من لغتها صورة كاملة الأطراف تعتمد اللغة المجازية أساساً ، بل هي تعتمد الصورة أساساً فقد صير نفسه خادماً لأهل الذكر يدور عليهم بكأسه التي ملأها بحب الله وقد عمرها لهم من خمرة الله ، فلا ضير عليهم ان يموتوا بها سكراً ، فقد سكر بها سلفهم الصالح من أهل الإستقامة قبلهم ، نقاءً وصفاءً وزهادة وإخلاصاً لله ، وهو الذي قد ملأ دنه ذكراً وحباً وعبادة ، وحرك أوتار ابتهالاته الوجدانية فأنطق الأعجم تأثراً وسمواً ، وما ندمانه سوى الرسل المصطفين الأخيار .إن الأجواء الخيالية والتصويرية في هذه المقطوعة استيحاء واضح من قصائد كبار الصوفية مثل ابن الفارض ، وأبي منصور الحلاج ، ورابعة العدوية ، وغيرهم .

ولم يقتصر ذلك عنده كما لاحظنا على المعجم الشعري ألفاظاً وتعابير ، وانما استوحى أيضاً تلك الصورة المتميزة وتخيلاتها التي تحوم حول الشراب ،والغناء والوجد والانتشاء .

ويقول في قصيدة أخرى مستخدماً الرمز والتصوير متوسلاً إلى ذلك كله بمصطلحات صوفية معروفة ، مثل الوادي المقدس ، الأسرار ، والذوق ، الحقيقة ، والمقام وغير ذلك :

طنبت في الوادي المقدس خيمتي	ورعيت بين شعوبه أغنامي
قل للذئاب الكاسرات تفسحي	عز الحمى وأعز منه الحامي
فلقد نزلت على عظيم قادر	عز الجلال إليه والإكرام
يقضي ولا يقضى عليه نزيله	لو كاده الثقلان غير مضام
من بعد ما طردت كل مطرد	ونشبت بين أظافر الأيام
سترتني الأسماء في ملكوته	فحجبت عن فهمي وعن أوهامي

وسقتني الأسرار شربة ذوقها فعجزت عن تعبيره بكلامي
وذكرت من هو في الحقيقة ذاكري وحقيقتي لا شيء وهي مقامي
وحقيقتي أني محوت حقيقتي إذ ثبتها صنم من الاصنام[(٦٥)]

وتدخل في اللغة الصوفية تلك الأذكار والأدعية المعروفة عندهم وهي في الواقع ليست خاصة بهم ، راح أبو مسلم يضمنها شعره كما جاء هذا الدعاء المعروف :

أعوذ بالله من الشح المطاع والحرص والجبن وخب وخداع
والكبر والبهت ومذموم الطباع وحسد الخلق بما أعطاه
بحق لا إله إلا الله

ثالثاً : التكرار :

ومن أبرز السمات التي ظهرت بها قصيدة الابتهال عند أبي مسلم سمة التكرار اللفظي والمعنوي ، والذي له علاقة بموضوعنا هو التكرار اللفظي الذي لا يكاد يخلو منه مقطع من مقاطع قصائده ، بل إن التكرار اللفظي يغدو ضرورة لأزمة للانشاد أثناء الدعاء والابتهال والتضرع إلى الله مثل ان يكرر كلمة « هو الله باسم الله» في فاتحة الذكر الأول وعنوان الذكر هو «جل جلاله» وتتكرر هذه الجملة الشعرية ستاً وستين مرة أي بعدد أبيات القصيدة كلها ، كما يكرر كلمة «تعلقت بالله» في مطلع كل بيت من المقطع الثاني ستاً وأربعين مرة كذلك وفي المقطع المعنون «الرحيم جل جلاله» تتكرر جملة «عسى نفحات اسم الرحيم» احدى عشرة مرة . والملاحظ أن أغلب الأبيات تبدأ بكلمة «إلهي» أو يتكرر في أبياتها الاسم الجليل الذي عنون به ذلك المقطع فإذا كان عنوانه مثلاً «القابض جل جلاله» بدأت الأبيات بكلمة «يا قابض» فتجيء هكذا :

يا قابض الأشياء ...

يا قابض الإبداع ...

يا قابض الأكوان ...

يا قابض الأسرار ...

وفي المقطع الذي عنوانه «القريب جل جلاله» تتكرر جملة «إلهي القريب»

---

(٦٥) الديوان ، ص ٤و٥ .

(٦٦) الديوان ، ص ٢٢٩ .

الهي القريب الحق ...

الهي القريب الفتح ...

الهي قريب بالاجابة ..

وفي الذكر الثاني «القاموس الأسنى في أسماء الله الحسنى»

ترددت جملة «باسمك الأعظم» ثلاث عشرة مرة متتالية . وكلمة «هو أنت الله» اثنتين وعشرين مرة . وفي «خاتمة السعادة» تكررت لفظة «سيدي» في مطلع كل بيت منها ثماني وأربعين مرة متتالية .

وفي الذكر السابع الذي عنوانه «الكلم الطيب»

تكررت جملة «بحق الا إله إلا الله» ، في آخر كل مجموعة أربعة أشطر .

كأن يقول :

غـــفــرانك الــلــهــم يــا ربــاه	يــا ســامــعــاً دعــاء مـــن دعــاه
عـــبـــدك قـــد بـــاء بما جـــنـــاه	فـــاغـــفــر لــه مــا كـسـبت يــداه

بـــحـــق «لا إلـــه إلا الـــلـــه»

تكررت هذه الجملة مائة وسبعين مرة .

أما الذكر الثامن وهو «الباقيات الصالحات» وهو كما هو معروف [٦٧] (سبحان الله والحمد لله ولا اله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة رلا بالله العلي العظيم) [٦٨]

فقد قسمها الشاعر الى صباحيات ومسائيات ، اي الاذكار التي تتلى في الصباح والاذكار التي تتلى في المساء ، وعمدتها التكرار من أول بيت الى آخر بيت وعدد أبياتها خمسمائة وعشرون بيتاً تقريبا .

وهو لم يكتف بتكرار كلمة التسبيح في اول البيت بل كان يختم البيت بكلمة «الله» على النحو التالي :

٦٧–الديوان ، ص ٢١٥.

٦٨–الملاحظ أن الشاعر اكتفى بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير اما الحوقلة فلم ينظم فيها .

سبحان ذي اللطف باسم الله يالله　　كم كربة حلها لطف من الله
سبحان ذي المن لم أرفع اليه يدي　　فقراً فلم يغنني مَنٌّ من الله
سبحان ذي الفتح لا ينفك يدركني　　في كل منغلق فتح من الله

وكذلك فعل في باقي الاذكار تحميداً وتهليلاً وتكبيراً ، كأن يقول :

الهي الحق ايماني ومعرفتي　　في عالم الذكر اكرام من الله
الهي الحق خلصني بخالصة　　بالله في الله عند الله لله

وأحياناً يبني الذكر كله على تكرار الشطر الأخير من مجموعة كل أربعة ابيات او خمسة ابيات كما فعل ذلك في «الكلم الطيب» الذي كان يكرر ما بين كل اربعة ابيات هذا الشطر (بحق لا إله إلا الله) [٦٩] .

هكذا نلحظ التكرار اللفظي لازمة من لوازم أغلب هذه القصائد الابتهالية ، والسبب في ذلك يعود إلى ان الشاعر انما نظمها لتنشد في خلوة الذكر ، والانشاد لا يكون الا بصوت موزون فيه جرس وايقاع يبعث النشوة في القلب ، ويساعد الذاكر على الجذب والخروج من عالم الماديات كما نرى ذلك في حلقات الذكر عند الصوفية . ولعل الشاعر مراعاة لهذه الموسيقى الخارجية والداخلية عند الاداء نوع التكرار بطريقة لا تبعث الملل في النفس بل يصبح التكرار الرتيب في حد ذاته وسيلة للاسترخاء والانتشاء ، مما دفعه الى التنويع مع الاوزان الشعرية والقوافي ، فكان يختار من الاوزان ما يساعد على الانتشاء مثل بحر الرجز الذي نظم فيه اغلب تلك القصائد وعلاقة بحر الرجز بالانتشاء علاقة حميمة معروفة في تاريخ الشعر العربي .

ويبدو ان حرص ابي مسلم على توفير هذا الجو الموسيقي الخاص خلال الانتشاء في حلقة الذكر وليس من الضروري ان يكون جماعياً – هو الذي دفعه الى مراعاة الموسيقى الخارجية في كل من الضروري ان يكون جماعياً – هو الذي دفعه الى مراعاة

٦٩–وانظر الديوان الصفحات ١٣٢، ١٣٣، ١٩٢، ٢٣٩، ٢٣٤ ، ٢١٥ .

الموسيقى الخارجية في كل قصائد . مراعاة تامة ، ولا نعني بذلك القافية الموحدة أو المتراوحة فهذا أمر مفروغ منه في القصيدة العمودية ، وانما نعني ان الشاعر أحياناً يبالغ في اشتراط هذا الجانب .

مثل ان يبدأ القصيدة بحرف الالف على ان تكون قافيتها كذلك . ويبدؤها بالباء على ان تكون القافية كذلك .

يقول :

الهي لاسمك الأعلى العلاء	له التسبيح مني والثناء
أقمت لعز وجهك ذل نفسي	فأمن النفس فيك لك البقاء

ويستمر على هذا النحو في قصيدة بلغت ثمانية وعشرين بيتاً [٧٠] .

ويقول في قصيدة أخرى مراعياً هذه المرة حرف الباء .

بإسمك سيدي تجلى الكروب	وذكر تطمئن له القلوب
بحمدك سبحت نفسي وروحي	وقلبي فيك منكسر قطيب [٧١]

ويبدو أنه كان ينوي ان ينظم على هذا النحو قصائده من كل حرف من حروف الهجاء الباقية ، ولكنه اكتفى بحرفين هما الألف والباء .

ولعله انصرف عن هذه التجربة اقتناعاً منه بعدم مجاراتها لسماحة الفن الشعري ، اذ ان ذلك يعد تكلفاً وإعناتاً للنفس ، والتكلف سمة من سمات الضعف الفني لا من سمات القوة كما يقول النقاد ، فإن الشاعر في النهاية يقع في الأخطاء الفنية واللغوية مهما يكن رصيده اللغوي قوياً وغزيراً .

٧٠–الديوان ص ٢٧١.

٧١–المرجع السابق ، ص ٢٨٠ .

الابتهال بين الزهد والتصوف

يختلف التصوف عن بقية العلوم الاسلامية الأخرى في نشأته وتطوره ، ذلك أنه لم يعرف بهذا الاسم في القرن الأول الهجري ، وعرف باسم الزهد والعبادة والنسك وما إليه في القرنين الثاني والثالث ، ثم أخذ حدوده وأبعاده في نهاية القرن الثالث الهجري . ثم ظهر فيه التطرف والإفراط بعد ذلك ودخلته الفلسفة وتسربت اليه الهلوسة والدروشة . في عهد الانحطاط والتأخر ، ثم بدأ يتراجع ويتصفى وتنقرض فيه الغلواء واقترن بالأخلاق والتبعية في عصرنا الحاضر [٧٢] .

على ضوء هذا التفريق بين الزهد والتصوف ينبغي النظر الى قصائد الابتهال عند أبي مسلم متسائلين : أتعتبر هذه القصائد من قصائد الزهد والنسك والذكر النقي فهي تستمد جذورها من الشعر الاسلامي الاصيل ام هي فن شعري يستقي لغته وأفكاره ورؤاه من الشعر الصوفي الى الشعر المتأثر بالفلسفة السوقية اقرب ؟

ومن خلال معرفة الدوافع والاسباب التي تقف وراء ابي مسلم ليتجه هذا الاتجاه وينحو هذا المنحى نستطيع إدراك بعض الحقائق وبالتالي الوصول الى جواب مقنع او على الاقل متسم بالموضوعية .

غير اننا نود قبل ان نعرض للدوافع والاسباب ان نرسم ملامح شخصية ابي مسلم لا من شعره وانما كما حدثنا عنها عارفوه ، ونذكر شهادات اولئك الذين عاشروه اختبروه.

كل الذين حدثونا عن ابي مسلم عن طريق مباشر او غير مباشر متفقون على عميق ايمان الرجل ونقاء دينه ، وصفاء سريرته ، واستقامة سلوكه ، وأصالة سيرته وقد وصفه سالم بن سليمان بن عمير الرواحي وهو من بني عمومته واقرب عارفيه يرثيه قائلا :

سليل المجد محمود السجايا ... أبي الضيم ، محروس الذمار [٧٣]
ابو الايتام ،والفقراء مهما ... عنت شهباء تهلك بالذراري
طويل الباع في كرم وحلم ... إلى العلياء جواب القفار
يغار لربه ويصول فيه ... لاعداء الديانة لا يداري
إذا هموا بهضم الدين وحيا ... يكافحهم بعزم واصطبار
تسربل بالمعارف وارتداها ... ونهنه نفسه عن كل عار

الى ان يقول :

ويا أذكاره بوركت هلا ... شجاك فراق شيخ الادّكار [٧٤]

٧٢–د/محمد الزحيلي ، مرجع للعلوم الاسلامية ، ص ٦٦٨ (بتصرف) .
٧٣–ديوان أبي مسلم – ط– الحارث – ص.ك .

إن أبا مسلم يبدو من خلال شعره كله مؤمنا راسخ الايمان ، متديناً يخلص لله الدين يحض على الجهاد فيه ذياداً عنه وتمكيناً له وإعلاء لكلمته مهما عظم فيه الخطب ، وتألبت دونه الشدائد والمحن ، فالدين احق ما يجب فيه البذل ويهون الفداء ، ومنازعه الدينية الاسلامية شاملة لا قومية محدودة . جماعة المسلمين كافة هم معناه في اسداء النصح والدعوة الى الحق ،من قبلهم يكون ما يسوؤه وما يسره ، وهو لذلك يأسى لتفرق كلمتهم وانصداع وحدتهم (٧٤)

إن وراء السلوك الصارم الذي نهج عليه أبو مسلم – ولا شك – عقيدة ايمانية راسخة، وتربية دينية ملتزمة.

فأبو مسلم أباضي معتز بمذهبه ، مستمسك بعقيدته ينافح عنها بكل قوة كما دلت على ذلك كتاباته النثرية والشعرية «لذا نجد شعره كله في الغالب متمحوراً حول الاستقامة منبثقاً عنها داعياً إليها»(٧٥) .

غير ان هذه الحقيقة تدفعنا الى سؤال آخر ، اذا كان ابو مسلم معتزاً بعقيدته ومذهبه الأباضي فما الذي دفعه الى هذا الشعر ذي الطابع الصوفي في الوقت الذي نعرف فيه موقف الاباضية من التصوف ، وهو موقف الرفض ، والانكار تاريخاً فكرياً ولعل موقف اباضية المغرب المتأخرين أكثر تشدداً في انكار التصوف نظرية المتصوفة او عدم صوابها فإن علم التصوف اكثر العلوم التي تختلف فيه وجهات نظر المسلمسن كما أننا لا نرغب في سرد الآراء المتباينة في قبول او رفض هذا النوع من الفكر ، فذلك شأن لا يعني هذا البحث على الاقل الآن . وإنما الذي نريد الوصول اليه هو مدى ملاءمة الخط الفكري والعقدي الموجود في ابتهالات ابي مسلم مع شخصية الشاعر وانتمائه المذهبي؟

وبما انه قد سبق لنا ان درسنا العقيدة الاسلامية في شعر ابي مسلم في بحث سابق فإننا نتوجه هنا مباشرة الى الاجابة عن الاسباب والدوافع التي دفعت الشاعر الى شعر الابتهال ومدى قربه او بعده عن النزعة الصوفية .

أولاً : البيئة العمانية : بما عرفته من ظروف سياسية واجتماعية خاصة اتسمت بالاضطراب وعدم الاستقرار السياسي والاجتماعي ، من اختلاف حاد بين قبائلها ، وتسلط القوى الاجنبية على بعض مناطقها ، كل ذلك جعل اهل الفكر والرأي وذوي الغيرة على وطنهم ودينهم يشعرون بنوع من الرغبة ، أدت بهم الى طلب المدد الروحي من الله ليخلص وطنهم مما هم فيه من كل ذلك .

٧٤–الديوان،ط الحارثي .ص،ن .

٧٥–أحمد بن سليمان الكندي ، قصائد السلوك في شعر أبي مسلم اصدارات المنتدى ص ٢٠٢ .

آية ذلك ان الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي كان يتخذ من «سموط الثناء» دعاء يلهج به الى ربه ، ولعل ابا مسلم سلك هذا الطريق نفسه فكانت قصائده الابتهالية الدعاء والابتهال الى الله ليغير من حال وطنه وقومه وامته .

وليس غريباً على من نشأ في بيئه مثل عمان معروفة بمحافظتها الدينية الشديدة وتمسكها بحدود الله وأوامره ونواهيه – ان تكون سيرته على هذه الحال من الزهد والتقوى والورع .

فالسبب الرئيسي كما نرى إذاً نابع من الواقع بكل مناحيه وضغوطه السياسية والاجتماعية والفكرية والدينية ايضاً مما ينفي عن الشاعر اية سمة فلسفية خارجة من تصوف او غيره .

وهذا العامل في راينا يعتبر من اقوى العوامل دفعاً لابي مسلم الى هذا الاتجاه وهو طالما ذكر في قصائده ، ومن خلال اذكاره وادعيته ، الظروف النفسية والاجتماعية والسياسية التي أحاطت به على النحو الذي أوضحناه عنه في دراستنا للجانب الموضوعي في قصيدة الابتهال عنده ، وهو عامل موضوعي لانه رد فعل طبيعي لما آل إليه امر المسلمين من تضييع شرع الله ، والاقبال على الدنيا وزخارفها ، والخضوع للأجنبي الكافر يفعل بأرض المسلمين ما يشاء .

«أو لم يكن عجباً أن يتقشف بعض المسلمين في عصر صدر الاسلام ويزهدوا في الدنيا لانهم تفرقوا واختلطوا بالامم التي دخلت في الاسلام وشاهدوا الاقبال على الدنيا في القرن الثاني ، أحدث ذلك رد فعل ظاهر فابتعد بعضهم عن الدنيا مرة واحدة وانقطعوا الى العبادة واتخذوا في ذلك طريقة تفردوا بها واخلاقاً تخلفوا بها» (٧٦) .

وقد اشار الى هذا السبب القوي ابو مسلم في قوله :

إلهي صراخي بالدعاء سمعته	**وليس دعاء لافتخار وسمعة**
ولكن أحاطت بي بحور مصائب	**وأعظمها ذنبي وتسويف توبتي**
سمعت ففرجها بروح ورحمة	**وإن لم اكن مستاهلاً للمثوبة** (٧٧)

وهنا لا بد من استحضار واستنطاق الظروف السياسية والاجتماعية والفكرية التي أحاطت بالشاعر في مسقط رأسه عمان وفي ديار غربته بشرق افريقيا وزنجبار .

٧٦–محمد السن . المذهب والافكار المعاصرة في التصور الاسلامي ، دار الثقافة ، قطر ط ١٩٨٦ ص ، ٥٣ .
٧٧–الديوان ، ط التراث ، ص ٣٨ .

ثانياً :

وهو طالما ردد في قصائده العقدية ما يعبر صراحة عن اعتناقه لعقيدة المذهب الاباضي ولا سيما في عدم رؤية الباري جلّ وعلا في الآخرة وخلود مرتكب الكبيرة وغير ذلك ممو هو مثبوت في كتب المذهب الاباضي .

هذا الشاعر الملتزم بعقيدة الشراة لا نشك في اعجابه ايضاً بسلوكهم والتزامهم بتطبيق الشريعة الاسلامية في مسيرتهم الحضارية الطويلة .

وقد عرف عن الشراة زهدهم وتوجههم إلى الآخرة في كل مواقفهم سياسية كانت ام دينية عقدية ام سلوكية ، فهم أنضاء عبادة واطلاح سهر ، أكلت الأرض جباههم وركبهم ، وافنوا أعمارهم ورعاً وتقى وهم الذين افنوا رجالهم دفاعاً عن عقيدتهم التي لا ترمي الى حب الدنيا بقدر ما ترجو ما عند الله في الآخرة .

«والشراة ، مسلمون بسطاء في تدينهم بساطة الاسلام الاول لكن الذي يميز عقيدتهم هو الطريقة التي تدينوا بها : تمسكاً بالعقيدة وتفانياً في سبيلها بالمراقبة الصارمة للنفس وتكريسها في خدمة الآخرة» (٧٨).

وقد شهد بذلك كل الدارسين لتاريخهم وفكرهم وادبهم شهادة اتفق عليها اصدقاؤهم وأعداؤهم ، مناصروهم ومناوئوهم قديماً وحديثاً ولعل ما يبدو في أدبهم وفكرهم من زهد وركون الى الآخرة رشحهم ليكونوا نواة لنشأة الفكر الصوفي في مظاهره الايجابية لا السلبية . ومنهم مرداس بن حدير امام الشراة والذي توقف اعجابا بشخصية الدكتور زكي مبارك في كتابه «التصوف الاسلامي ص٢٣» ورأى في سلوكه وتصرفه مع عبدالله بن زياد وهو في السجن ينتظر فضله مثلا للزهد والاخلاص للعقيدة ولا شك اطلاقاً في عدم اطلاع ابي مسلم على سيرة امام مذهبه أبي بلال ، بل نكاد نجزم بعد مقارنة عقدناها بين الرجلين أن أبا مسلم في سلوكه متأثر الى ابعد حدود التأثر بإمامه ، مما يدفعنا الى القول ، ان جذور الزهد عنده تضرب في أعماق تاريخ الشراة وتستقي منه .

ثـالثـاً :

ظهرت في الأدب العماني هذه النزعة من الزهد في الدنيا باعتبارها زخرفاً ومتاعاً

٧٨–أحمد سليمان معروف ، قراءة جديدة في مواقف الخوارج – دار طلاس . دمشق ١٩٨٨، ص ١٣٠ .

قيلاً كما ظهر الى جانبها نزوع الى التصوف العملي وليس الفلسفي على الرغم مما يعرف عن مناهضة المذهب الاباضي لهذا الاتجاه بدءا من الشيخ جاعد بن خميس ولعل ابرز من يمثله في الادب العماني الحديث الشيخ العلامة الرباني سعيد بن خلفان الخليلي الذي ظهرت في اشعاره نزعة صوفية واضحة قائمة على النسك والذوق ، وإخلاص الدين لله وحده ومعاداة كل انحراف عن الطريق السوي وكان يرى القعود عن التصوف قعوداً مع الخوالف . ووما تجدر الاشارة اليه : ان تصوف الشيخ سعيد بن خلفان لم يكن تصوفاً سلبياً ، ولم يكن فيه تلك الشطحات الصوفية من الحلول والاتحاد او وحدة الوجود التي وجدت عند ابن عربي وابن الفارض والحلاج أو اضرابهم ، وانما كان تصوفه تصوفاً ايجابياً [٧٩] .

فقد كان الشيخ كثير الصلاة والتقرب الى الله بانواع القربات . كثير التوسل الى الله تعالى والتضرع له بقصائد نظمية او نثرية لنيل العلم والفضل والتوفيق على القيام بالاصلاح الاجتماعي ، كثير الأسى على فقدان الحق واهله ، وظهور الباطل ، وانطماس السنة المحمدية ، وللشيخ سعيد مؤلف قيم عنوانه «النواميس الرحمانية» يبدو من محتواه تأثره الواضح بمدرسة ابي حامد الغزالي الذي ينقل عنه كثيراً من آراءه ويشير اليه باسم الامام الحجة تقديراً واكباراً فالخيط الصوفي لهذه المدرسة العمانية اذاً موصول بعروة المدرسة الغزالية ان جاز التعبير لا شك في ذلك ولا ريب .

وعن هذا التوجه في شعره ، وسلوكه ، يقول ابنه في مقدمة مخطوطة اشعاره «ان والدنا العلامة الرباني ، والنور الرحماني ، السالك الراغب ، سعيد بن خلفان – رضوان الله عليه – احق من خدمة ونشر خدماته الربانية ، وأذكاره الرحمانية»[٨٠] .

ومن أشهر قصائده التي تركت أثراً في الاوساط الادبية والفكرية في عمان قصيدته «سموط الثناء» التي خصها ابو مسلم ، في قصيدته التي مطلعها :

«تقدم الى باب الكريم مقدما»

وقد شطرها ابو مسلم أيضاً ، والمعراج لسالكي المنهاج فالعلاقة الروحية والفكرية بين ابي مسلم وشيخه سعيد بن خلفان الخليلي كانت قوية مستمرة على اكثر من صعيد

أولاً : عن طريق التتلمذ غير المباشر فقد كان الشيخ بالنسبة لذلك الجيل استنادا او شيخاً عظيماً تخرجت في مدرسته مجموعة معتبرة من التلاميذ فبثوا المعرفة والعلوم التي

٧٩–قراءات في فكر الخليلي اعداد : محمد علي الصليبي المنتدى الادبي ص ١٠٣ ، والقراءة للدكتور عبد الحفيظ محمد حسن .
٨٠–مجموعة قصائد الشيخ سعيد بن خلفان (مخطوط) ص٢٠ .

نقلوها عنه في انحاء عمان ، وما من شك في تأثرهم بسلوكه وتدينه . وكان والد ابي مسلم الشيخ عديم أحد الذين درسهم الشيخ سعيد ولا نشك في تأثر ابي مسلم بوالده تربية وسلوك على نحو ما من الانحاء .

ثانياً : الزمالة القوية بين ابي مسلم والشيخ احمد بن سعيد بن خلفان ، فقد كانت بين الرجلين صداقة حميمة ربطت بينهما في الكتاب ، وجمعتهما على درب الحياة الفكرية ولم تكن تلك العلاقة الروحية بينهما إلا وليدة انسجام وتقارب في الرؤية والمواقف ، وقد وصف هذه الزمالة ابو مسلم حيث عدها من أسباب حنينه الجارف الى وطنه عمان ، وشعوره بمرارة الغربة على نفسه ، هذا الصديق الحميم الذي يقول عنه :

أرتاح فيها الى خل فيبهرني صدق وقصد ومعروف وعرفان

ثالثاً :الاثر الواضح الذي تركته افكار الشيخ سعيد في ابي مسلم . وقد تجاوز هذا التأثر بالقراءة للآثار العلمية والادبية الى ان يصبح تأثراً بالشيخ نفسه اخلاقه وشخصيته ومواقفه وسلوكه ، ورؤيته الى الاحداث السياسية والاجتماعية والفكرية من حوله ، ولا سيما تلك التي كانت تهز عمان وتعصره في شبه مخاض عسير ما بين فترتي الامامين العظيمين عزان بين قيس وسالم بن راشد .

ولعل اقوى بصمات الشيخ سعيد ظهرت واضحة في شعر ابي مسلم ولا سيما في اذكاره وابتهالاته التي لا نشك اطلاقاً في استفادتها من تجربة الشيخ سعيد الشعرية ولا سيما في مجال الابتهال والذكر والزهد ، واكاد اقول : (التصوف)

يقول ابو مسلم متحدثاً باعجاب شديد عن الشيخ سعيد بن خلفان الخروصي :

«ان شهرة سيدي القطب الجليل العارف بالله سعيد بن خلفان طيب الله ثراه واكرم مثواه شهرة الشمس في كبد السماء ، وقد بلغ من علمي الظاهر والباطن مبلغاً عظيماً، دلت عليه آثاره وله كلام في السلوك والحقيقة دل على قدم راسخ في الكمال والتكميل ، وعلى مقام عال من المعارف اللدنية ودرجة سنية من مراتب الذوق ، وكلامه نظماً ونثراً برهان صادق قاطع على ان علمه كشفي وهبي لا يطيق أداءه الا من اكرمه الله بالوصول واقامه مقاماً رفيعاً من المدد والفتح» (٨١) .

وقد ظهر ذلك في شغف ابي مسلم بتخميس وتشطير شعر الشيخ سعيد بن خلفان، كما بينا ذلك في مكانه من هذا البحث . والواقع ان هذا الاتجاه الزهدي عند الشيخ سعيد هو امتداد طبيعي لمدرسة تضرب بجذورها في الاجيال السابقة من مشايخ عرف

(٨١) الديوان المخطوط ص ٢٧٨

عنهم هذا السلوك الرباني مثل استاذ الشيخ العالم النحرير ناصر بن ابي نبهان الخروصي ، وكان لهذا الشيخ باع طويل في علوم الشريعة الغراء ، واصبح شيخ زمانه. وقد تلقى العلم على يد والده العلامة الكبير المسمى بالعالم الرباني والسيد الرئيس جاعد بن خميس الخروصي ، اذ كان هذا الشيخ راسخ القدم في علمي الحقيقه والشريعة [٨٢] وهو معروف بأشعاره في الالهيات .

ويبدو من آثار هؤلاء المشايخ تأثرهم الواضح بحجة الاسلام ابي حامد الغزالي الذي يعتبر من اشهر علماء الاسلام ترسيخاً لعلم السلوك والروحانيات والتصوف العملي . ومن هنا نفهم جذور هذه المدرسة وتأثرها الذي لا ريب فيه في كل هؤلاء الاقطاب .

ولم تنفرد عمان او زنجبار بهذا الاتجاه او هذا السلوك فقد كانت موجة عارمة اجتاحت العالم الاسلامي كله ، فكثرت الطرق الصوفية هنا وهناك ، وقد ادى تطرف بعضها الى الوقوع فيما تحرمه الشريعة الاسلامية من غلو في الاعتقاد وانحراف في السلوك .

ولكن كان الى جانب هؤلاء ايضاً العارفون الربانيون الذين كانوا دعاة مخلصين الى انشاء الروح والحقيقة في العبادات وشحن بطارية القلب بالأخبات والانابة وشفع الاعمال بالاخلاص والاحتساب ، وقد خرجوا في الاصلاح والتزكيةوالاحسان أئمة ومحققين انتفعت بهم اجواء واسعة من العالم الاسلامي [٨٣] . والى بعض شيوخ تلك الطرق الصوفية يرجع الفضل الى بعث النهضة الاسلامية في قلوب المسلمين في مواجهة الكفر والالحاد والتغريب .

على ان الدعوة الى الزهد في الدنيا دعوة اسلامية صحيحة احتفل بها القرآن الكريم وقدمها للمسلمين في صور موحية شتى تصور الدنيا على انها زخرف لا يدوم ، وخضرة ما تلبث أن تصوّح ، وهذا لا يعني اطلاقاً الا يأخذ المسلم منها بنصيبه اذ دعا الاسلام الى العمل فيها مع عدم التعلق بها لانها متاع قليل ، ولان الهدف الأسمى للانسان ان يحيا الحياة الحقيقية في الآخرة وان يزهد في الدنيا وان يعيش فيها كأنه غريب عنها او عابر سبيل ، ليترفع عن ادرانه المادية ويسمو الى المثل العليا ، والاخلاق الفاضلة والصلة الروحية برب العالمين وهي العلة التي من اجلها خلق الانسان **﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون﴾** الذاريات ٥٦ .

من هنا نشأ علم الزهد ، ثم تطور الى علم التصوف واقترن بالاخلاف والسلوك .

٨٢–قراءات في فكر الخليلي ص١١٦ والنص للدكتور مبارك بن عبدالله الراشدي .

٨٣–محمد الحسن الندوي . التفسـ السياسي ص٦٤ بتصرف .

خاتمة

ونخلص من هذا العرض الى انه لا بد من دقة موضوعية حين الحكم على هذا النوع من الشعر في علاقته بالشعر الصوفي ، فالحكم ينبغي ان يستند الى النصوص نفسها ، اذ ليس كل شعر ابتهالي ينضوي تحت الشعر الصوفي و لأننا عندما نعود إلى التراث الاسلامي نجد مستويات متعددة في هذا النوع من الشعر فمنه شعر الزهد الخالص الذي وضع بذوره الشراة ، وبلغوا فيه قمة السمو الروحي لما تميز به من صدق واخلاص وعقوبة والتزم بالعقيدة الاسلامية الصافية ورفض كل بهارج الدنيا وزخارفها ، وثمة شعر الابتهال والدعاء والتضرع لله الصادر عن الشاعر في حالات وجده وحاجته الى ربه تعبيراً عن ضعفه من جهة ، وتعلقاً بربه من جهة ثانية وهو خال من كل علاقة بالتصوف كالذي نجده عند ابي العتاهية والبوصيري والسروري مثلاً وثمة شعر التصوف الفلسفي الذي تتداخل فيه المصطلحات الصوفية ويعرف بمواقف أصحابه المغالية التي ينكرها الشرع الحنيف مثل وحدة الوجود التي هي مدار تلك الفلسفة المشبهة واقطاب هذه المدرسة معروفون ، وعلى رأسهم محيي الدين بن عربي.

إذاً لا بد من التفريق بين المواقف والرؤى والتصورات حتى لا نظلم الشاعر ، ولا نكتفي بمجرد ورود مصطلحات وألفاظ وتعابير قد يكون استعارها او تأثر بها من خلال قراءاته ومعايشته لشعر التصوف ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لابد ان نشير الى ان بعض الافكار التي طرحها ابو مسلم في قصائده مثل التوسل بالاولياء الصالحين والاقطاب والابدال وما اشبهه ، وعقيدته في شخص الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه علة الكون ، اضافة الى اكتظاظ معجمه الشعري بالمصطلحات الصوفية كل ذلك يرجح تأثر شعر أبي مسلم بشعر التصوف ان لم يكن التأثير في الرؤية والمواقف فهو تأثير واضح في التجربة الشعرية من جانبها الفني على الاقل .

ومن طبع الشاعر المبدع ان تكون لغته منتقاة من العوالم التي يحياها سواء تلك العوالم التي يحياها واقعاً معيشياً ، ام تلك العوالم التي يندمج فيها اثناء قراءاته الادبية بخاصة والمعرفية بعامة .

الإطار الموسيقي لشعر
أبي مسلم البهلاني الرواحي

إعداد / محمد بن ناصر المحروقي

جامعة السلطان قابوس

تمهيد :

تحتل الموسيقى جانباً أساسياً في بناء الخطاب الشعري العمودي ويعتبر الوزن والقافية من أهم مكونات هذه الموسيقى ، وشعر ابي مسلم البهلاني باعتباره شعراً عمودياً من جهة منبريا من جهة أخرى ، يعنى بالتأثير على المتلقين وتوصيل مجموعة من الخطابات النهضوية اليهم ، ويهتم بالموسيقى كأداة فعالة اهتماما خاصا .

وكان ان جرى ابو مسلم في موسيقاه الشعرية على سنن المرحلة الزمنية التي عاشها والمواكبة للبعث الشعري في العالم العربي ، ومن هنا يبرز التزامه بالعروض الخليلي وعدم مجاوزته ، وذلك لامرين :

١- سار الشاعر على النهج الذي خطه كبار شعراء العرب في العصور الادبية والتي تراكم انتاجها الشعر العربي ، وكان من بينها الوزن الشعري و لم يقيض للشاعر في اعتقادنا ان يطلع على اتجاهات الشعر الاوروبي أو الفارسي او غيرهما فيفتح ذلك له أفاقاً أخرى .

واطلاعه على الشعر السواحيلي لم يكن كافياً لاثارة مثل تلك النوازع فهو أي الشعر السواحيلي - يبدو أكثر تواضعاً الى جانب الانتاج الشعري العربي بتاريخه العريق ومادته الّضخمة .

وجهود ابي مسلم في هذا الاطار تشير الى العكس ، فقد حاول اخضاع الالفاظ السواحلية للقواعد الخليلية ، فاستخدمها قافية لقصائد كتبت بالعربية وعلى أوزان العروض الخليلية [1]

٢- لم يكن الشاعر مشغولاً بفكرة إحداث اي تغيير في نمطية الشعر العربي ، وإنما انسكب جل اهتماماته على مجتمعه ومحاولة تغيير بعض المظاهر التي لا يرتضيها الشاعر فالشعر عنده وسيلة لا غاية بحد ذاته .

أولاً الوزن :

يوضح الجدول التالي الاوزان الشعرية التي استخدمها ابو مسلم البهلاني ونسبة شيوع كل منها :

١-يروي الاستاذ عبدالله بن سلطان المحروقي في ذلك قصيدة منها :

أحبتنا رحلتم عني(جوزي) (البارحة) … فراقكم حشي قلبي مشوزي (حزن)
رحلتم نحو أرض الخير (بيمبا) (جزيرة معروفة) … زيارتكم عواما أو لمويزي (شهر)
فإن طالت زيارتكم (مليلي) (كثيراً) … فردوا لي فؤادي مع بميزي (قلبي)

مقابلة ١٠/١١/١٩٩٤م، مسقط

الترتيب	البحر	عدد القصائد	عدد الابيات	نسبة
١	الـــطـــويـــل	٢٧	٣٨٦٢	٪٤٠،٨٩٩
٢	الـــبســـيـــط	١٨	١٩٨٢	٪٢٠،٩٨٤
٣	الـــرجـــز	٧	١٥٥٢	٪١٦،٤٣١
٤	الـــكـــامـــل	١٤	٧٣٠	٪٧،٧٢٨
٥	الخفـــيـــف	١٢	٦٥٠	٪٦،٨٨١
٦	الـــرمـــل	٦	٢٣٣	٪٢،٤٦٦
٧	المتـــقـــارب	٤	٢٠٥	٪٢،١٧٠
٨	الـــوافـــر	٣	١٤٤	٪١،٥٢٤
٩	مجزوء الـكـامـل	١	٦٤	٪٠،٦٧٧
١٠	المديـــد	٢	٢٠	٪٠،٢٢١
١١	مجزوء الـرمـل	١	٣	٪٠،٣١
المجموع	١٨	٩٥	٩٤٤٥	٢

الملاحظة :

ومن خلال الجدول السابق تأتي لنا ملاحظة التالي :

١–التزم الشاعر بالعروض الخليلي التزاما كاملا .

٢– أكثر البحور الشعرية ترددا هو بحر الطويل .

٣– أقل البحور الشعرية شيوعاً بحر المديد .

٤– لم يستخدم الشاعر الأوزان المجزوءة الا بصورة نادرة .

–التأويل :

نظر ابو مسلم البهلاني في ديوان الشعر العربي فانطبع على خاطره تكرار بحور معينة ، كالطويل والبسيط والكامل ، وارتسمت في مخيلته أوزانها وصارت قريبة التناول منه كلما اراد النظم عن تجربة ما .وبحر الطويل – على وجه الخصوص – من أشهر البحور وأكثرها دورانا على ألسنة الشعراء .

يقول واحد ممن له بصر نافذ بالشعر وهو ابو العلاء المعري :

«ان اكثر اشعار العرب من الطويل والبسيط والكامل» ويعقب الاستاذ محمود مصطفى على هذا الكلام بقوله :

«وهذا صحيح يدل عليه الاستقراء» [١] .

من هنا يشكل بحر الطويل لدى أبي مسلم البهلاني ما نسبته ٤١ ٪ تقريباً ، أي يقترب من تغطية نصف انتاجه الشعري ، وجاء بعده بحر البسيط بنسبة ٢١٪ ثم الرجز بنسبة ١٦٪ والبحر الاخير تقترب موسيقاه من موسيقى بحر الكامل اقترابا شديداً ، وقد ورد بحر المديد في ذيل القائمة فهو بحر تقل نماذجه في ديوان الشعر العربي القديم [٢] .

ان محاولة الربط بين البحور الشعرية ومناسبتها لاغراض معينة ظاهرة قديمة في النقد الادبي ، فحازم القرطاجي يقول في مناهجه : «فالعروض الطويل نجد فيه أبدا بهاء وقوة ونجد للبسيط بساطة وحلاوة ، ونجد للكامل جزالة وحسن اطراء ، وللخفيف جزالة ورشاقة وللرمل لينا وسهولة ، ولما في المديد والرمل من اللين كانا اليق بالرثاء» [٣] .

وكان من الطبيعي ان يهتم بهذه الفكرة الاتجاه التحليلي النفسي في النقد الحديث[٤]

وعندنا انه قسر للامكانيات الموسيقية التي يوفرها العروض العربي ، والتي تفتح امام الشاعر الفرصة المواتية لتوظيف ما يناسب تجربته الخاصة ، وربما وقع الشاعر ونظم على بحر ما دون أدنى تخير منه ، ان البحر العروضي الواحد يضم أنماطاً موسيقية متعددة فهو في صورته التامة غيره في صورته المجزوءة او المشطورة اوالمنهوكة.

كذلك فقد جاءت قصائده ذات بحر موحد وفي اغراض متعددة ، مما ينفي الفكرة السابقة وهم اذا ذهبوا الى المديد والرمل لما فيهما من لين «اليق بالرثاء» على حد تعبير

١-انظر، الاستاذ محمود مصطفى ، شرح كتاب (اهدى سبيل الى علمي الخليل) ، العروض والقافية ، شرحه وضبطه وكتب هوامشه نعيم زرزور . ص ١٥٦ دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٥، ط ٢.

٢-بتحوير بسيط على تفعيلة بحر الكامل «متفاعلن» ما يسميه العروضيون «الاضمار» أي تسكين الثاني المتحرك ، فتصير «متفاعلن» الى «متفاعلن» وهي نفس القيمة الموسيقية لتفعيلة بحر الرجز «مستفعلن» .

٣- يعلل الدكتور ابراهيم انيس قلة نماذجه بأنه يمكن أن يكون صورة لبحر الرمل او وزن قديم هجره الشعراء ، راجع د. ابراهيم انيس موسيقى الشعر ، ص٩٨،٩٩ ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٨٨ ط٦ .

٤- نقلا عن الدكتور حسني عبد الجليل يوسف ، موسيقى الشعر العربي ج١، ص٢٠ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب القاهرة ١٩٨٩م .

حازم القرطاجي ، فقد نظمت الخنساء مرثياتها في أكثر البحور ، كما ان مرثية ابي ذؤيب الهذلي وهي من فرائد المرثيات ، جاءت في بحر الكامل و لم تأت في بحر المديد .

ثانياً القافية :

يقدم الدكتور ابراهيم أنيس التعريف التالي للقافية ، «ليست القافية إلا عدة اصوات تتكرر في أواخر الاشطر او الابيات في القصيدة فهي بمثابة الفواصل الموسيقية يتوقع السامع ترددها» [1] .

وتلعب القافية دورا مناسباً في موسيقى الشعر العمودي ، ولقد تم النظر اليها على الدوام من قبل النقاد العرب القدماء على انها احدى الخصائص المميزة للشعر عن النثر فهي «شريكة الوزن في الاختصاص بالشعر ، ولا يسمى شعراً حتى يكون له وزن وقافية»[2] .

واذا كانت موسيقى الوزن تتحقق من خلال توزيع تناسبي معين بين الصوامت والصوائت من الحروف فان موسيقى القافية تتحقق من خلال التشاكل بين الحروف الواقعة في نهاية كل بيت شعري .

ويحفل علم القافية بالعديد من الامكانات الموسيقية التي توفرها القافية بدءا من تكرار حرف معين في نهاية كل بيت وهو ما يعرف «بالروي» ووصولا الى الالتزامات يفرضها الشاعر على نفسه ويتفنن في ابتكارها بصور عديدة ، كما في الفن المسمى «لزوم ما لا يلزم» وبينهما أشكال عديدة لتنويعات القافية .

أ- التصريع :

يعنى الشعراء بمطالع قصائدهم عناية خاصة ، ذلك لانها اول ما يصافح السامع ، فان نجح الشاعر في اجتذاب اهتمام سامعه والا انصرف عنه ، ويقترب من هذا عادة الشعراء في افتتاح قصائدهم بالغزل لانه اعلق بالنفوس [3] ومن المواضيع التي تستحوذ على اهتمام السامعين ، وهنا نلاحظ تأثيراً قصد به التواصل بين الشاعر وجمهوره الى البناء الشعري .

حاول النقاد العرب وضع تصورات محدودة حول ما يجب ان يكون عليه المطلع الشعري وتبقى هذه التصورات تتصل بتشكيل القافية ، وهو ما يسمى بالتصريع اي التشاكل بين الحرفين الاخيرين في شطري البيت .

١-انظر ، د.حسني عبد الجليل يوسف ، موسيقى الشعر العربي المرجع ساق ص٢٠ .

٢-د.ابراهيم أنيس ، موسيقى الشعر ص٢٤٦، مرجع سابق .

٣- ابن رشيق العمدة . ص١٥١ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الجيل - بيروت ١٩٧٢م .

ويهتم ابو مسلم البهلاني باحكام مطالع قصائده ، فقد كان معنيا بالتأثير على مخاطبيه ، وحثهم على مجموعة من القيم الاستنهاضية التي كان ينادي بها ، من ذلك مطلع نونيته المشهورة :

تلك البوارق حاديهن مرنان فما لطرفك يا ذا الشجو وسنان[1]

فالتصريع هنا هو التشاكل القائم بين العروض (مرنان) والضرب (وسنان) .

ويبتدىء قصيدة اخرى بالمطلع التالي :

الا هل لداعي الله في الارض سامع فإني بأمر الله يا قوم صادع[2]

فالعروض (سامع) والضرب (صادع) جاءتا متشاكلتين من حيث انه آخر كل منهما حرف العين ، وكذلك تشاكلت الصيغة الصرفية لكل منهما فهما على صيغة (فاعل) ، وهذا يعزز فاعلية التصريع بالاضافة الى ان جهارة حرف العين ، مما يلفت الانتباه إلى ما يقوله الشاعر .

وقد حافظ ابو مسلم البهلاني على تحقيق التصريع في غالب مطالع قصائده الشعرية ذات المضامين المختلفة ، من هذه المضامين الرثاء ، والشاهد على ذلك مطلع قصيدة رثى بها الشيخ محمد بن يوسف :

عش ما تشاء وراقب فجعة الأجل سينقضي العمر في بطء وفي عجل[3]

والتشاكل هنا بين العروض (الاجل) والضرب (عجل)

ب : الروي :

وهو الحرف الذي يلزم تكراره في نهاية كل بيت واليه تنتسب القصيدة فيقال لامية المهلهل وعينيه ابي ذؤيب ورائية الخنساء ويوضح الجدول التالي احرف الروي التي استخدمها ابو مسلم ونسبة ذلك الاستخدام :

١-ديوان ابي مسلم ص٢٩٩.

٢-ديوان ابي مسلم ص ٣٢٧.

٣-ديوان ابي مسلم ص٣٨٥.

مسلسل	الروي	عدد القصائد	عدد الابيات	نسبة
١	ت	٦	١٨٠٠	٪٢٢٣١٨
٢	ل	١٣	٩١٢	٪١١،٣٠٨
٣	هـ	٥	٨٥٠	٪١٠،٥٣٩
٤	ر	١١	٧٨٦	٪٩،٧٤٥
٥	أ	٥	٧٥٠	٪٩،٢٩٩
٦	م	١٠	٦٠٨	٪٧،٥٣٨
٧	ن	٨	٥٨٣	٪٧،٢٢٨
٨	د	٨	٥٣٦	٪٦،٦٤٦
٩	ع	٢	٣٦٩	٪٤،٥٧٥
١٠	ي	٥	٣٣٦	٪٤،١٦٦
١١	ب	٥	١٦٧	٪٢،٠٧٠
١٢	د	٣	١٤٩	٪٠،٨١٨
١٣	ح	٢	٦٦	٪٠،٧٠٦
١٤	ط	١	٥٧	٪٠،٦٤٤
١٥	ف	٢	٥٢	٪٠،٢٩٧
١٦	ق	٢	٢٤	٪٠،١٣٦
١٧	ك	١	١١	٪٠،١١١
١٨	س	٢	٩	
المجموع	١٨	٩١	٨٠٦٥	٪٩٩،٩٩١

الملاحظة :

١– يمثل حرف التاء المرتبة الأولى من حيث نسبة الشيوع .

٢–جاء حرف السين في المرتبة الاخير .

٣– عدم التناسب بين عدد القصائد وعدد الابيات ، فعدد القصائد التي جاءت على حرف التاء–مثلاً–ست قصائد ، وعدد القصائد التي جاءت على روي حرف اللام ثلاث عشرة قصيدة ، بينما تشير نسبة الشيوع لصالح حرف التاء بما يزيد على النصف .

التأويـل :

يسرف النقاد في تأكيد الارتباط بين القافية وموضوع القصيدة الى حد يظهر فيه المهرة بالشعر من النقاد القدامى ، وهم يصطنعون القافية وينصبونها للبيت ، كأنهم صيادون القوا شباكهم في انتظار الفريسة ، يصور ذلك ابن رشيق القيراني حين يقول:-

«إن من الشعراء من اذا أخذ في (صنعة الشعر) كتب من القوافي ما يصلح للوزن الذي هو فيه ثم أخذ مستعملها وشريفها وما ساعد معانيه ، وما وافقها ، واطرح ما سوى ذلك ، الا انه لا بد ان يجمعها ، ليعيد فيها نظره وهذا الذي عليه حذاق القوم» [1] .

واذا كنا نذهب الى انكار حتمية ارتباط القافية بالموضوع فاننا نقول ، ان مثل ذلك التصنع الذي اشرنا اليه ناتج عن الالتزام بالقافية الموحدة وعدم الخروج عليها ، وان بلغت حداً كبيراً ، يأتي على مخزون الشاعر المحدود حتماً من الالفاظ التي تسعفه لتركيب القافية .

وفي هذا الاطار تبلغ احدى القصائد التي نظمها ابو مسلم البهلاني (١٥٩٧ بيتاً) ولا شك ابدا في انه تصيد لقوافي هذه القصيدة كما تصيد غيره .

وطول بعض القصائد يفسر ذلك الاضطراب في انعدام التناسب بين عدد القصائد وعدد الابيات ، كما يظهر الجدول السابق ذلك بالنسبة للقصائد التي وردت علي روي حرف التاء (انظر الملاحظة رقم٣) .

ويمثل حرف التاء المرتبة الاولى ففي قصيدة بنيت على روي التاء نظمها الشاعر على نمط قصائد مشهورة في المجال الديني ، وربما كان من اشهرها قصيدة ابن الفارض التائية الكبرى والتي بلغ عدد ابياتها (٧٦١ بيتاً) ، أي ان طول قصيدة ابي مسلم بلغ ضعف قصيدة ابنً الفارض ، فهل لنا ان نفهم ذلك على انه رغبة في التجاوز ؟ وربما يسعفنا على هذا الفهم امر آخر ، وهو اختيار التاء كروي لقصيدة طويلة ، وهو – كما يدل عليه الاستقراء – من الحروف القليلة الشيوع .

١–ابن رشيق العمدة ص٢١١.

ففي دراسة الدكتور ابراهيم أنيس حول أحرف الروي في الشعر العربي ونسبة شيوعها «يأتي حرف التاء في القسم الثالث ضمن اربعة اقسام مما يعني قلة شيوعه»[٢].

وامعانا في خلخلة النتائج الاحصائية التي أجريت على حروف الروي في الشعر العربي[٢] .

يسجل حرف السين أدنى نسب التردد في شعر ابي مسلم البهلاني فلا يزيد عدد الابيات التي رويها حرف السين على تسعة ابيات .

ج-التخميس :

المخمسات نمط من القصائد مبني على نظام الاشطار ، وتتحد فيها «قافية» الشطر الخامس في كل مخمسات القصيدة بينما تختلف الاشطار الاربعة في كل تخميس عن الآخر ، وغالباً ما يأتي المطلع متحداً في قوافي اشطاره الخمسة التي تحتل اللازمة او الشطر الخامس في المخمسات جميعها(١٢) .

ولقد ورد هذا التمط من القصائد عند ابي مسلم البهلاني جرياً على عادة شعراء تلك الفترة في تخميسهم للقصائد المشهورة ، والتخميسات التي نظمها ابو مسلم كالتالي :

١-درك المنى في تخميس سموط الثناء وقصيدة «سموط الثناء» للشيخ سعيد بن خلفان الخليلي .

سموط ثناء في سموط فريد   بكل لسان قد بشن وجيد[٣]

اما تخميس ابي مسلم فأوله :

أوجه باسم الله وجه شهودي   لعز جلال الله رب وجودي
تسابيح اخلاصي له وصمودي   سموط ثناء في سموط فريد

بكل لسان قد بشن وجيد[٤]

١- ابراهيم انيس ، موسيقى الشعر ، ص ٢٤٨، مرجع

٢-نشير هنا الى الموازنة التي اجراها محمد الهادي الطرابلسي على النتائج الاحصائية والتي قام بها كل من د. ابراهيم أنيس على الشعر العربي ، وسعد مصلوح على شعر الشابي ، ودراسته هو نفسه على شعر شوقي ولخصمها كالتالي فاصوات الراء والميم والتاء والنون واللام والدال تحظى باكثر نسبة في الاستخدام رويا عند شوقي وعند عامة شعراء العربية الذين درست اشعارهم انظر محمد الهادي الطرابلسي (خصائص الاسلوب في الشوقيات ، ص٤٦) منشورات الجامعة التونسية ، السلسلة السادسة ، الفلسفة والآداب ١٩٨١م .

٣-د.حسني عبد الجليل يوسف ، موسيقى الشعر العربي ص٣٧ ، مرجع سابق ٤٠ .

٤-مخطوط «ديوان الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي» ، الناسخ محمد بن عبدالله الكندي ، ١٣١٤هـ،

ونظام قافيتها يجري على النحو التالي :

ـــــــــــــــ د	ـــــــــــــــ د
ـــــــــــــــ د	ـــــــــــــــ د

ـــــــــــــــ د

ـــــــــــــــ د	ـــــــــــــــ د
ـــــــــــــــ د	ـــــــــــــــ د

ـــــــــــــــ د

وقد نظم هذا التخميس على وزن بحر الطويل ويشير العروضيون الى ندرة خروج المخمسات عن بحر الرجز ، لانه كما يقول ابن رشيق بحر «وطيء سهل المراجعة»[1] .

فالتخميس يعتمد اعتمادا كبيرا على الصنعة ، ذلك ان الشاعر يعمد – غالبا – الى أبيات قصيدة مشهورة فينظم ما يتواءم ومضمون تلك الابيات مما يحوجه الى كد الذهن اكثر من الاستجابة للدفق الشعوري .

من هنا تأتي مقدرة الشاعر في ان يضيف معاني جديدة تتسق مع المعاني التي تقدمها ابيات القصيدة الاصل ، وان لا تظهر الاشطار الثلاثة – وهي التي من نظم المخمس ، وكأنما أوتي بها للوصول الى شطري الاصل ، وعلى سبيل الخصوص فقد نجح ابو مسلم البهلاني في هذا التخميس الى ابعد الحدود فذاع تخميسه[2] .

ونستأنس هنا برأي واحد من أعلام عمان الكبار هو سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي مفتي عام السلطنة الذي يقول عن مهارة ابي مسلم في هذا التخميس : «فالمطلع على هذا التخميس من غير ان يعرف ان الاصل لغير المخمس يتوهم ان الجميع لناظم واحد نظرا للتوافق والانسجام اللذين بين الاصل والتخميس»[3] .

٢ – «هو الله فاعرفه» ، جرى فيه على نفس نظام التخميس السابق ، كما جاء على

---

١ – د.حسني عبد الجليل ، موسيقى الشعر العربي ٢ ، ص ٤٢، مرجع سابق

٢ – سماحة الشيخ أحمد بن حمد الخليلي مفتي عام السلطنة ، فعاليات ومناشط ص١٨٨ ، حصاد انشطة المنتدى الادبي لعام ١٩٩١م – ١٩٩٢م اعداد محمد على الصليبي ، واصدار ديسمبر ١٩٩٣م.

٣ –مخطوط «ديوان الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي – مصدر سابق .

وزن بحر الطويل .

والقصيدة المخمسة للشيخ سعيد بن خلفان الخليلي

تـقـدم الى بـاب المليك مـقـدمـا   لـه مـنك نـفسا قبل ان تـتـقـدما[1]

أول تخميس ابي مسلم :

هو الـلـه فـاعـرفـه ودع فـيـه من ومـا   دعـاك ولم يترك طـريـقك مـظـلـمـا

عن الحق نحو الخلق يدفعك العمى   تـقـدم الى بـاب المليك مـقـدمـا

لـه مـنك نـفسا قبل ان تـتـقـدما[2]

٣- «مقدس النفوس» أنشأه الشاعر ابتكارا ، وعلى بحر الرجز ، فاوله :

اصـبـحت لا أمـلك لـلـنـفس وطـر   ولا أرد ذرة مـن الـقـدر

احـمـد مـولاي عـلـى خير وشـر   مستسـلـمـا لما قضى ومـا قـدر

منـتـهـيـاً عـمـا نـهـى لما امـر[3]

٤- «الكلم الطيب» أنشأه الشاعر ابتكارا وعلى بحر الرجز ويتميز بان الشطر الخامس فيه عبارة عن لازمة تتكرر في نهاية كل مقطع ، وهي : «بحق لا اله الا الله» واول هذا التخميس :

غـفـرانك الـلـهـم يـا ربـاه   يـا سـامـعـا دعـاء مـن دعـاه

عـبـدك قـد بـاء بما جـنـاه   فـأغـفـر لـه مـا كسبت يـداه

بـحـق لا الـه الا الـلـه[4]

٥- «فاتحة الدعوة المباركة» ، أنشأه الشاعر ابتكارا وعلى بحر الرجز والشطر الخامس فيه عبارة عن لازمة تتكرر في كل المقاطع التالية ، واللازمة هي «والنصر والتفريج والفتح القريب» وأول هذا التخميس .

الـلـه الـلـه هـو الـلـه احـد   الـلـه الـلـه هـو الـلـه الصـمـد

سـبـحـانـه عـن والـد وعـن ولـد   ولم يـكـن لـذاتـه كـفـوا أحـد

بـحـق لا الـه الا الـلـه   وحـق اسـمـائك عـجـل المدد

والـنـصـر والـتـفـريـج والـفـتـح الـقـريـب[5]

١- مخطوطة ديوان الشيخ سعيد بن خلفان الخليلي مصدر سابق.

٢- ديوان ابي مسلم ص ٤٤   ٣- ديوان ابي مسلم ص ١٧٢ .

٤- ديوان ابي مسلم ص ١٩٢ ٥- ديوان ابي مسلم ص ٢٣٩ .

د. الايطـــاء

وهو ان يكرر الشاعر الكلمة التي تأتي في نهاية البيت بلفظها قبل سبعة أبيات(١) ،وربما وقع تكرار كلمات محددة أكثر من ذلك ، لا سيما في الشعر الديني الذي يأتي في البعض منه كأذكار تتلى في مجالس مخصوصة ، ولابي مسلم قصيدة طويلة عدد ابياتها ٥٢٣ بيتاً ، كرر فيها لفظ الجلالة (الله) في آخر كل بيت من أبياتها ومن هذه القصيدة :

سبحان ذي اللطف باسم الله بالله — كم كربة حلها لطف من الله

سبحان ذي المن لم أرفع اليه يدي — فقرا فلم يغنني من من الله

سبحان ذي الفتح لا ينفك يدركني — في كل منغلق فتح من الله

سبحان ذي النصر كم ظلم منيت به — فقام بالعدل لي نصر من الله(٢)

والشاعر يقسم قصيدته الكاملة الى ثماني قصائد جزئية يلتزم فيها الى جانب القافية الكلمة الاولى لكل بيت ، فالقصيدة الجزئية الاولى تكون على النمط التالي :

سبحان ــــــــــــ ــــــــــــ الله

والقصيدة الثانية :

سبحان ــــــــــــ ــــــــــــ الله

والقصيدة الثالثة :

الهي الحق ــــــــــــ ــــــــــــ الله

القصيدة الرابعة :

الله اكبر ــــــــــــ ــــــــــــ الله

ثم يعود في القصائد الاربع الجزئية الى النمط ذاته

وقد استحسن الدارسون هذا التكرار اذا كان في اعادة الكلمة مسعفة للنفس كلفظ الجلالة او اسم المحبوب ، كما ان التغني بهذه القصائد في مجالس الذكر يتطلب تلك

١-انظر د.حسني عبد الجليل ، موسيقى الشعر العربي ، ١ج ص١٤٥ ، مرجع سابق الديوان لم ترد كلمة «من» ولا يستقيم السياق ولا الوزن بغيرها ٢ -ديوان ابي مسلم ص٢١٤

٣-د.حسني عبد الجليل يوسف ، موسيقى الشعر العربي ج١ ص ١٤٥ ثم انظر قدامة بن جعفر «نقد الشعر» ص٣٨ والعسكري في الصناعتين ص ٧٥٨ ، وابن رشيق في «العمدة ج٢ ص ٢٦ ، ٢٧» عن محمد الهادي الطرابلسي «خصائص الاسلوب في الشوقيات ص ٢٨٢ هامش(١) مرجع سابق .

اللازمة التي يكررها الذاكرون مع حركات جسمانية ملتزمة الايقاع .

ثالثا : ظواهر موسيقية أخرى :

١- ظواهر تركيبية ،الترصيع :

يلجأ الشاعر الى احداث نوع من النغم الموسيقي ناتج عن تقسيم شطري البيت الشعري الى وحدات متساوية ويسميه النقاد القدامى «الترصيع» وهو يقابل السجع في العبارات النثرية .

وقد استخدم ابو مسلم البهلاني التقسيم الرباعي من بين امكانيات تقسيم الشطرين المتعددين ، وذلك على صورتين :

أ- تماثلت فيه القافية وحركة رويها ، ونظامه :

م ـــــــــ م ـــــــــ م ـــــــــ ن ـــــــــ

شـم اذا حـزمـوا نـار اذا عـزمـوا شـهب اذا رجمـوا للفضـل هتـان(١)

فالقافية الداخلية هي حرف الميم جاءت في ثلاثة مقاطع وحركتها الضم ، وخالف المقطع الرابع ذلك بحرف النون اذ التزم القافية الاصلية للقصيدة ، ولا يكاد يظهر ذلك الخلاف لتقارب مخرجي الميم والنون .

ب- تمثلت فيه قافيتا الشطر الاول ، وحركات الروي في كل شطر ونظامه .

م ـــــــــ م ـــــــــ ب ـــــــــ ن ـــــــــ

صعب شكـائمهم سحب مكارمهـم ان حـاربـوا صعبوا او اكـرموا هـانـوا (٢)

وقد جاءت قافية المقطعين الاولين ساكنة (م) وقافية المقطعين الآخرين متحركة (ب-ن) تمنح القافية الداخلية طاقة دلالية في بيان صفات الممدوحين والالحاح عليها ، وهي صفات تتمحور حول القوة والكثرة .

٢- ظواهر لفظية :

رد الاعجاز على الصدور :

١- ديوان ابي مسلم ص ٢٠٩ .

٢- ديوان ابي مسلم ص ٣١١ .

وقد ورد في شعر ابي مسلم البهلاني نمطان منهما :

أ- ما وافقت اول كلمة في الشطر الاول آخر كلمة في الشطر الثاني على الصور التالية:

(.........) ________________ ________________ (.........)

اريني اين اصحابي واهلي ومن عمروك احقابا اريني[1]

وربما كرر الشاعر مشتقات اصل مراوحا بين الافعال كما في قوله :

أبنت محاسنا زانت فشاعت فبيني أيها الشوهاء بيني[2]

فاللفظ الاول (أبنت) فعل ماض ، واللفظ (بيني) فعل أمر ، وكذلك اللفظ الثالث ، والدلالة واضحة هنا في الحث على الظهور ، كذلك نلاحظ في هذا البيت الجناس الناقص بين لفظي شاهت (شوها) .

ب- ربما وقع التكرار بين فعل واسم فاعل كما في قوله :

ايهدم الف مابنى الفرد منكم وكيف بناء الفرد والالف هادم[3]

فاللفظ (يهدم) فعل مضارع ، و(هادم) اسم فاعل .

ج- ما وافقت آخر كلمة في الشطر الاول ، آخر كلمة في الشطر الثاني كما تمثل الصورة التالية:

(.........) ________________ ________________ (.........)

كقول ابي مسلم :

قضى الله ان احيا من العجز قابعا وما أنا في همي الى الله قابع [4]

ومن صور هذا النمط ما يأتي اللفظ الاول مفردا واللفظ الثاني جمعا كقوله :

لو ارعوت مع الغرام نهية يعبث الحب بأحلام النهى [5]

وقد يكرر الشاعر تركيباً في نهاية الشطر الاول والثاني ، كقوله :

حييت بهم على علق ثمين فمن لي اليوم بالعلق الثمين [6]

١- ديوان ابي مسلم ص٤٩١ .   ٢- ديوان ابي مسلم ص٤٩١ .
٣- ديوان ابي ميلم ص٣٢٦ .   ٤- ديوان ابي مسلم ص٣٣٤ .
٥- ديوان ابي مسلم ، ص ٣٣٨ .   ٦- ديوان ابي مسلم ص ٤١٩ .
٧- د. حسني عبد الحميد ، موسيقى الشعر العربي ، ج١ ص ١٧٣ مرجع سابق.

فالمتضايفان (العلق الثمين) تكرار في نهاية الشطرين الاول والثاني .

❁- التطريف :

ويقع في نهايات الاشطار ، حيث تتشابه لفظتان او اكثر في الحروف ، وتزيد احداهما عن الاخرى بحرف او اكثر ، وقد ورد على قلة عند ابي مسلم البهلاني ، كقوله :

قد استباحوا حرمات دينكم ومنعوا الارض الحياة والحيا [1]

فلفظ (الحياة ، الحيا) تشابهاً في الحروف وزاد اللفظ الاول بتاء التأنيث ، وهذا التشاكل الموسيقي لم يمنح الدلالة قيمة خاصة ، وكان في اللفظ (الحياة) دلالة كافية على المعنى المقصود ، فما (الحيا ، المطر) الا نوع من مسببات الحياة فاذا امتنعت الحياة امتنع بالاخرى اي مسبب لها .

وفي موضوع آخر يقول ابو مسلم [1] :

يبلي الزمان وما تبلى محاسنكم ما دام يحمد مطعام ومطعان

فلفظ (مطعام ومطعان) تشاكلا في كل الحروف ما عدا الحرف (الاخير) وهذا التشاكل الموسيقي تسعفه دلاله معنوية ، فقد رصد اللفظان اهم قيم المديح في أبيات الشعر العربي وهما الكرم والشجاعة ، ووقف الشاعر مدحه لممدوحيه على ثبات هاتين القيمتين ، والسياق يوهم انهما باقيتان .

وهكذا لعبت موسيقى الاطار دوراً مهماً في تعزيز فاعلية شعر ابي مسلم البهلاني ، لا سيما الشعر الوطني الذي سعى فيه الى اثارة الهمم وتذكير مواطنيه بماضيهم العريق ، وذلك من خلال تمكنه الجيد لوسائل الشعر العمودي .

١-ديوان ابي مسلم ص٣٠٨ .

الزمن في شعر البهلاني الرواحي

هلال بن محمد العامري

وزارة التراث والثقافة

تقـــديـــم

منذ السبعينات وخارطة الادب العماني تشهد تحولات عدة على كل المستويات والأصعدة وبدأت البنية الثقافية تتسع رقعتها كما هو الحال بخارطة التنمية الشاملة وفي كل الاتجاهات وكنتيجة لهذا التغيير اتسعت رقعة الاجناس الأدبية وتنوعت لتبرز الرواية والأقصوصة والمسرح والقصة القصيرة ومسرحية الشعر وقصيدة النثر بعد قصيدة التفعيلة بعد أن كانت القصيدة العمودية أو الكلاسيكية لا يشق لها غبار .. ثم اتسعت رقعة النزاع واختلفت الرؤى حول الاشكال والاساليب دون أن ندري أننا نؤسس فقط لكتابة جديدة لم تأخذ زينتها بعد أمام مرآة تكوين الثقافة العربية بين المطرقة والسندان .

ويتساءل المرء منا في كثير من الاحيان حول الزمن الذي يعيش فيه .. هل نحن سبقناه ؟

هل نحنن نعيش بمواقيت الأمس ؟؟ أم نعيش زمن اليوم الفعلي لكن بذاكرة مثقوبة ؟؟ هل هذا الزمن هو السبب في تراكم الاحداث ؟؟

كثير من الأسئلة ترفع أشرعتها في وجه الوقت الذي يحدد إقامتنا ويلبسنا الأحداث الواقعة في مسافاته الزمنية ، يحدد إقامتنا المسكونة بالأحلام ، ويذر علينا رماد الوقت القادم من مدائن الأزمنة حين تحضرنا الأحلام ويسجننا في مفكرة مواعيده حين تسكننا ذاكرة الأمس لنؤوب من رحلة الغيب . حين ننتظر اللحظة بلهفة العشاق تمر علينا بوجه القرون وحين تغمرنا السعادة ، تمر علينا كموكب الريح أو كانكسار الضوء في المرايا .

زماننا الذي يمضي كتلويحة اليد ينتظر زماننا الذي يغشاه الغيب وحين نصطف على حدود الوقت نسأل أزمنتنا القادمة عن كنه الأحداث التي ستلم بهذا الكون لمحطات فيها الانتظار لقطار الزمن المجهول ، نبدو حين يغمرنا الذهول كقديسي الزمن المهجور من مرافىء الاحداث ويلبسنا نفس السؤال .. هل نحن أبناء هذا العصر الذي نعيش فيه ؟؟ وإذا كان الجواب هو الرد القاطع ، فهل نحياه جسداً وعقلاً ؟؟ أم أن هناك تواصلاً غامضاً لأشياء لا نعرفها وأشياء نجهلها وأشياء لا نستطيع التنبؤ بها ، ما يرتاد أخيلتنا في اللاوعي يلبس وجهاً آخر حين نستدعي حضوره في عوالم الوعي .

كل منا يحاول أن يستنبط اجابة .. اية اجابة ، حتى ولو كانت غير مكتملة ، وسأحاول تلمس شكل للاجابة على عصر من هذه العصور .. هل نحن أبناء عصرنا الأدبي ؟؟ وهل سبقناه أم تبرأ منا ؟؟ نحن دائما نتعالج بالحلم وبنا رغبة للخروج من الاقبية ولكن ما لم نتفق عليه هو أي عصر ينتظرنا بعد الخروج؟

ليس في البال ما يبيح تجاوز الموجود إلا بالأحلام فنحن جميعاً نبحث عن تفسير لهذا الحاضر المفقود بين ما كان ممكنا وما سيأتي من الابداعات ، يجهضنا الجري

اليومي من أجل المحافظة على البقاء وأحداث العالم تجبرنا أن نعيش بأزمنة أخرى غير أزمتنا ، ليس ذلك فحسب بل يصعب التنبؤ بها . حين نلتقي لنحضن حلم الوقت بركام نتاجاتنا الفكرية والأدبية فاننا نؤسس إقامة جبرية لهذا الزمن الذي يلبسنا ويرتدي باحتمالات لا نعرف ميلادها ولا موطن إقامتها وكأننا نكتب بوقت سيسافر بمواقيت أخرى نجهل محطاتها القادمة .

لا يمكن للزمن أن يقاس بأي شيء أكثر دقة من الفواصل الزمنية في عصر تكثر فيه المتغيرات وتزداد سرعة إيقاعات الحياة . لكن السؤال ، هل يمكن أن يعتبر الزمن عنصراً حيا في تسجيل إيقاعات هذه الحياة وحساباتها التاريخية والسياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية . وهل تبدو إيقاعات الزمن بنفس السرعة حينما تتوقف الذاكرة ويغيب الانسان في اللاوعي الماضي ليدخل به غياهب المستقبل ؟؟ أو ليتجول به بين دهاليز الحاضر ؟ وهل الزمن ثابت أم متغير ؟؟ أسئلة كثيرة يثيرها الزمن في الأدب خاصة عبر الدراسات الحديثة .

ليس من أحد سوى الشعراء حاول أن يلبس الزمن أو يتلاشى بقلب الزمن ليلبسه فاصبح الزمن الشعري متغيرا بتغير تجاربهم وتردد انفعالاتهم وماضيا مضارعا بمضي وحضور عواطفهم ، صعودا وهبوطا وكما هو متغير لدى هؤلاء الشعراء هو وسيلة اختلاف بينهم أيضاً ، حيث لم يتحدد مفهومه الزمن لديهم ، فأصبح لكل منهم زمنه الخاص الذي يختلف عن أزمنة الآخرين بمفهوم النسبي باعتبار ان الوقت مقياس لن تفرزه الممارسة الانسانية بل هو تركيب موضوعي وجد في تحديد مسارات الطبيعة منذ الخليقة ، أما الزمن فهو مفهوم خاص وملتصق بذاتية الفرد وشخصيته . منذ أن نشأ الشعر العربي في العصر الجاهلي[إذ لم يكن المكان يمثل حضوراً في وعي وذاكرة الشعراء نظراً لكثرة سفرهم وترحالهم وتنقلهم فكان المكان وقوفاً بالطلل وليس محور حضور كشأن الذين عزفوا على هاجسه فاثار هواجسهم ، وهاجس الزمن عندي شاغل كبير ما زلت اعيش تناقضاته واحاول في مركب اختلافاته عبر أطراف البسيطة. هذا الزمن الذي نتغنى بهذه المقولة فيه «الوقت كالسيق ان لم تقطعه قطعك» فهل في مسيرتنا الحياتية استطعنا ان نقطع الزمن ونستغله ونستفيد منه ونربي أجيالنا على احترامه والخوف من ضياعه ؟؟ .

لم يذكر القرآن الكريم الزمن بشكله المباشر لكن التعرض كان بذكر الدهر كما ورد في قوله تعالى :

١ – ﴿**هل أتى على الانسان حين من الدهر**﴾[1] فالحين مقدار من الزمن والدهر جامع للحقب الزمنية . ثم قوله تعالى :

---

(١) الآية (١) من سورة الدهر

٢- ﴿وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر﴾ [١]

لكن تحديد الزمن ورد في الحديث النبوي الشريف «لا يأتيكم زمان إلا الذي بعده اشر منه» (وقد عشق الشعراء الزمن وتغنوا به وبأحقابه وتذمروا منه كما قال المتنبي :

اتى الزمان بنوه في شبيبته فسرهم واتيناه على الهرم

فمفهوم الزمن عبر انحاء البسيطة مختلف والتعامل معه متغير حسب فهم شعوب الارض واستغلاله متباين حسب الحاجة إليه ، فالبعض يستفيدون من زمانهم قدر الاستطاعة فيبقى في نظرهم ذلك الخصب المعطاء الذي يجب ان يستفاد منه والبعض يرى فيه ذلك الكهل الهرم فيستمتع ببطء مروره .

إن هذا الزمان بحق يشغل البال فنحن لا نستطيع تحديد مكانه لانه لا يتوقف فوجوده يعني الحضور والحضور يعني الثبوت والثبوت في الزمن غير موجود لان الثبات منفي حتى لجزئيات اللحظة وعلى اساسه حددت مسافات الزمن بأنه الماضي أو المستقبل وحدد الحاضر المضارع بالآن وحددت الجزئية الآنية من الزمن العابر من الماضي الى المستقبل مرورا بآن الحاضر حيث يمكن اعتبارها محطة فصل بي الماضي والمستقبل ، واشكالية الزمن في شعر البهلاني هي ما تعنيني في هذا البحث وبالتالي تحديد مفهوم الزمن اجتماعيا لدى هذه الحقبة من الزمن التي يتحدث عنها الشاعر البهلاني وبوجه التحديد في نونيته الشهيرة المسماة (نونية ابي مسلم) التي بنيت عليها هذا البحث .

نبذة عن حياة الشاعر :

هو الشاعر العماني المعروف ناصر بن سالم بن عديم بن صالح البهلاني الرواحي وكنيته ابو مسلم .

ولد على اصح الاقوال في عام ١٢٧٦هـ [٢] للهجرة في عصر الامام عزان بن قيس، وأختلف على المدينة التي ولد فها ، قيل : مسقط ، وقيل : في وطن والده الاصلي مدينة محرم من أعمال وادي بني رواحة بولاية سمائل حيث نشأ هنالك وتتلمذ على يد الشيخ محمد بن سليم الرواحي ببلدة السيح بوادي محرم مزاملا للشيخ احمد بن سعيد ابن خلفان الخليلي / رحمهما الله / قضى الفترة الاولى من حياته طالباً للعلم متنقلاً في البحث عن المشايخ والعلماء للاستزاده من علمهم ومعارفهم ثم ارتحل الى افريقيا الشرقية عام ١٢٩٥ للهجرة واستقر بزنجبار ثم عاد الى عمان وهكذا ظل ينتقل بين عمان وشرق افريقيا حتى وافته المنية هناك عام ١٣٣٢هـ للهجرة .

---

(١) الآية (٢٤) من سورة الجاثية .

(٢) على اختلاف في سنة ولادته .

مؤلفاته :

أشتملت مؤلفاته على النظم والنثر وهي :

١- النشأة المحمدية .

٢- النور المحمدي .

٣- النفس الرحماني لابي مسلم البهلاني .

٤- السؤالات في الفقه .

٥- نثار الجواهر في ثلاثة اجزاء وافته المنية قبل ان يتممه .

استوقفني في شعر ابن عديم مزجه للازمنة واتكاؤه على المسافة الواقعة ما بين الذاكرة والمخيلة وكذلك اختياله في المسافة الواقعة ما بين السكون والحركة في مجمل بحور شعره ، لم يكن زمنه الشعري مفصولا عن زمانه الاجتماعي والتاريخي والسياسي .

لذا نجده يكثر من استخدام فعل التذكر سواء بالتعبير المباشر او غير المباشر ، وقد يأتي ضمن مدلول عام أو ذكر واقعة من الوقائع ، أو يأتي مرتبطا بدلالة مادية كالنسب او الانتساب وما أكثر هذه الدلالات في شعر البهلاني ! فهو يبني معظم قصائده على الذاكرة التراثية والعقائدية والاجتماعية .

مثال :

يا للرجال ألم يأن الجهاد لكم   بلى لقد فات إبان وإبان

يا للرجال اندبوا لله غيرتكم   فالوقت قد ضاق والتثبيط خسران

هذا المزج الزمني الذي يدفع ذاكرة الشاعر ويستفزها ليقفز المسافات الزمنية ، ولعل الغربة عن وطنه هي الدافع الاقوى تلون حنينه بحركته النسيج البصري في زمنه الماضي لربوع عاشت في الذاكرة احداث تقرب مخيلته للتصوير فتجعله اسير التوهج الفني للصورة المتخيلة وللتفاصيل المستذكرة، يوردها في تعبير حميمي تدنفه اكثر لخلق العلاقة بين المتلقي والحدث، ونرى خياله يتسع في الموافقة بين عالمه الداخلي والخارجي فيظهر لنا مزيجه الحسي والاستعاري المجازي ليضيء لنا جانباً من تجربته الشعرية التي تبين الحنين الذي يفتح الغربة في مسالك الذاكرة .

انه الماضي دائما يراه الشاعر ليس بعين الذكريات فحسب بل عبر الاستحضار كما اراد له وكما يجنح هو بخياله اي كما يريد له ان يكون ولا بد ان يسقط في هذه الحالة ردود فعله على الحدث «أي كما يشاء القدر ان يمضي هذا الحدث» .

وإذا أراد نص ابن عديم ان ينهي هذا التوصيف الشعري فأنه يفتحه على تأويل عميق لا لاشكالية علاقته بالحاضر او المستقبل ، حيث ينبري الاستدعاء في الفرق الظاهر بين «الواقع» الماضوي الذي نتذكره وبين المسافة الزمنية والشعرية التي يطرح الشاعر اسئلة الحوار معها في مغامرة للوصول الى هذا الماضي .. الذي نمضي اليه في زمن الفعل ولا نصل ، اي انه زمن ورقي او دغم الآنية في زمنية الفعل المنتفى عن هذه الآنية.

إن عدم الوصول الى الماضي في ذاته هو وصول الى الشعر وادراك للمفارقة الجوهرية القائمة بينهما «زمن الفعل وزمن رد الفعل في اسقاط ما بداخل الشاعر على آنية كتابة الحدث والمسافة بينهما قد تكون الغربة او عدم المعايشة والاعتماد على المخيلة واسترسال الذاكرة في السرد ليصل الشاعر الى الذروة بالفعل، منصتا لايقاع قافيته المتردد بحركة آلية منتقاة .

البنى الشعرية عند البهلاني :

تغلب على شعر البهلاني عدة بنى اغلبها :

١- البنية الديناميكية .

١- البنية السكونية والاستاتيكية .

٣- البنية الاستنهاضية (مبنية على ايقاع الذاكرة) .

٤- البنية اللغوية .

٥- البنية الايقاعية «اختياره للنون الصوتية الحية» .

٦- بنى وطنية رؤيوية

إن دلالات الزمن معاكسه لما كان يراه من قتامة الرؤية وأزمة الموقف وعسر المخرج ، وفقدان الامل في الاصلاح احياناً لذا حين يستخدم ابن عديم افعال التذكر تواجه دائما في مجهولية التحكم في امر المستقبل حيزيا وزمنيا وتبيان الاحداث الواقعة به والفرق بينها وبين ما حدث في ضمير الماضي المنصرم فيربط كينونة الحدوث بالحاضر في وصف الاحداث والحالات .

النغمية في بنية الايقاعية :

صوت يلبث زمناً «مرنان – وسنان» والايقاع فيها فقرات عدة ، بينها أزمنة محدودة المقادير توزع الحركة والسكون بين شطري البيت الواحد وتكسر حدة القافية الواحدة للقصيدة الطويلة بنغمة ايقاعاتها

الشاعر يختار من بين احداث التاريخ الممتد منذ فجر الاسلام في هذه الرقعة مرورا بالغزاة الذين تعاقبوا من فرس وبرتغاليين ومرورا بالاحداث الذاتية المحلية التي ادت بالمجتمع العماني الى عدم الاستقرار في تلك الآونة فيختار البهلاني صوراً لاشياء وأمكنة وأشخاص ومشاعر يكون محورها بؤرة الذاكرة لاختلاف أزمنتها أو لاختلاف زمكانيتها في ارض الواقع واتحادها في بؤرة الذاكرة ، فهو يتحدث عن الارض كموطن والامكنة حسب تحديداتها الجغرافية القبلية والعادات والتقاليد التي تتوارثها الاجيال عبر الزمان والتاريخ . فالبهلاني وان توجه بروح الجماعة داعيا اياهم الى نبذ الخلافات والتوحد خلف الراية الواحدة ، نراه يسجل رؤيته لجيل ممزق بالخلاف في أزمنة الحلم والذاكرة المزحومة بالتاريخ فيختلط وعيه فيتجمد الزمن ، هذا التجمد في الزمن يخلق مسافة بين الكلمة والكلمة ويخلق مسافة زمنية اخرى بين شطري البيت في القصيدة الواحدة ، حتى الحركة التي تشكل البنية الديناميكية في بعض الاحيان نجدها حركة مراوحة في الداخل وليست حركة انطلاق من شيء آخر، واذا بدأت في الخروج فانها تكون في حركة استدعاء للتاريخ ، للماضي .. للشكل القبلي البحت احيانا، وهذه افعال تؤطر الزمن إن لم تجمده في مدلوله الحقيقي لكنها تعطي مسافة ارحب في الزمن الورقي او آنية الكتابة . ويتجلى التمزق الداخلي للشاعر في قمة لوعته ولهفته لوطنه اثناء هجرته لزنجبار في هذا البيت :

أني اشح بدمعي ان يسح على ... أرض وما هي لي يا بريق اوطان

ويخلط بشدة ذكرى ماضيه الغابر في آنية الحاضر مستخدماً الزمن كرباط وثيق في الحفاظ على الاشياء وبقائها كما كانت عليه لتبدو كما هي عليه في البيت :

وكيف انسى عهودي في مسارحها ... وهن وسط ضميري الآن سكان

حيث كان الزمن هاجسه في معظم أبيات نوتيته الشهيرة يحث بالزمن الماضي همم الرجال ويذكرهم بوقائع أشبه حصولها بالامس ويسقط فعلها على وقائع اليوم ليتدارك بذلك حث الغد وما قد يسببه من وهن وضعف وفرقة للجمع

يا للرجال ألم يحزنكم زمن ... طار البغاث به وانحط عقبان

وتراه دائم الرفض للسكونية والجمود ، دائم التجديد في الايقاع في بنية قصائده حتى إذا استمر بنفس طويل في القافية الواحدة فهو يقدم قصائده باقل قدر من الصور معتمداً على عنصر الزمن الذي يوجه الذهن نحو البنى العميقة الكامنة خلف البنى السطحية الناتجة عن المباشرة التي يخاطب بها الانسان العادي لان قراءة التاريخ في ذات الشاعر على اساس يلبي الاحتياجات الراهنة والمستقبلية تحتاج الى بناء أزمنة الذاكرة وخلطها بشكل حميم، لان طموح القصيدة يمتد من نقطة اختراق المطلق الى نقطة في جدار الماضي السحيق لكل امة من الامم ، تتبلور الاحداث عبر هذا الخط المستقيم عبر ازمنة تاريخية متعددة تختزل الزمن الممتد بين الماضي والمستقبل لتشكل نقطة الالتقاء عبر الاحداث المماثلة وتشكل كينونة الحدث في ذات الشاعر.

وتمثل الازمنة التاريخية في شعر البهلاني محاور عدة تمتزج فيها غربته عن وطنه وحنينه لهذا الوطن فضلا عن محور زمن الشاعر الفرد متوحداً بأزمته الجماعة الذين يتفاني الشاعر من اجلهم فتختلط الازمنة في حملة على امتداد الاحداث من الامس الى الغد مروراً بآنية الكتابة وقت وقوع الحدث وهو ما يمثل الحاضر في استدعاء مسهب للازمنة التاريخية الماضية والمتمثلة في سيرة الانسان والوقائع التاريخية وذاكرة الشاعر وهو يجتر منها احداثاً اقليمية وقعت بموطنه إلا انها تنطبق على الاوضاع العربية في مختلف أزمنتها التاريخية حيث يقول :

يا للرجال دماء المسلمين غدت	**هدراً كما عبثت بالماء صبيان**
يا للرجال افيقوا من سباتكم	**فقد احاط بكم بغي وعدوان**
هبوا لاخذ المعالي من مراقدكم	**فليس يستدرك العلياء نومان**

بهذه القصيدة النونية يصور البهلاني ازماناً تتشابه في ذاكرته بأزمان اخرى ، يصور شكل الانسان المعايش لذلك الواقع بذلك الزمن فيعبر عن الانسان الجماعي المحاصر والانسان الذي يستحيل الى شبح ، أو الى شكل بلا دلالات انسانية لخوفه من المجهول ورعبه من المحيط الذي يعيش به ، وذعره من وعيه الذاتي ، وحصاره الانساني ضمن الابعاد الاجتماعية والنفسية والسياسية والبيئية والقبلية ، حيث يقول :

واطول ما أقضي به أقصر المنى	**خيال اصطبار بينها لويلازم**
فيا لهفا اما قضيت وما قضت	**حقوق معاليها الهموم العوادم**
أفارق في افريقيا عمر عاجز	**وبي كيس كالطود في النفس جاثم**

لذا نرى الشاعر يلجأ الى السطحية المفرطة في هذه التصورات ضمن كثير من صوره وتخيلاته التي تخلق العلاقات الايحائية بين لون وشكل وصفة الاشياء

والامكنة والقبائل والبطون واستدعاد مدلولاتها السالفة عبر ماضيها المنصرم وواقعها الراهن ، ففي استدعائيته المستمرة (يا للرجال) .

هذه الجملة يجعلها بؤرة الذاكرة التي تدور حولها الأزمنة المستدعاة لاحداث ماضويه ، تترد في مواضيع مفصلة من القصيدة ، ليعيد في بؤرة الذاكرة بناءها من جديد لتربط بين مستويات الزمن «ماضي ذو مدلول تاريخي – حاضر .. مستقبل» ثم يخترق فضاء الامكنة باستنهاض الذاكرة معددا هذه الامكنة حسب القبائل التي تقطنها في حشدية متواترة .

أمثلة :

وأين عامر والأحساب مشرفة ... ناهيك عن عامر والاصل عيلان
وأين همدان من صفين تعرفهم ... اذعك عك واذ همدان همدان
وأين نار الوغي آل المسيب من ... قضاعة وزعيم القوم زهران

وينتقل البهلاني بين استدعائيته القبلية الى استدعائية الامكنة حيث يقول :

وأين حلقوم ذلك الملك معصمه ... سمائل فهي للسلطان سلطان

الى ان يصل الى الشمولية في استدعائيته التي تتمحور حولها بنى القصيدة حيث يقول :

أين العصائب من قحطان اجمعها ... وأين من نتجت للمجد عدنان
هبوا لاخذ المعالي من مراقدكم ... فليس يستدرك العلياء نومان

هكذا يحاول البهلاني طرح أسئلته على عصره الادبي من خلال طرح الاحداث في نونيته الشهيرة فيلبس الزمن احياناً ليتقي خطوب دهره الذي يشكوه حينا ويشتكي منه حينا آخر، عبر أبيات عديدة نوجز منها ما يلي في مواقع متفرقة من القصيدة محور البحث :

حتام يا دهر لا تبقي على بشر ... حر وحتام ضيم الحر إحسان
يا دهر يا باخس الاحرار حقهم ... اعط العدالة إن الله ديان
اخفى غبارك يا دهر محاسنهم ... فان دعوتهمو في نكبة بانوا

هكذا نرى الزمن المختلط في شعر البهلاني يرتديه حينا ويسخره احيانا أخرى ويخضع جزيئاته لرؤيته الخاصة .

الموضوع	الفهرس	الصفحة

ما ورد هذا الكتاب لا يمثل بالضرورة
رأي المنتدى الأدبي

رقم الإيداع : ٢٠٠٥/١١٤م

المطابع الفنية سلطنة عمان ت : ٢٤٨١٤١٥٣


عاصمة الثقافة العربية